لهم من حلول ذلك العذاب الذى وعدوه يوم القيامة حين لا تغنى نفس عن نفس شيئاً ولا هم ينصرون ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾[1] .

تفسير سورة الطور

مقدمة :

قال صاحب بصائر :
السورة مكية بالاتفاق
عدد آياتها : تسع وأربعون
وكلماتها : ثلاثمائة واثنتا عشرة
وحروفها : ألف وخمسمائة .
مجموع فواصل آياتها (من رعا)
وسميت سورة الطور ، لمفتتحها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : القسم بعذاب الكفار ، والإخبار عن ذلهم فى العقوبة ، ومنازلهم فى النار ، وطرب أهل الجنة بثواب الله الكريم الغفار ، وإلزام الحجة على الكفرة الفجار ، وبشارتهم نيل عقوبة العقبى بعذابهم فى هذه الدار ، ووصية سيد رسل الأبرار بالعبادة والاصطبار ، فى قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾[2]

متشابهات

قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون شاعر** ﴾ أعاد (أم) خمس عشرة مرة وكلها إلزامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب .

١ ــ سورة المعارج الآيتان : ٤٣ ، ٤٤
٢ ــ سورة الطور الآية : ٤٩

قوله : ﴿ **ويطوف عليهم** ﴾ بالواو ، وعطف على قوله : ﴿ **وأمددناهم** ﴾ ، وكذلك : ﴿ **وأقبل** ﴾ بالواو ، وفى الواقعة : ﴿ **يطوف** ﴾ بغير واو فيحتمل أن يكون حالاً ، أو يكون خبراً بعد خبر . وفى الإنسان ﴿ **ويطوف** ﴾ عطف على ﴿ **ويطاف** ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

١ ــ إن فى ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .
٢ ــ إن فى نهاية كل منهما وعيداً للكافرين .
٣ ــ إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التى تتعلق بالمعاش أو المعاد ، ففى الأولى أقسم بالرياح الذاريات التى تنفع الإنسان فى معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذى أنزل فيه التوراة النافعة للناس فى معادهم .
٤ ــ فى كل منهما أمر النبى بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف
٥ ــ تضمنت كلتاهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى غير ذلك من المعانى المتشابهة فى السورتين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ ① وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ② فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ⑦ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ⑰ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑱ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑲ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ⑳ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ㉑ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ

وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

معاني المفردات

(الطور) المراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى — عليه السلام — (وكتاب مسطور) المراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، والمسطور : أى : المكتوب على طريق منظم (رق) الرق (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه (منشور) المنشور المفتوح الذى لاختم عليه (والبيت المعمور قيل : المراد الكعبة ، وقيل : بيت حيال البيت المعمور فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت . (والسقف المرفوع) هو السماء . (والبحر المسجور) أى : الموقد المحمى ، من سجر التنور أى : أوقدها يعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديماً . (تمور) تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المور التردد فى الذهاب والمجىء . (خوض) أصل الخوض السير فى الماء ، ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل (يدعون) أى : يدفعون دفعاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها . (فاكهين) أى : طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، (ووقاهم) حفظهم (هنيئاً) الطعام الهنىء : مالا يلحق شىء فيه مشقة ولا يعقبه تخمة ولا سقم . (وزوجناهم) أى : قرناهم (حور عين) الحوار : واحدهن حوراء ، والحور : سواد المقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أى : واسعة العيون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة ، الدالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته ويتضمن هذا القسم خمسة أشياء (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور) فالطور هو الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة ، وهو الجبل الذى اختاره الله لتكليم موسى عليه السلام . قال عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه : عن نوف البكالى قال : أوحى الله — عز وجل — إلى الجبال : إنى نازل على جبل منكم . قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال أرضى بما قسم الله لى ، فكان الأمر عليه ، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به ، وإنه لسيد الجبال .

(والثانى) (وكتاب مسطور) الكتاب المسطور فى الرق المنشور المراد به الكتاب المنزل من عند الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنته من آيات ربوبيته ، وأدلة صحف مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة . فالصحف هى الرق ، وكونه بأيدى سفرة هو كونه منشوراً وعلى هذا فيكون قد أقسم سبحانه بسيد الجبال وسيد الكتب ويكون ذلك متضمناً للنبوتين المعظمتين ، نبوة موسى ونبوة محمد — ﷺ — وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلهما كما فى سورة التين والزيتون .

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور قال على وابن عباس وغيرهما : هو بيت فى السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . وقيل : هو البيت الحرم . قال ابن القيم : ولا ريب أن كلاً منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم ، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت .

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته . وهما مظهر آياته وعجائب صنعته . وهما السقف المرفوع وهو السماء فإنها من أعظم آياته قدراً وارتفاعاً ، وسعة وسمكاً ، ونوناً ، وإشراقاً وهى محل ملائكته ، وهى سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور ، والأيام ، والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات وإليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

(والثانى) البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه التى لا يحصيها إلا الله قال مجاهد : (البحر المسجور) الموقد وقد جاء فى الخبر : « إن البحر يسجر يوم القيامة فيكون ناراً »[1] ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال على وابن عباس : أوقدت فصارت ناراً[2] .

---

١ — انظر تفسير الطبرى — سورة الطور والتكوير آية ٦ .
٢ — انظر تفسير ابن كثير فى هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ﴾ هذا جواب القسم أى : إن عذاب يوم القيامة لمحيط بالكافرين المكذبين بالرسل (ماله من دافع) لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهرباً ، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال : (يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا) والمور حركة فى تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء ولهذا فرق سبحانه بين حركة السماء وحركة الجبال فقال : (وتسير الجبال سيراً) وقال تعالى : (وإذا الجبال سيرت) من مكان إلى مكان . وأما السماء فإنها تتكفأ ، وتموج ، وتذهب وتجيء .

قوله تعالى : (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) قال ابن القيم : ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة ، وذكر أعمالهم وعلومهم التى كانوا عليها ، وهى الخوض الذى هو كلام باطل ، واللعب الذى هو سعى ضائع . فلا علم نافع ولا عمل صالح . بل علومهم خوض بالباطل ، وأعمالهم لعب . ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعاً قال تعالى :﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ أى : يدفع فى أقفيتهم وأكتافهم ، دفعاً بعد دفع . فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا ، وقيل لهم :﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق ثم يقال : (أفسحر هذا ؟) الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل . أنه سحر ، وأنتم مسحورة . فهذا لأن سحر لا حقيقة له كما قلتم ، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها ﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ أعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق ، كما عميت فى الدنيا فلا تبصرون حق ؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذى كانوا فى الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها . فقيل لهم يومئذ : ﴿ اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ كلاهما سواء عليكم لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع ، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب . ولا الجزع يعطف عليك قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة . ثم اعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك . وإنما هو نفس أعمالكم صارت عذاباً ، فلم يجدوا من التزامهم به بداً بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لأهله فى النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم فى الدنيا . فإذا زال ذلك اللزوم فى وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالاً كليا لم يعذبوا عليه فى الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ولم يبق له أثر يترتب عليه . فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض وغلب الأقوى الأضعف . وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما حكم الله وحكمته فى خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ولا يظلم ربك أحداً .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين ﴾

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون . فذكر مساكنهم وهم فى الجنان ﴿ فى جنات ونعيم ﴾ وذكر حالهم فى المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿ فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ أى : يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك فجمع لهم سبحانه بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه . ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح . ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ فوقاهم ما يكرهون . وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ﴾ أى يقال لهم ذلك : ﴿ هنيئاً ﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى : ليهنكم ما صرتم إليه . وقيل : أى : متعوا بنعيم الجنة إمتاعا هنيئاً ، وقيل ﴿ هنيئاً ﴾ أى : لا تموتون ، فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء فأخبر سبحانه عن دوام ذلك لهم ثم ذكر حالهم فى علاء مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال تعالى : (متكئين على سرر مصفوفة) وفى ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً . كما قال تعالى : (متكئين عليها متقابلين) فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان فى بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ، ولا يكون بعيداً منه . قد حيل بينه وبينه . بل سريره إلى جانب سرير من يحبه .

وذكر سبحانه أزواجهم وأنهم الحور العين . وقد تكرر وصفهم فى القرآن بهاتين الصفتين قال مجاهد : زوجناهم بهن أى : أنكحناهم إياهن . والحور العين قال مجاهد : التى يحار فيها الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه فى كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون . وقال قتادة : بحور ، أى : بيض وكذا قال ابن عباس . وقال مقاتل : الحور البيض الوجوه ، العين : الحسان الأعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ، طويلة الأهداب مع سوادها . كاملة الحسن . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال تعالى : (خيرات حسان) فالبياض فى ألوانهن ، والحسن فى وجوههن ، والملاحة فى عيونهن وقد وصف الله — سبحانه — نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ودل بما وصف بما سكت عنه .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم ، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى ، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم .

قال الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يارب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾[1] الآية .

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : يقول والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم قال ابن كثير هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يارب أنى لي هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك »[2] وإسناده صحيح وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[3]

قوله تعالى : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ لما أخبر سبحانه عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أي : مرتهن بعمله ولا يحمله عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾[4]

---

١ ـ المعجم الكبير للطبراني ١١ / ٤٤٠ رقم ١٢٢٤٨ .

٢ ـ مسند أحمد ٢ / ٥٠٩ .

٣ ـ صحيح مسلم ـ كتاب الوصية ـ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣ / ١٢٥٥ رقم ١٦٣١ وأبو داود ـ كتاب الوصايا ـ باب ما جاء في الصدقة عن الميت ٣ / ٣٠٠ رقم ٢٨٨٠ والترمذي ـ كتاب الأحكام ـ باب في الوقف رقم ١٣٧٦ والنسائي ـ كتاب الوصايا ـ باب فضل الصدقة عن الميت رقم ٣٦٨١ .

٤ ـ سورة المدثر الآيات : ٣٨ ـ ٤١

قوله تعالى : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾

ثم ذكر سبحانه إمدادهم باللحم والفاكهة والشراب ، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم ، يشرب أحدهم ويناول صاحبه لتم بذلك فرحهم وسرورهم ، ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم فقال : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ فقصد باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش في المقال ، ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي تثبت لشارب الخمر . وتأمل قوله تعالى : ﴿ ولا تأثيم ﴾ ولم يقل ولا إثم أي : ليس فيها ما يحملهم على الإثم ، ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون .

ثم وصف سبحانه خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم ، والمكنون : المصون الذي لا تدنسه الأيدي ، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع امتهانهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم في موضع آخر : ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾[1] ففي ذكره منثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم ، وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه .

قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون : ﴿ إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ أي : كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا ، فأمننا مما نخاف : (ووقانا عذاب السموم) وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسروراً . فهذا كان مسروراً مع إساءته ، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم فبدل الله ـ سبحانه ـ إشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان . ثم أخبر عن حالهم في الدنيا . وأنهم كانوا يعبدون الله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته ، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ، فإنه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم . (مستفاد من كتاب التبيان لابن القيم)

---

١ ـ سورة الإنسان الآية : ١٩

إرشاد وتوجيه ومناقشة

قال تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۝ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۝ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ۝ ﴾

معاني المفردات

﴿ فذكر ﴾ أي : فاثبت على ما أنت عليه من التذكير . ﴿ والكاهن ﴾ من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ﴿ نتربص ﴾ أي : ننتظر ﴿ المنون ﴾ الدهر وريبه : حوادثه وحروفه ﴿ والأحلام ﴾ العقول ﴿ والطغيان ﴾ تجاوز الحد في المكابرة والعناد ﴿ تقوله ﴾ أي : اختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا في الكذب . ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ : أي من غير خالق ﴿ خزائن ربك ﴾ أي : خزائن رزقه ﴿ المسيطرون ﴾ أي : القاهرون المسلطون عليها من قولهم : سيطر على كذا . إذا راقبه وأقام عليه ﴿ سلم ﴾ أي : مرتقى إلى السماء ، ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي : بحجة واضحة تصدق استماعه . ﴿ مغرم ﴾ أي : التزام غرامه تطلبها منهم ، ﴿ مثقلون ﴾ أي : محملون ثقلا ﴿ الغيب ﴾ أي : علم الغيب ﴿ كيدا ﴾ أي : شرا ، ﴿ المكيدون ﴾ أي : الذين يحيق بهم الشر ويعود

إليهم وباله . ﴿ كسفا ﴾ أي : قطعة ، ﴿ مركوم ﴾ أي : متراكم ملقى على بعض ، ﴿ يصعقون ﴾ أي : يقتلون ، ﴿ دون ذلك ﴾ أي : قبله وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ، بأعيننا . أي : في حفظنا وحراستنا ، ﴿ إدبار النجوم ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل أي : غيبتها بضوء الصباح .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لا محالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول — ﷺ — على حق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه — أمر رسوله هنا بالثبات على التذكير والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجه وسيفا في هذه الدار ومنزلة ورفعة في دار القرار ، ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم . وإلى أنهم ما عرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى لا اتباعا للدليل والبرهان ، وبعد أن أقام عليهم الحجة وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئا ، فالله ناصره عليهم ، ومظهر دينه ، وبيده الغلبة والقهر عليهم ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لا مرد له ، يوم لا تنفعهم حيلهم وشركاؤهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليا ولا نصيرا ، وأن الله سيصيبهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرك عليهم وكالئك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ، ومن مجلسك وحين تغيب النجوم ، ويصيح الصائح وتغرد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة سبوح ، قدوس ، رب الملائكة والروح .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله — ﷺ — : بأن يبلغ رسالته إلى عباده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ أى : لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذى يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء (ولا مجنون) وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس . وممن قال إنه كاهن : شيبة بن ربيعة وممن قال إنه مجنون : عقبة بن أبى معيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا فى الإنكار عليه فقال :

﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾

روى أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صدق دعوته — ﷺ — ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون . فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، ثم افترقوا عن هذه المقالة فنزلت الآية (رواه محمد بن اسحق فى السيرة عن ابن عباس) فقال تعالى منكراً عليهم : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه فى. تعالى أمر رسوله أن يهددهم ويتهكم بهم : (قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أى : قل لهم : انتظروا وتمهلوا فى ريب المنون . فإنى متربص معكم منتظرا قضاء الله فى وفيكم ، وستعلمون لمن عقبى الدار .

قوله تعالى : (أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون) أى : عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التى يعمون فى أنفسهم أنها ضلال معاندون فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك كقوله تعالى : **﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾**

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾

أى : أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ (بل لا يؤمنون) أى : أن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ما قالوا .

ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم فى دحض ما قالوا

فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى : إن كان شاعراً فلديهم الشعراء العظماء ، أو كاهناً فلديكم الكهان الأذكياء ، وإن كان قد تقوله فلديكم الخطباء الذين يحبرون الخطب ، فهلمّ فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله . قال تعالى : **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾**[1]

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

بحث فى الإعجاز القرآنى

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فى كتابه النبأ العظيم ما نصه :

القرآن معجزة لغوية

« من كان عنده شىء من الشك فى هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه فيم ذلك الشك ؟ هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتى بكلام فى طبقة البلاغة القرآنية ؟ أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته .

إن علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذى أعجزهم ، ولكنه لم يحسب أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان ومازال معجزة بيانية لسائر الناس ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به ؟

أم يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدرى . ما أسراره وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا الترتيب :

١ — فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو الكتابة ، وآنس من نفسه اقتداراً فى البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه . فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين ، وإنما يعرض — إن عرض — للأغرار الناشئين ومثل هذا دواؤه عندنا نصح نتقدم به إليه أن يطيل النظر فى أساليب العرب وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب حتى تستحكم عنده ملكة النقد البيانى ، ويستبين له طريق الحكم فى مراتب الكلام وطبقاته ثم ينظر فى القرآن بعد ذلك وأناله زعيم بأن كل خطوة يخطوها فى هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره ، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك فى أمره ، إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار

غة وإحساناً فى تصريف القول . وامتلاكاً ناصية البيان ، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه ، وإنكارا
وته ، وخضوعاً بكليته أمام أسلوب القرآن . وهذه قد يبدو لك عجيباً ، أن يزداد شعور المرء بعجزه
ن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع به علمه . ولكن لا عجب . فتلك سنة الله فى آياته التى
صنعها بيديه : لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها .
لا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها . ومن
ا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون فإن أبى المغرور إلا إصراراً على غروره ،
كبر عليه أن يقر بعجزه وقصوره . دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه ويبرز قوته . وقلنا له : أخرج
أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ... غير أنا نعظه بواحدة أخرى : ألا يخرج
الناس ببضاعته حتى يُطيل ... ويحكم موازنة وحتى يستيقن الإحسان والإجادة ، فإنه إن فعل
ك كان أدنى أن يتدارك غلطه ويوارى سوءته . وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان
ا .

وإن فى التاريخ لعبراً تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة : فجاءوا فى معارضة القرآن بكلام
يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم ؛ بل نزلوا به إلى حرب من السخف والتفاهة باد عواره ، باق
ه وشناره . فمنهم عاقل استحى أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته . ومنهم ماكر وجد الناس
زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته ، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين (ومن ذلك ما اشتهر
تلك الكتب التى وصفها زعماء نحلتى « القاديانية » و « البهائية » لتكون دستورا دينياً كالقرآن وقد
سوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية ، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه ، وادعوا
لأنفسهم النبوة أو الألوهية ...)

ومنهم طائش برز بها إلى الناس . فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين . (كمسيلمة
الكذاب ...)

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر فى تلك العبر وليأخذ بأحسنها . ومن
يجنح فليصنع ما يشاء .
— وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى فى الناس من هو أعلى منه كعبا فى هذه الصناعة ،
فى نفسه : « نحن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان ، ولم يكن لى فى معارضة القرآن يدان : لعل
الأمر يكون يسيرا على من هو أفصح منى لساناً وأسحر بياناً ، فمثل هذا نقول له : إرجع إلى
الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرون أن يأتوا بمثله ؟ فإن قالوا لك « لو نشاء لقلنا مثل

هذا » فقل : « هاتوا برهانكم ! » وإن قالوا : « لا طاقة لنا به » فقل : أى : شىء أكبر من العجز
شهادة على الإعجاز .

ثم أرجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام
القرآن فى عصر من أعصاره وأن بضعة النفر الذين انفضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزى والهوان ، وسحب
الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل . لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم فى عصر نزول القرآن . وما أدراك
ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربى . وأرقى أدوار التهذيب اللغوى . وهل بلغت
المجامع اللغوية فى أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية فى ذلك العصر من العناية بلغتها ، حتى أدركت
هذه اللغة أشدها ؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها ؟ .. ما هذه الجموع المحشودة
فى الصحراء ، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ — إنها سوق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم
وأجود صناعاتهم ؛ وما هى إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة يتبارون فى عرضها ونقدها .
واختيار أحسنها والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس ، يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم وما أمر
حسان والخنساء وغيرهما بخاف على متأدب .

فما هو إلا أن جاء القرآن — وإذا الأسواق قد انفضت ، إلا منه . وإذا الأندية قد صفرت .
إلا عنه . فما قدر أحد منهم أن يُباريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة
أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه
على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى ،
متهكماً بهم متنزلا معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله . ثم دعاهم أن يأتوا
بعشر سور مثله . ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ثم بسورة واحدة من مثله (وانظر كيف تنزل معهم
فى هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شىء مما يماثل كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل
حسبكم أن تأتوا بشىء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد ولذا كان
هو آخر صيغ التحدى نزولاً ، فلم يجىء التحدى بلفظ (من مثله) إلا فى سورة البقرة المدنية) وأباح
لهم فى كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا من استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز فى غير مواربة
فقال : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا ﴾[1] سورة الإسراء . وقال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾[2]
سورة البقرة فانظر أى إلهاب ، وأى استفزاز ! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد فى قوله : ﴿ ولن
تفعلوا ﴾ ثم هددهم بالنار ، ثم سواهم بالحجارة . فلعمرى لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨
(٢) سورة البقرة آية : ٢٤

منافسه وهم الأعداء الألداء وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته . ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته ، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقْباً ... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف . وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان ، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان .

ومضى عصر القرآن والتحدى قائم ليجرب كل امرئ نفسه ، وجاء العصر الذى بعده وفى البادية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم ولم تنحرف ألسنتهم ، ولم تتغير سليقتهم ، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الذين من أساسه . ويثبتوا أنهم قادرون من أن القرآن على ما عجز عنه أوائلهم ، لفعلوا ، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل :

ثم مضت تلك القرون ، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد ، كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً في هذا المطلب العزيز . فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم . وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين : وجدانى وبرهانى .. ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٣ — فإن قال لنا : نعم ، قد علمتُ أنه لم يأت أحد بشيء في معارضة القرآن . ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم ، فربما ترك الإنسان فعلاً هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التى من شأنها أن تحث عليه ، أو لأن صارفاً إلهياً ثبط همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه ، أو لأن عارضاً فجائياً عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه — ففى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلة اكتراث بشأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله ، وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزاً عنه حقاً ، لكن ليس لمانع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية بل لمانع خارجى هو حماية القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة المعارضين ، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله .

قلنا له هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال .

أما الأول فإن الأسباب الباعثة على معارضة كانت موفورة متضافرة ، وأى شيء أقوى فى استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذى توجهه إليك معلنا فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ إن هذا التحدى كاف وحده فى إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته فكيف

لو كان الذى تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذى تتحداه به هو صناعته التى بها يفاخر ، والتى هو فيها المدرب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأى وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبغى من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، ومحو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟

وأما الثانى فإن هذه الأسباب قد رأيناها أتت بالفعل ثمرتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها . حتى كان أمر محمد والقرآن هو شغلهم الشاغل . وهمهم الناصب ، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها وتذرعوا بها : أيخادعونه عن دينه ليلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم ، أم يساومونه بالمال والملك ليكف عن دعوته . أم يتواصون بمقاطعته وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه . أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم ، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة فى المواسم ، أم يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه . أن يخاطرون بمهجهم وأموالهم وأهليهم فى محاربته . أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأنه ؟ !

ثم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوه بكلام مثل الذى جاءهم به ؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره فى أيديهم ؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل ذلك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذى دلهم عليه . فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبى وأصحابه فقد كانوا من قبل تعطفهم عليهم أرحامهم ، وتحببهم إليهم مكارم أخلاقهم كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن فى الصدور ولا فى داخل البيوت فقد قبلوا منهم أن يعبد امرؤ ربه فى بيته كيف يشاء، إنما كانت مصوبة إلى هدف واحد . ومقاومة لخطر واحد هو إعلان هذا القرآن ونشره بين العرب .

ولا يحسبنَّ فى روعك أنهم ما نقموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب . كلا ، فقد كان فى العرب حنفاء من فحول الخطباء والشعراء وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة . فما بالهم قد أهمهم من أمر محمد وقرآنه ما لم يهمهم من أمر غيره ؟ وما ذاك إلا أنهم وجدوا له شأناً آخر لا يشبه شأن الناس ، وأنهم أحسوا فى قرآنه قوة غلابة ، وتياراً جارفاً يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل مدى صوته ، وأنهم لم يجدوا سبيلا لمقاومته

اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقرارة المكين ، لا يوما أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور ، ويجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ، ولا الساكن يبغى عن منزله حولا ، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب ، بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان .

هذا مطلب له دليله ، وإجمال له تفصيله ، وليس من قصدنا ، أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله ، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة ، لتعلم أن ليس كل الكلام عربي ، ككل كلام عربي ، وأن هذه الناحية اللغوية ، جديرة بأن تتفاوت فيها القوى ، نازلة إلى حد العجز ، أو صاعدة إلى حد الإعجاز .

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه ، وبلوغه الغاية في هذا المضمار ، وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام ، فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن خبر وخبرة ، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه سلماً عن أهله ، وتقنع فيه بشهادة العارفين به ، وإذاً يكون من حقك علينا أن نقدم لك مثالاً عن شهادتهم ، فخذ الآن هذا المثال :

جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً ، لتعرض لما قبله ، قال الوليد : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً ، يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . . . الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال صحيح على شرط البخارى .

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما وراءها من السر المصون ، بل فليت القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درّها ، فنفذت من هذا النظام اللفظى إلى ذلك النظام المعنوى ، تجل لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معانى القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن هذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله في بحث الإعجاز العلمى ، وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز « اللغوى » وإنما اللغة ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هى أبنية صوتية ، مادتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هى أداة لتصوير المعانى ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هى الناحية التى سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هى أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوى ، الذى نحن بصدده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هى بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هى أجراس وأنغام .

(الشبهه الخامسة والرد عليها)

٥ — سيقول السائل ، إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع ، لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك ، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً ، ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ، ليست في الناس بدرجة واحدة ، وإن القوى تذهب فيه متفاوته ، على مراتب شتى ، فما نرى إذاً علينا من حرج ، أن نعد الإعجاز ، الذى حدثتمونا عنه أمراً مشاعاً ، يجرى في أساليب الناس ، كما يجرى في القرآن ، ألا ترون أن كل قائل ، أو كاتب ، إنما يضع في بيانه ، قطعة من عقله ووجدانه ، على الصورة التى تهديه إليها فطرته ومواهبه ؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل ، يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم ؟ بكم تستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية ، صوراً كلامية بعدّة الناطقين بها ، حيث لا تجدون كاتباً يكتب ، كما يكتب كاتب آخر على السواء ، ولا قائلاً كذلك ، بل إنه لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء ، فليس البدوى كالحضرى ، ولا الذكى كالغبى ، وليس الطائش كالحليم ، ولا المريض كالسليم ، وليس الأدنى في هذا الباب ، يستطيع الصعود إلى الأعلى ، ولا الأعلى ، يستطيع النزول إلى الأدنى ، بل المتشابهان فطرة ومزاجاً ، المتساويان تربية وتعليماً ، قد يشربان من كأس واحدة ، ثم لا يتناقضان بالكلام على صورة واحدة ، فكيف تأمرون الناس أن يعجزكم بمثل القرآن ، وهم لا يقدرون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض ؟ وكيف تعدون عجزهم عن آية من قدسيته ، وأنتم لا تعدون عجز كل امرىء عن الإتيان بأسلوب غيره آية ، على أن ذلك الأسلوب ، صنع إلهى محض ، لا كسب فيه للذى يجرى على لسانه ؟ أليس هذا القياس يسوّغ لنا ، أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر ، غير أنه اختص أسلوبه بصاحبه ، كما اختص كل امرىء بأسلوب نفسه ؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له : لسنا نماريك في أن كلام المتكلم ، إنما هو صورة تمليها عليه فطرته وموهبه ، ولا في أن هذه الفطرة والمواهب تتفاوتها عند أكثر الناس ، لابد أن يترك أثرها من التفاوت في صور كلامهم ، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس ، فأملت عليهم صوراً متشابهة من القول ، فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة

كل هذا نسلمه ولا ننكره ، لا يضرّنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا ، ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن ، لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية ، كلا .. ذلك ما لايصح فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه ، وإنما نطلب كلاماً أياً كان نمطه ومنهاجه ، على النحو الذى يحب المتكلم أنه كانت

فطرته ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية ، حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس ، وإن كان على غير صورته الخاصة ، فالأمر الذى تدعوهم إلى التماثل ، أو تقاربة فيه ، هو هذا المقدار الذى فيه يتنافس البلغاء ، وفيه يتماثلون أو يتقاربون ، وذلك غير المعاوض والصور المعنية ، التى لابد من الإختلاف فيها بين متكلم ومتكلم ...

هب إذاً المدعوين لمعارضة القرآن ، فيهم الأكفاء والأنداد لنبى القرآن ، فى الفطرة والسليقة العربية . أو من هم أكمل منه فيها ، أو هبهم جميعا دونه فى تلك المنزلة . فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم ، بقول أحسن من قوله ، وأما الأنداد فسيجيئون بشىء مثله ، وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشىء من مثله ، وشىء من هذه المراتب الثلاث ، لو تم لكان كافياً ، فى رد الحجة وإبطال التحدى .

سنقول : بل اختار الواقع ، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم فى البيان ، لم يرتفعوا إلى صبغة البلاغة المحمدية ، وأزعم أن هذا القصور الذاتى الذى قعد بهم عن مجاراته فى عامة كلامه ، هو الذى قعد بهم عن معارضة قرآنه ، إذاً لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآنى . كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوى .

فنجيب : أما أن محمداً ﷺ ، كان هو أفصح العرب وكان له فى هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم ، فذلك ما لا نمارى — بل لا نمترى — فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية ، غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذى كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله فى مجارى العادات ، وبين بعض الناس وبعض فى حدود القوة البشرية ، أم كان أمراً شاذاً خارقاً للعادة بالكلية ؟

فأما إن كان كما نعهد شيئاً يمايكون فى العادة بين البليغ والأبلغ ، وبين الحسن والأحسن ، فلا شك أن هذا النحو من الحلو إن حال بينهم وبين المجىء بمثل كلامه كله ، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب . ألا وإننا قد أرخينا لهم العنان فى معارضة القرآن بهذا أو ذاك ، وأغمضنا لهم فيما يجيئونا أن يكون كلا أو بعضاً ، وكثيراً أو يسيراً ، وتماثلاً أو قريبا من المماثل ، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء .

وأما إن قيل : أن التفاوت بينه على السواء وبين سائر البلغاء ، كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، ولا اختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة ، وتنتسب إلى سائر الفطر فى قليل

ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة إلى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة ، فلا شك أن القول بذلك ، هو أخو القول بأن من الإنسان ، لا يكون من عمل الإنسان ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال فى الشىء بعد الشىء ، وفى الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك فى كل عصر ، ففى عصور متطاولة ، وإن لم يكن فى كل فنون الكلام ، ففى بعض فنونه . وكم رأينا من أناس كثيرة ، تتشابه قلوبهم وعقولهم وألسنتهم ، فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً ، وتتفاوت أحياناً ، حتى لقد خيل إليك أن الروح السارى فى القولين ، روح واحد ، وأن النفس ها هنا هو النفس هناك ، وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين ، من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد ومن يكتب بأسلوب الهمذانى والخوارزمى ، وهلم جرا .

فلو كان أسلوب القرآن ، من عمل صاحبه الإنسان ، لكان خليقاً أن يجىء بشىء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً ، وأقرب إليه هدياً وسمتاً ، وألصق به رحماً ، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً . أو لكان جديراً بأصحابه . الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوه واستظهروه ، وتذوقوا معناه وتمثلوه وترسموا خطواته ، واقتربوا من مناهله ، أن يضمنوا أساليبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضى به غريزة التأسى ، وشيمة نقل الطباع من الطباع ، ولكن شيئا من ذلك كله لم يكن ، وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم ، كما هو جهد البليغ فينا ، أن يظفر بشىء يقتبسه منه فى تضاعيف مقالته ، ليزيدها به علواً ونباهة شأن .

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآنى صورة لتلك الفطرة المحمدية ، لوجب على قياس ما أسلفنه من المقدمات ، أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدى ، ما انطبع منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة ، لا تكون فطرتين ، والنفس الواحدة ، لا تكون نفسين ، ونحن نرى الأسلوب القرآنى ، فنراه ضرباً وحده ، ونرى الأسلوب النبوى ، فنراه ضرباً وحده ، لا يجرى مع القرآن فى ميدانه ، إلا كما تجرى محلقات الطير فى جو السماء ، لا تستطيع إليها صعوداً ، ثم نرى أساليب الناس ، فنراها على اختلافها ضرباً واحداً ، لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبواً ، ومنها ما يشتد عدواً ، ونسبة أقوالها إلى القرآن ، كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك « السيارات » السماوية .

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوى ، فتطمع فى اقتناصها ومجاراتها ، كما تطمع فى اقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة ، فيشتبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة هى ، أم من كلمات الصحابة أو التابعين ، ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوى ، بمزيد الفصاحة ،

ونقاء الديباجة ، وإحكام السَّرد ، ولكنه امتياز ، قد يدق على غير المتمهرين في هذا الفن ، وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تمييز بعض الحديث المرفوع ، من الحديث الموقوف أو المقطوع .

أما الأسلوب القرآني ، فإنه يحمل طابعاً ، لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجعل طامعاً ، يطمع أن يحوم حول حماه ؟ بل يدع الأعناق تشرئب إليه ، ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور .....

وإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفنا ، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايس ووازن وذاق ووجد ، فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلاً : نعم لقد نثلت كنانة الكلام بين يدي ، وعجمت سهامها ، فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً ، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً ، والآن آمنت أنه كما وصفتموه ، نسيج وحده ، وأنه يعلو ولا يعلى ، وأنه يحطم ما تحته ، غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحلاوته ما أدركت — ما يزال الذي أحسُّ به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر ، لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله . وما زالت النفس بعد هذا وذلك ، نزّاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا ، التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام ، وكان فيها سر إعجازه اللغوي . فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك عليه ، لتطمئن قلوبنا ، ونزداد إيماناً إلى إيماننا ؟

نقول : أما الآن ، فقد — والله — طلبت منا جسيماً ، وكلفتنا مراماً بعيداً . مثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحفيت من دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذي وصفوه مما أدركوه ، أقل مما ساقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم .

ونحن وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم ، هل تحسب أننا سنجد سبيلاً غير سبيلهم ، فنزعم أننا في هذه العُجالة ، سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشف الناس من جوانبه ، كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص ، التي تلاقيت من كتاب الله كلما سمعناه ، أو تلوناه وتدبرناه ، لعلك واجد في القليل منها ما لا تجده في الكثير ، مما يحده الناس ، فإن زدتك الناس من ذلك أنواعا ، رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً واقتناعاً .

أول ما يفاجؤك

أول ما يلاقيك ويسترعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم ، خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره .

دع القارئ المجوِّد ، يقرأ القرآن ، ويرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه . ثم انتبذ منه مكاناً قصياً ، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومدَّاتها وغنَّاتها ، واتصالاتها وسكتاتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرِّدت تجريداً ، وأرسلت ساذجة في الهواء ، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب ، لا تجده في كلام آخر لو جرِّد هذا التجريد ، وجوِّد هذا التجويد .

ستجد اتساقاً وائتلافاً ، يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وستجد شيئاً آخر ، لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر ، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر ، فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً ، وشطراً شطراً ، وتسمع القطعة من الموسيقى ، فإذا هي تتشابه أهواؤها ، وتذهب مذهباً متقارباً فلا يلبث سمعك أن يمجها ، وطبعك أن يملها ، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد ، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة ، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء ، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن ، لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ، فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟

وترى الناس قد يتساءلون ، لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن ، قارنت بينه وبين الش[عر] نفياً وإثباتاً ؛ ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها ؟

وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب ، وهديت إلى السر الذى فطنت له العرب ، ولم يفطن له المستعربون ؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية فى نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتى البديع ، الذى قسمت فيه الحركة والسكون ، تقسيما منوعاً ، يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة ، توزيعاً بالقسط ، يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادى النفس فيه آنا بعد آن ، إلى أن يصل الى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى ، وهذا النحو من التنظيم الصوتى ، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه فى أشعارها ، فذهبت فيها إلى حد الإسراف فى الاستهواء ، ثم إلى حد الإملال فى التكرير ، فإنها ما كانت تعهده قط ، ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة فى منثور كلامها ، سواء منه المرسل والمسجوع ، بل كان يقع لها فى أجود نثرها عيوب ، تغض من سلامة التركيب ، ولا يمكن معها إجادة ترتيله ، إلا بإدخال شيء عليه ، أو حذف شيء منه .

لا عجب إذاً إن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن فى خيال العرب أنه شعر ، لأنها وجدت فى توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا فى الشعر ، ولا عجب أن ترجع الى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر لأنه — كما قال الوليد : ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ، ولا فى قصيدة ، ثم لا عجب أن تجعل مردّ هذه الحيرة أخيراً ، إلى أنه ضرب من السحر ، لأنه جمع بين طرفى الإطلاق والتقييد فى حد وسط ، فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً ، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لذة أخرى فى نظم تلك الحروف ، ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها ، هذا ينقر وذاك يصفر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرا ، فترى الجمال اللغوى ماثلاً أمامك فى مجموعة مختلفة مؤتلفة ، لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معاظلة ، ولا تناكر ولا تنافر وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضرى الفاتر ، ولا بالبدوى الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها ، وقدر فيه الأمران تقديرا لا يبغى بعضهما على بعض ، فإذا مزيج منهما ، كأنما هو عصارة اللغتين أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقى أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتى قبلها ، تتألف القشرة السطحية للجمال القرآنى ، وليس الشأن فى هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلى النفيسة ، فإنه جلت قدرته ، قد أجرى سنته فى نظام هذا العالم ، أن يغشى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل

حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها ، وحرصهم عليها ، انظر كيف جعل باعث الغذاء ، ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فردا وجماعة ، فكذلك لمّا سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم ، التى أودعها هذا الكتاب الكريم ، قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعذوبته ، ويغريهم عليها بطلاوته ، ويكون بمنزلة « الحداء » يستحث النفوس على السير إليها ، ويهون عليها وعثاء السفر فى طلب كمالها ، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربى المبين ذلك القالب العذب الجميل ، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً فى أفواه الناس وآذانهم ، مادامت فيهم حاسة تذوق ، وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب ، يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها إلى بعيد غوره (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم ، يجمع الى الجمال عزة وغرابة ؟ وهل عرفت أن هذا الجمال ، كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع ؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة ، كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن فى التحدى والإعجاز ، واعتصم بها من أيدى المعارضين والمبدلين ، وأن ذلك الجمال ، ما كان ليكفى وحده فى كف أيديهم عنه ، بل كان أجدر أن يغريهم به ، ذلك أن الناس — كما يقول الباقلانى (فى كتابه : إعجاز القرآن) — إذا استحسنوا هذه الصناعة ، يتبع بعضهم بعضا فيما يستجيدونه من الأساليب ، وربما أدرك اللاحق فيهم شأن السابق ، أو أربى عليه ، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم ، فى اقتداء بعضهم ببعض ، وأساليب الناس على اختلاف طرائقها فى النثر والشعر إلا مناهل مورودة ، ومسالك معبّدة ، تؤخذ بالتعلم ، وتراضى الألسنة والأقلام عليها بالمزاولة ، كسائر الصناعات .

فما الذى منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم ، وهم شرع فى استحسان طريقته ، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته ؟ ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية ، كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه ، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه فى بنيته ، وما اتخذه فى رصف حروفه وكلماته ، وجمله وآياته ، من نظام له سمت وحده ، وطابع خاص به ، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه ، فلا جرم ، لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به ، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه ، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس ، من السابقين منهم أو اللاحقين ، من الحكماء أو البلغاء ، أو النبين والمرسلين لأفسد بذلك مزاجه فى فم كل قارىء ، ولجعل نظامه يضطرب فى أذن كل سامع ، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل ،

(١) الحجر آية ٩

ولنفاه القرآن عن نفسه ، كما ينفى الكبر خبث الحديد ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

فإذا أنت لم يُلهك جمال الغطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما وراءها من السر المصون ، بل فليت القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درّها ، فنفذت من هذا النظام اللفظى إلى ذلك النظام المعنوى ، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيتك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معانى القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن هذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله فى بحث الإعجاز العلمى ، وحديثنا كما ترى لا يزال فى شأن الإعجاز « اللغوى » وإنما اللفظ ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هى أبنية صوتية ، مادتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هى أداة لتصوير المعانى ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها ، وهذه هى الناحية التى سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هى أعظم الناحيتين أثراً فى الإعجاز اللغوى ، الذى نحن بصدده . إذ اللغات تتفاضل من حيث هى بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هى أجراس وأنغام .

أما النظر فى المعانى القرآنية ، من جهة ما فيها من العلوم العجيبة ، فتلك خطوة أخرى ، ونظرة خارجة عن البحث اللغوى جملة ، إزاء الفضيلة البيانية ، إنما تعتمد دقة التصوير ، وإجادة التعبير عن المعنى كما هو ، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون ، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً ، وأن يكون هدى فى نفسه على أى صورة أخرجته ، وبأى لغة عبرت عنه .

نعم قد تتفاوت اللغات فى الوفاء بحق المعنى ، فيكون التعبير الجيد مما يزيد فى قيمته العلمية ، لكن النظر هنا فى قيمة البيان لا فى قيمة المبين ، فلا نعجل عجل علينا تلك النظرة العلمية ، حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية .

والآن قد وصفنا لبعض خصائص القرآن البيانية . ولنرتبها على أربعة مراتب :

١ ـــ القرآن فى قطعة قطعة منه .

---

(١) فصلت الآيات : ٤١ ، ٤٢ .

٢ ـــ القرآن فى سورة سورة منه .

٣ ـــ القرآن فيما بين بعض السور وبعض .

٤ ـــ القرآن فى جملته .

« القرآن فى قطعة قطعة منه »

ليتنا ندرى والله ماذا نقول لك فى أسلوب معجز فى وصفه ، كما هو معجزة فى نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هى جملة القول فيه ، وهى أنه « تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها ، على تباعد ما بين أطرافها » . هذه كلمة تحتاج تفسيرا طويلاً يمتلىء به الصدر ، ولا ينطلق به اللسان ، وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة ، غير أننا قبل أن نحدثك فى هذا الجانب عن القرآن ، سنحدثك عن كلام الناس حديثاً ، يفهمه كل من عالج صنعة البيان بنفسه ، لتعرف من وجوه النقص هاهنا ، وجوه الكمال هناك ، ومن أبواب العجز هاهنا ، أسباب الإعجاز هناك !

« القصد فى اللفظ » و « الوفاء بحق المعنى »

نهايتان كل من حاول أن يجمع بينهما ، وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحداهما :

فالذى يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يجيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، ذلك أنه إما أن يؤدى لك مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول فى باب الحاجة : « صدقوا ، أو كذبوا » وفى باب الوصف « حسن ، أو قبيح » وفى باب الإخبار « كان أو لم يكن » وفى باب الطلب « افعل ، أو لا تفعل » لا زائد على ذلك ، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ، يبذل جهده فى ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ، ووسائل التقرير والتثبيت ، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس فى البيان ، حتى يخرجه ثوباً متقلصاً يقصر عن غايته . أو هيكلاً من العظم ، لا يكسوه لحم ولا عصب ، ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه ، ويكسف شمس فصاحته ، ورب اختصار يطوى الكلام طياً ، يزهق روحه ، ويعمّى طريقه ؛ ويرد إيجازه عيّاً وإلغازاً .

والذى يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره ؛ وإبراز كل دقائقه بقدر ما يحيط به علمه ، وما يؤديه إليه إلهامه لا يجد له بُداً من أن يمد فى نفسه مداً ، لأنه لا يجد فى القليل من اللفظ ما يشفى صدره ، ويؤدى عن نفسه رسالتها كاملة فإذا أعطى نفسه حقها من ذلك ، لا يلبث أن يباعد ما بين

أطراف كلامه ، ويبطىء بك في الوصول إلى غايته ، فتحس بفترة نشاطك ، وباعثة إقبالك ، أخذتون في التثاؤب والاضمحلال ، إن عامة من تعرفهم من الفصحاء قدامى ومحدثين ، يؤتون من هذا الجانب غالباً ، أعني جانب الإملال والإسراف ، لا جانب الإخلال والإجحاف ، وأكثرهم تجمع بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد « فمنهم » من يذهب إلى التكلف والتفصح ، باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب ، فيكلفك أن تبدى وتعيد ، وتقبل وتدبر ، حتى تهتدى إلى وجه مراده ، وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضيقاً عن الفهم . « ومنهم » من يُلقى حول المعنى ركاماً من الحشو والفضول ، ينوء بحمله ، أو يلبسه ثوباً فضفاضاً من الترادف والتقارب ، يتعثر في أذياله ، يحسب أنه يوفى لك المعنى ويحدده ، وفي الحق إنما يشتته ويبدده ، ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه ، لأغناك عنه ثاني شطريه ...

ولئن ظفرت بأحد وفق لتقريب تينك الغايتين إلى حد ما ، في جمله أو جملتين ، فتربص به كيف أمره بعد ذلك ، وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفترة الطبع الإنساني . فينحل من عقدة كلامه ، ما كان وثيقاً ، ويذبل من زهرته ، ما كان غضاً طرياً ، ثم لا يعود من قوته إلا في الشيء بعد الشيء ، كما تصادف في التراب قطعة من التبر هاهنا ، وقطعة هناك ، فتقول : هذا نفيس جيد ، وهذا أنفس وأجود ، وهذا هو واسطة العقد وبيت القصيد .

سل العلماء بنقد الشعر والكلام : « هل رأيتم قصيدة ، أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ، ونظم رائع ؟ لقد أجمعت كلماتهم على أن أبرع الشعراء ، لم يبلغوا مرتبة الإجادة ، إلا في أبيات محدودة ، من قصائد معدودة ، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والردىء ، والغث والمستكره ، وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء ، والأمر فيهم أبين .

فإن سرّك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير . فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير ، يؤدى لك من كل معنى صورة نقية وافية . « نقية » لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها ، « وافية » لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ، ولواحقها الكمالية ، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه ، ففي كل جملة منه ، جهاز من أجهزة المعنى ، وفي كل كلمة منه ، عضو من أعضائه ، وفي كل حرف منه ، جزء بقدره ، وفي أوضاع كلماته من جمله ، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأداته ، وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني : « محاسن متوالية ، وبدائع تترى » .

ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد ما أحصته كفك الكلمات عداً ، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين ، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذلك ، ثم انظر : كل كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائله ؟ وأى كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائله ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية — : « لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد » بل هو كما وصفه الله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1]

(ح — د)

« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة »

وهاتان غايتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف ، الذى تخاطب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة ، التى تخاطب بها الأذكياء ، لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك — إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك — أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة ، تلقى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوقة والملوك ، فيراها كل منهم مقدّرة على مقياس عقله . وعلى وفق حاجته ، فذلك ما لا تجده على أتمه ، إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء . أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة ، أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم ، لا يلتوى على أفهامهم . ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾[2] .

(هـ — و)

« إقناع العقل » و « إمتاع العاطفة » .

وفي النفس الإنسانية قوتان ، قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام ، هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين ، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية ، والمتعة الوجدانية معاً .

١ — هود آية : ١

٢ — القمر آية رقم : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء ، إلا علوًا فى جانب ، وقصوراً فى جانب . (فأما الحكماء) فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك ، واختلاب عاطفتك ، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم ، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع . (وأما الشعراء) فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوّروه لك أن يكون غياً ، أو رشداً ؛ وأن يكون حقيقة ، أو تخيلاً ، فتراهم جادين ، وهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا يبكون ، ويطربون وإن كان لا يطربون ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾[1] .

وكل مرىء حين يفكر ، فإنما هو فيلسوف صغير ، وكل امرىء حين يحس ويشعر ، فإنما هو شاعر صغير . فسل علماء النفس « هل رأيتم أحداً ، تتكافأ فيه قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وسائر القوى النفسية على سواء ، ولو مالت هذه القوى إلى شىء من التعادل ، عند قليل من الناس ، فهل تروبها تعمل فى النفس دفعة وبنسبة واحدة ؟ يجيبونك بلسان واحد كلا : بل لا تعمل إلا متناوبة فى حال بعد حال ، وكلما تسلطت واحدة منهن ، أضمحلت الأخرى ، وكاد ينمحى أثرها ، فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوة وجدانه ، والذى يقع تحت تأثير لذة أو ألم ، يضعف تفكيره ، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً ، وصدق الله : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾[2] .

وأما أن أسلوباً واحداً ، يتجه اتجاهاً واحداً ، ويجمع فى يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح فى الجسد والماء فى العود الأخضر ، فذلك مالا تظفر به فى كلام بشر ، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد ، الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة ، بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة ، بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل

١ ــ الشعراء الآيات : ٢٢٤ ــ ٢٢٦
١ــ الأحزاب آية : ٤

والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم ، حيثما توجهت ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره لاينسى حق العقل من حكمة وعبرة ؟ (أقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف) أو لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه ، لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ؟ يبث ذلك فى مطالع آياته ، ومقاطعها وتضاعيفها ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[1] و ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾[2] .

(ز - ح)

« البيان » و « الإجمال »

وهذه عجيبة أخرى ، تجدها فى القرآن ، ولا تجدها فيما سواه . ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم ، لم تتسع لتأويل . وإذا أجملوها ، ذهبوا إلى الإبهام والإلباس ، أو إلى اللغو الذى لا يفيد ، و يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد ، وتقرأ القطعة من القرآن ، فتجد فى ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام ، والخلو من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك ، دون كدا خاطر ، ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات ، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة ، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ، ووقفت على معناه محدوداً ... هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى ، لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذى سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة ، أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة ، كلها صحيحة ، أو محتملة الصحة ، كأنما هى فص من الماس ، يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة ، بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدرى ماذا تأخذ عينك ، وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك ، لرأى منها أكثر مما رأيت ، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان ، يأخذ كل منه ما يُسر له ، بل ترى محيطاً مترامى الأطراف ، لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال .

وهذا مثل صغير : أقرأ قوله تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ــ الآية ٢١٢ من سورة البقرة ــ وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا فى عقول الناس .

ثم انظر كم فى هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لو قلت فى معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ، ولا سائل يسأله ، لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ، ويقدره على هؤلاء ، أصبت . ولو

١ ــ الزمر آية : ٢٣
٢ ــ الطارق الآيات : ١٣ ــ ١٤

قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله ، أصبت . ولو قلت : يرزقه كثيراً لا يدخل تحت حصر ولا حساب ، أصبت ، فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا ، وأن نظامها لا يجرى على حسب ما عند المرزوق ، من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه ، وبسطه يده جل شأنه .

وعلى الثالث : يكون تلويحا للمؤمنين ، بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر ، حتى يبدل عسرهم يسرا ، وفقرهم غنى ، من حيث لا يظنون ، وعلى الرابع والخامس ، يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافا كثيرة لا يحصرها العد . ومن وقف على علم التأويل ، واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب .

هانحن أولاً ، قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البيانية ، التي لا تنال مثلها أيدى الناس ، وها قد أعطيناك في حاشية كل منها أنموذجاً صغيرا ، يفتح لك الباب إلى احتذائه في سائر القرآن ، فهل ترى في هذا وفاء بما وعدناك ، وبما عودناك ، من التنقية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتمثيل ؟ أم لا لاتزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة ؟

سنزيدك ، وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآنى ، ومتانة نظمه ، وعجيب تصرفه ، حتى يؤدى لك المعنى الوافر الثرى ، في اللفظ القاصد النقى ، إذ كانت هذه الخاصة الأولى — من الخواص التى ذكرناها — أحوج إلى التوقيف والإرشاد .

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : ﴿ **وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟** ﴾ (سورة البقرة الآية ٩١)

هذه قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة ، تتلخص فيما يلى :

---

١ — مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .
٢ — إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .
٣ — الرد على هذا الجواب بركنيه ، من عدة وجوه .

وأقسم لو أن محامياً بليغاً ، وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى ، التى تختلج في نفس الداعى والمدعو ، لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من إشارات ، واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد آمنتم بالتوراة ، التى جاء بها موسى ، لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذى جاء به محمد أنزله الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها . فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز (آمنوا بما أنزل الله) . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته . فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .

ثم انظر كيف سوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله ، على محمد ، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة ، أتدرى لم ذلك ؟ .. لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .. أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك ، وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل .. وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه ، أن يخرج أضغانهم ، ويثير أحقادهم ، فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح ، وذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء ، بما أنزل على ابرهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين شيء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله ، كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للإيمان بالتوراة ، ليس هو كونها أنزلها الله فحسب بل إننا آمنا بها ، لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج ، هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن في قوله : ﴿ **نؤمن بما أنزل علينا** ﴾ وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة ، أن حذف منها فاعل الإنزال ، وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم ، يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ،

وهذا هو المقصد الثانى ، ولكنهم تحاشوا التصريح به ، لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، انظر كيف أبرزه ؟.

إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم ؛ فقال : (ويكفرون بما وراءه) أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ (ماوراءه) فإن هذه الكلمة ، وجهاً تعم به غير القرآن ، ووجهاً تخص به هذا العموم ، ذلك أنهم كما كفروا بالقران المنزل على محمد ، كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى . وكلاهما وراء التوراة ، أى جاء بعدها ، ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوارة من صحف إبراهيم مثلاً مثلاً ، وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد ، باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع ، وهذا هو غاية الإنصاف وتحرّى الصدق فى الاتهام .

جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه ، فتراه لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً ، كأنها مسلمة ، ليبنى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله ؟ لا ، بل (هو الحق) كله — وهل يعارض الحق ، حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر ؟

ثم يترق ، فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه ، كالأمر بين كل حق وحق ؟ فقد يكون الشىء حقاً وغيره حقاً ، فلا يتكاذبان ، ولكنهما فى شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضهما لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و (مصدقاً) لما بين يديه من الكتب ، فأنى يكذّب به من يؤمن بها ؟ !

ثم يستمر فى إكمال هذا الوجه قائلاً : ولو أن التحريف أو الضياع ، الذى نال من هذه الكتب ، قد ذهب بمعالم الحق فيها ، جملة ، لكان لهم بعض العذر فى تكذيبهم بالقرآن ، إذ يحق لهم أن يقولوا « إن البقية المحفوظة من هذه الكتب فى عصرنا ، ليس بينها وبين القرآن ، هذا التطابق والتصادف ، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به ، بل لو أن هذه البقية ، ليست عندهم ، ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين ، لكان لهم مثل ذلك العذر ، أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب فى زمنهم وبأيديهم ، ويدرسونه بينهم ، فماذا يعتذرون وأنّى يذهبون ؟ ! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة (لما معهم)

فانظر إلى الاحكام فى صنعة البيان ، إنما هى كلمة رفعت ، وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حسماً لكل عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الحرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها ، بمثابة حركة تطويق للخصم ، أتمت فى خطوة واحدة ، وفى غير ما جلبة ولا طنطنه .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوق ، الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الرد على المقصد الأصلى ، الذى نجحوا بإعلانه والانتحار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً ، وبين أن داء الجحود فيهم ، داء قديم ، قد أشربوه فى قلوبهم ، ومضت عليه القرون ، حتى أصبح مرضاً مزمناً ، وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ، ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المقطعة ، التى لا سبيل لإنكارها ، فى جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره : (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟)

١ — تأمل كيف أن هذا الانتقال ، كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدّق كتابهم ، أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه ، وهل الذى يكذب من يُصدقك يبقى مصدقاً لك ؟ !

غير أن هذا المعنى ، إنما أخذ استباطا من أقوالهم ، وإلزاماً لهم بمآل مذهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم ، فكانت هذه هى مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة (مصدقاً لما معهم) مثلاقاً لما قبلها ، مفتاحاً لما بعدها ، وكانت آخر درجة فى سلم الغرض الأول هى أول أجزاء الكلام ! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان ، تدريجاً له على مدارجها ، وتنزيلاً له على قدر حاجتها وفى وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلّع النفس واستشرافها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ، ووقفها عليها تامة كاملة .

٢ — وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلى ، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقى لتلك الجرائم ، فلم يقل : (فلم قتل آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل وقالوا سمعنا وعصينا ؟) إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة فى بادىء الرأى فكان يحق لهم فى جرابها ، أن يقولوا : « ومالنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ولو زاد مثلاً « وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم ، لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى — يوقفهم بادىء ذى بدء فى موقف الاتهام — إسراعاً بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيهاً فى الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية فى الجرم ، فعلى أيهم وضعت يدك ، فقد وضعتها على الجانى الأثيم ، لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفاعيلهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

٣ — وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى ، وهى جريمة القتل فى صيغة الفعل المضارع ، تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزاكية .

٤ — ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام ، مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبى العربى الكريم ، وباباً من الاطماع لأعدائه فى نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله (من قبل) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم ، وثبت بها قلب حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس ، ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التجوز المذكور آنفاً فى الاسناد وفى الصيغة .

٥ — وانظر كيف جيء بالأفعال فى الجرائم التالية ، على صيغة الماضى ، بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة . (من قبل) فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعى ، حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ — وانظر إلى الآداب العالية فى عرض الجريمة الثانية ، وهى جريمة الشرك ، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها، وأشدّ نكراً فى العقول ، نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل إلهاً ، بل طوى هذا المفعول الثانى استبشاعاً لتصريح به فى صحبة الأول ، وبياناً لما بينهما من مفارقة ، .. وكم فى هذا الحذف من تعبير وتهويل ! فرب صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى فى الخصم .

٧ — ثم انظر إلى النواحى التى أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة ، لا تمس إليها حاجة البيان فى الحال ، فقد قال : إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق ، أفى أصول الدين فحسب ، أم فى الأصول والفروع جميعاً ، أم فى الأصول وبعض الفروع ، وإلى أى حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم ، وماذا يعنى الداعى إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها ، أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع .

وقال : إنهم يقتلون أنبياء الله ، فمن هم أولئك الأنبياء ؟ ليبحث علماء التاريخ !

وقال : إن موسى جاءهم بالبينات .. فكم هى ؟ وما هى ؟

وقال : إنه أخذ عليهم ميثاقهم ، فعلى أى شىء كان الميثاق ؟ أن حكمة البيان القرآنى ، لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل فى مثل هذا الموضع ، ولو ذكرت هاهنا ، لكان مثلها مثل من يُسأل :

لم ضربت عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا ، واسم أبيه كذا ، وحليته كذا ، وولد فى عام كذا ، ألا ترى أن هذا زائد وكثير .

٨ — ولو ذهبنا نتتبع سائر ما فى هذه القطعة من اللطائف ، لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه ، الذى قصدنا إليه ، فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه فى كلام الناس ، ذلك أن المرء إذا اهمه أمر من الدفاع ، أو الإقناع ، أو غيرهما ، بدت على كلامه مسحة الإنفعال بأغراضه ، وكأن تأثيره بها فى نفسك على قدر تأثره هو ، طبعاً أو تطبعاً ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة فى ظفره ، ومن الامتعاض فى إخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفاً لو أعرض الناس عن هداه ، إذا كان مؤمناً بقضيته ، مخلصاً فى دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض . قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشرها فى عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة ، تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب المقتصد فى حجاجه أخذاً ورداً ، المقتصد فى وصفه مدحاً وقدحاً .

انظر إليه حين يحدث عن القرآن ، فلا يزيد فى وصفه على هذه الكلمة : (هو الحق) . نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة . إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق ، التى تقتنع بها ، وتحب أن تقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجّل على بنى إسرائيل أفحش الفحش ، وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة ، موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة ، تراه لا يزيد على أن يقول فى الأول : إن هذا « ظلم » وفى الثانية : « بئسما » صنعتم ، أذلك كل ما تقابله به هذه الشناعات ؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمنا على وجههما ، ولكن الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام ؟ بل أين الإقناع والتشنيع وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم ؟

لله ما أعف هذه الخصومة ، وما أعز هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر .

قلنا إن القرآن الكريم ، يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من

المعانى . أجل ، تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجمالية ، التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله ، التى يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازاً كله ؛ لأننا نراه فى كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الاسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى ، بأقل من ألفاظه ولا بما يساميها ، فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى ...

« وبعد » فإن سر الإيجاز فى القرآن لا يقف عند الحد الذى أشرنا إليه ، من اجتناب الحشو والفضول بته ، وانتقاء الألفاظ الجامعة المانعة التى هى — بطبيعتها اللغوية — أتم تحديدا للغرض ، وأعظم اتساعاً لمعانيه المناسبة ، لا ، بل إنه كثيرا ما يسلك فى إيجازه سبيلاً أعز وأعجب .

فقد تراه يعمد — بعد حذف فضول الكلام وزوائده — إلى حذف شىء من أصوله وأركانه ، التى لا يتم الكلام فى العادة بدونها ، ولا يستقيم المعنى إلا بها ، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملاً كثيرة متلاحقة ومتفرقة فى القطعة الواحدة ، ثم تراه فى الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ فى تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح ، وفى طلاوة وعذوبة ، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى فى لفظة ، أن لفظة أوسع منه قليلاً .

فإذا ما طلبت سر ذلك ، رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية فى كلمة هنا وحرف هناك ، ثم أدار الأسلوب ادارة عجيبة ، وأمر عليها جندرة البيان يد صناع ، فأحكم بها خلقه وسوّاه ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو مصقول أملس ، وإذا هو نيِّر مشرق ، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطى ، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء ، إلا بعد تأمل وفحص دقيق .

لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف فى كلامها ، وترى ذلك من الفضيلة البيانية ، متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف ، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها ، فإذا قيل للعربى أين أخوك ، قال : فى الدار ، وإذا قيل له : من فى الدار ؟ قال : أخى ، ولو قال أخى فى الدار ، لعدّ ذلك منه ضرباً من اللغو والحشو ، لكن الشأو ، الذى بلغه القرآن فى هذا الباب — كغيره من أبواب البلاغة — ليس فى متناول الألسنة والأقلام ، ولا فى متناول الأمانى والأحلام .

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ... فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾[1] الآية مسوقة فى شأن منكرى البعث

١ — يونس آية : ١١

التى قال لهم النبى : إنى رسول الله إليكم ، وإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقالوا متهكمين : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[1] فما لم يجبهم الله إلى اقتراحهم ، وأخّر عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة ، أطغاهم طول الأمن والدعة ولعافية الحاضرة ، حتى نسوا ريب الدهر ، وأمنوا مكر الله ، وما يحسبه لو كان آتياً ؟

أراد القرآن أن يقول فى جواب هذا الاستعجال — لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم بالخير إذا استعجلوه ، لعجله هؤلاء ، ولكنه قد جرت سنته التى لا تتبدل ، بأن يمهل الظالمين ، ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى ، وعلى وفق هذا النظام يسنون ، سيترك هؤلاء وشأنهم ، حتى يجىء وقتهم .

هذا هو الوضع الذى يوضع عليه الكلام فى ألسنة الناس ، وفى طبيعة اللغة ، لتأدية المعنى الإجمالى الذى ترمى إليه الآية ، فانظر ماذا جرى .. ؟

— كان الكلام فى وضعه العادى مؤلفاً من قضايا ثلاث : اثنتان منها بمثابة المقدمات ، والثالثة بمنزلة النتيجة . فاقتصر القرآن على الأولى والأخيرة ، أما الوسطى ، وهى الاستدراك — ثم الاستثنائية ، كما يسميها علماء المنطق ، فقد طواها طياً .

* — وكانت المقدمة الأولى فى وضعها الساذج ، تتألف من أربعة أطراف : تعجيل من الله فى الخير وفى الشر ، واستعجال من الناس كذلك ، ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله ، واستعجال واحد من الناس .

* — وكانت المقابلة فى التشبيه بحسب الظاهر إنما هى بين تعجيل وتعجيل ، أو بين استعجال واستعجال ، فدير الكلام فى الآية على وجه غريب ، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال ، وبعد هذا التصرف كله ، هل ترى كلاماً مبتوراً ، أو طريقاً ملتوياً يتعثر فيه الفهم ؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة كالبدر ليس دونه سحاب ؟

فارجع إلى طلب شىء من أسرار البيان ، وقل : كيف جاء هذا الاشراق مع هذا الاختصار البليغ ؟

١ — الأنفال آية : ٣٢

نقول :

(أما الأول)

فإنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها علمين من جانبيها ، يدلان على مكانها ، ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب ، فقد أقام عن يمينها كلمة « لو » الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى ، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل ، وعن يسارها حرف التفريع ، التي صدر به النتيجة في قوله : (فنذر) لكي ينم على أن هذا الفرع أصلاً من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس ، فلذلك يذر هؤلاء .

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصاً في المطلوب ، لأنها كما تكون للتفريع ، تكون لمجرد العطف — فربما اتصل القارىء عاطفاً بها على جزاء الشرط قبله ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف — لم يكتف بالفاء ، بل عززها بقوتين أخريين ، إذ حوّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينه وبين ما قبلها ، إيذاناً بانقطاعها عنه معنى وإذناً بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو لبس ، ذلك إلى ما في التحويل من الافتنان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكي نفسه .

(أما الثاني)

فإنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة ، لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كل زوجين واحداً ، هو نظير ما حذفه من صاحبه ، لينبه بالمذكور على المحذوف ، فكانت كلمة « التعجيل » منبهة على نظيرتها في المشبه به ، وكلمة « الاستعجال » منبهة على مقابلتها في المشبه .

(أما الثالث)

فإنه نبه به على معنى هو غاية في اللطف ، وهو سر الامهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله ، ذلك بأنه صوّر هذا التعجيل المفروض بصورة ، تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته ، وسد حاجته المُلحّة ، التي تبعثه على استعجاله ، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه ، كأنه قيل : إنه تعالى لو عجّل لهم ذلك ، لكان مثله بهذا التعجيل ، كمثل هؤلاء المستعجلين في استفزاز البواعث إياه ، وحاش لله .

هنا إلى تصرفات عجيبة أخرى

(منها) أن كلمة « لو » بحسب وضعها وطبيعة معناها ، تتطلب أن يليها فعل ماضي ، ولكن المطلوب ها هنا ليس هو نفي المضي فحسب ، بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله ، التي لن تجد لها تبديلا ، فلو أدى المعنى على هذا الوضع لطال الكلام ، ولقيل « لو كانت سنة الله المستمرة في خلقه أن يعجل .. الخ » ! فانظر كيف اختصر الكلام في لفظ واحد ، بإخراج الفعل في صورة المضارع ، الدال على التكرار والاستمرار ، واكتفى بوضع « لو » قرينة على أن ما بعدها ماضي في معناه ، وهكذا أدى الغرضين جميعاً في رفق ولين .

(ومنها) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب ، أن يوضع الجواب عدلا له فيقال : (لعجلة) ؛ ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول ، إذ بين أنه لو عجل للناس الشر ، لعجل هؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل ، وهو العذاب المستأصل الذى تقضى به آجالهم .

(ومنها) أنه كان مقتضى الظاهر في تقرير النتيجة أن يقال :

« نذرهم » أو « نذر هؤلاء » ، ولكنه قال : (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) تحصيلا لغرضين مهمين ، أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث ، والثاني التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم .

(ومنها غير ذلك ...)

قل لنا بربك : لو ظفرت في كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات ، ففي أي أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة ، أو بما يدانيها في هذا القدر ، أو في صحيفة من الألفاظ ؟

— ٢ —

القرآن فى سورة سورة منه

« الكثرة » و « الواحدة »

هذا الذى حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه ، يضاف إليه أمر آخر ، هو زينة تلك الثروة وجمالها ، ذلك هو تناسق أوضاعها ، وائتلاف عناصرها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها . وأنت قد تعرف أن الكلام

فى الشأن الواحد ، إذا ساء نظمه ، انحلت وحدة معناه ، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً ، وانفصل ما كان متصلاً ، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة ، اذا لم يكن سطحها مستوياً ، أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلا بد إذاً لإبراز تلك الوحدة الطبيعة ، المعنوية ، من إحكام هذه الوحدة الفنية ، البيانية ، وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان ، والتأليف بين عناصره ، حتى تتماسك وتتعانق ، أشد التماسك والتعانق ، ليس ذلك بالأمر الهيّن ، كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة ؟ بل هو مطلب كبير ، يحتاج ، مهارة وحذقاً ولطف حس فى اختيار المواقع لتلك الأجزاء ، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تكميلاً ، وأيها أحق أن يُبدأ به أو يختم ، أو يتبوأ مكاناً وسطاً ؟ ، ثم يحتاج ، مثل ذلك فى اختيار أحسن الطرق لمزجها ، بالإسناد ، أو بالتعليق أو بالعطف ، أو بغيرها ، هذا كله بعد التلطف فى اختيار تلك الأجزاء أنفسها ، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى ، وأنها نقية من الحشو ، قليلة الاستطراد ، وأن أطرافها وأوساطها تستوى فى تراميها إلى الغرض ، ويستوى هو فى استهدافه لها ، كما تستوى أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوى هو بالقياس إلى كل منها .

تلك حال المعنى الواحد ، الذى تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً ، فما ظنك بالمعانى المختلفة فى جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها كم من المهارة والحذق ، بل كم من الاقتدار السحرى ، يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة ، واتجاهاتها المتشعبة ؟ حتى لا يكون الجمع بينها فى الحديث ، كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار والماء ، بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد ، وحتى يكون عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى .

إنه من أجل عزة هذا المطلب ، ترى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما فى غرض غرض ، كان منهم الخطأ والإساءة فى نظم تلك الأغراض كلاً أو جلاً . « فالشعراء » حينما يجيئون فى القصيدة الواحدة بمعان عدة ، أكثر ما يجيئون بها أشتاتاً لا يلوى بعضها على بعض ، وقليلاً ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض ، كما فى الانتقال من النسيب إلى المدح . « والكتاب » ربما استعانوا على سد تلك الثغرات ، باستعمال أدوات التنبيه ، أو الحديث عن النفس ؛ كقولهم : ألا وإن .. هذا ولكن .. بقى علينا .. ولننتقل .. نعود .. قلنا .. وسنقول ..

هذا شأن الأغراض المختلفة ، إذا تناولها الكلام الواحد فى المجلس الواحد ، فكيف لو قد جىء بها فى ظروف مختلفة ، وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً ، والهوة بينها أعظم اتساعاً ، فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البيانى فى القطعة منه ، حيث الموضوعات شتى ، والظروف متفاوته ، لترى من هذا النظام ما هو أدخل فى الإعجاز والإعجاب ...

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أجليناه فى هذا الفصل ، من نظام الوحدات فى السور على كثرة أسباب اختلافها ، وأما إن أحببت أن نريك نموذجاً من السور المنجمة ، كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر ، تتلاحق فيها الفصول والحلقات ، ونسق واحد من البيان ، تتعلق به الجمل والكلمات ، فأى شىء أكبر شهادة وأصدق مثالاً ، من سورة نعرضها عليك هى أطول سور القرآن كافة ، وهى أكثرها جمعاً للمعانى المختلفة ، وهى أكثرها فى التنزيل نجوماً ، وهى أبعدها فى هذا التنجيم تراخياً .

تلك هى سورة البقرة التى جمعت بضعا وثمانين ومائتى آية ، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً ؛ وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً .

واعلم أنه ليس من همنا الآن ، أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية ، التى تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض ، تلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير ...

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ، ونبرز به وحدة نظامها المعنوى فى جملتها ، لكى ترى فى ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى ...

(نظام عقد المعانى فى سورة البقرة)

اعلم أن هذه السورة على طولها ، تتألف وحدتها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد ، وخاتمة . على هذا الترتيب .

(المقدمة) فى التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه من الهداية ، قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم ، وإنما يعرض عنه من لا قلب له . أو من كان فى قلبه مرض .

(المقصد الأول) فى دعوة الناس كافة إلى اعتناق الاسلام .

(المقصد الثانى) فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة ، إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق .

(المقصد الثالث) فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

(المقصد الرابع) ذكر الوازع والنازع الدينى ، الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ، ويعصم عن مخالفتها .

(الخاتمة) فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم فى آجلهم وعاجلهم .

رغبتنا إليك أيها القارىء الكريم ، حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق ، أن تستظهر بالمصحف بين يديك ، لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه فى كل خطوة .

المقدمة فى عشرين آية (١ — ٢٠)

١ — بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة ، لا عهد للعرب بتصدير مثلها فى الإنشاد والإنشاء ، وإنما عهدوها من القراء الكاتبين فى بدء تعليمهم التهجى للناشئين (أ . ل . م)

ومهما يكن من أمر معنى ، الذى قصد إليه بهذه الأحرف ، والسر الذى وضعت هنا من أجله ، فإن تقديمها بين يدى الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها ، من شأنه أن يوقظ الأسماع ، ويوجه القلوب لما يلى هذا الأسلوب الغريب .

٢ — وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جمل ثلاث :

أما أولاهن : فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن ، هو خير كتاب أخرج للناس ، وأنه ليس فى الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه (ذلك الكتاب)

وأما الأخريان فيدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان ، أليس تفاضل الكتب ، إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا الحق أن يكون نيراً لا يثير شبهه ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك ، أن يكون ذلك الحق ، مما تمس إليه حاجة الناس فى إنارة السبيل ، وإقامة الدليل ، إذا ما اشتبهت عليهم السبل ، وتفرقت المسالك ، فذلكم القرآن هو جامع هذه الفضائل الثلاث ، فهو الحق المحض الذى لا بطل فيه ، بل هو الحق اللائح ، الذى لا شبهة باطل فيه ، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين ، الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور (لاريب فيه . هدى) .

مكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث ، بعد تلك الأحرف الثلاثة ، موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه .

وكذلك المربى الصالح « يبدأ » بخطابه الجليل الشأن ، باستمالة الناس واسترعاء أسماعهم « ويثنى » باتخاذ الوسائل التى تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة .

٣ — أول ما تتشوف إليه النفس ، بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته ، هو تعرف الأثر الذى سيحدثه فى الناس ومقدار إجابتهم لدعوته ، فمست الحاجة إلى أن يساق الحديث لبيان هذه الحقيقة المخبية ، وهى انقسام الناس فى شأنه إلى فئات ثلاث : فئة تؤمن به ، وأخرى كافرة ، وثالثة مترددة حائرة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

تكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس ؟ أيجعل الحديث عنهم حديثاً مؤتنفاً انتقافاً بحتاً ؟ ... أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله ؟ ..

شىء من ذلك لم يكن ، ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال ، ذلك أنه فى أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخرتين ، بل أعرض عنهما ، كأن القرآن لم ينزل من أجلهما ، ثم عمد إلى الطائفة الأولى ، فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه ، قائلاً إنه : (هدى للمتقين الذين يؤمنون ...) فكانت هذه « اللام الجارة » هى المعبرة السرية التى انزلق عليه الكلام ، وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين .

٤ — ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها ، بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذى لا ريبة فيه ، حرياً فى بادىء الرأى أن يعدُّ من المفارقات ، التى تثير فى نفس السامع أشد العجب ، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ، ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها ؟ !

ومن جهة أخرى ، فقد كان موقف هذا النبى الرحيم — ﷺ — فى جدة البالغ فى دعوة أمته ، وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصوراً له فى عين من يراه ، بصورة الطامع فى إيمان الناس أجمعين ، الظان أن هذه الأمنية ستصبح فى متناول يده ، متى أخذ الناس فى أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه مسلمون ، ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ، ويقول إن الذى سينتفع بهداه إنما هم المتقون ، فكان هذا التحديد مظنة ، لأن يبتهل الرسول — ﷺ — إلى ربه قائلاً : سبحانك اللهم ، ولم لا يهتدى به الناس أجمعون !

وجب إذاً أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه ، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن ، بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبة

القصور ، وبرد النقص إلى قابلية القابل ، لا إلى فاعلية الفاعل ، وهل يغض من مهارة الطبيب أن يُعرض المريض عن تناول الدواء منه فيموت بجهله ؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العُمى أو المتعامون ؟ — (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ...)

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين ، الذين سبقت لهم الحسنى ، إلى الكافرين ، الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر ، إذاً لعُطف أحدهما على الآخر ، بل على وجه يبنى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابة لهذا السؤال الذى نطقت به حال ، وإزالة للتلك التعجب الذى أثاره سابق المقال ، وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البيانى .

٥ — وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته ، فانضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثالثة على أختها . لأنهم فى التجافى عن الهدى مُشتركون ، تشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم .. (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

٦ — وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة ، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل ، فقد اشتمل الحديث فى كل طائفة على ثلاثة عناصر ، مرتبة على هذا الخط : وصف الحقيقة الواقعة ، فبيان السبب فيها ، فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة .

« فحقيقة » الطائفة الأولى أنهم قوم حصلوا فضيلة التقوى بركيزتها العلمى والعمل ، « وسبب » ذلك استمساكهم بالهدى ، وإمدادهم بالتوفيق من ربهم ، ومآل أمرهم ، الفوز والفلاح .

« وحقيقة » الطائفة الثانية ، أنهم مجردون من أساس التقوى ، وهو الإيمان ، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع مع إنذار « والسبب » عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم ، فلهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وعاقبة أمرهم العذاب الأليم .

« وحقيقة » الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير ، وباطن سوء ، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون ، وليس فى قلوبهم من الإيمان شيء ، ولكل من الوصفين سبب وجزاء أما دعواهم الإيمان ، فسببها قصد المخادعة ، وجزاء الخداع عائد إليهم ، وأما إسرارهم الكفر فسببه مرضى قلوبهم . وجزاء زيادة المرض والعذاب الأليم .

وكما بين سبحانه فى الطائفة الثانية ، أنها بلغت من الإصرار والغواية مبلغاً لا يجدى معه الإنذار ، بين فى الطائفة الثالثة ، أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصح الناصحين ، فهم

المفسدون ، ويزعمون أنهم المصلحون ، وهم السفهاء ، ويزعمون أنهم الراشدون ، ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم ؟ ثم كما ختم الكلام فى شأن الطائفة الأولى ، بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح ، ختم الكلام فى شأن الطائفتين الأخريين ، بأن سجل عليهما وصف الضلالة والخسران .

لذلك ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلاً يناسبها ، فضرب مثلاً للمعترين المختوم على قلوبهم ، بقوم كانوا يسيرون فى ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله ، لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم ، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة ، فذلك مثل النور الذى طلع به محمد — ﷺ — فى تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل ، ففتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين ، الذين ألفوا العيش فى ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا به رأساً ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صماً وعمياناً .« قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى »[1] .

وضرب مثلاً للمترددين المخدعين ، بقوم جادتهم السماء بغيث منهمر ، فى ليلة ذات رعود وبروق ، فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ، ولم ينالوا منه نيلاً ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة ، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرعاً ، وأما تلك التقلبات الجوية والرعد والبرق ، فكانت هى مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ، لا يبين لكل حال لبوسها ، سيراً تارة ، ووقوفاً مرة ، واختفاء تارة أخرى ... ذلك أبداً دأب المنافقين فى كل أمرهم ، إن توقعوا ربحا عاجلا المحسوه فى أى صف وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك ، تنكروا للفئة التى ينالها فى سبيلها شيء من المكروه ، وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيدا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ، فإن نه قبله الحق لا يخشى فى الله لومة لائم .

ولست أبالى حين أقتل مسلما . على أى جنب كان فى الله مصرعى

هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله ، ووضعت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه ، ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع فى المآل إلى الثناء على القرآن ؛ فإن الشيء الذى يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح . ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر ، لا يكون إلا حقا واضحا لا ريب فيه .

١ — سورة فصلت آية : ٤٤

نما هو ذلك الحق الذى لا يتبعه إلا مهتد مفلح ، ولا يعرض عنه إلا بالضبء الباهر والغيث لكثير ؟

لاشك أن هذا كله تشويق أى تشويق لسماع الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق ، هى أن يعبدوا ربهم وحده ، ويؤمنوا بكتابه ونبيه (الخ) جرياً على أسلوب الغيبة ، الذى جرى عليه فى وصف الكتاب ، وفى وصف الناس ، ولكنه حوّل مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : (يأيها الناس اعبدوا ربكم ...)

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل ؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذى وصف القرآن به الطوائف الثلاث « متقين ، وكافرين ، ومخادعين » قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال فبعد أن كانوا غُيباً فى مبدأ الحديث عنهم ، أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشائق حاضرين فى خيال السامع ، كأنهم رأى عين ، وفى مكان ينادى منه ، فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم ، كما يوجه إلى الحاضرين فى الحس والمشاهدة ، هذا من الناحية العامة ، وأما من الناحية الأخرى ، فإن هذه الأمثال البليغة التى ضربت فى شأن المعرضين خاصة . قد أبرزتهم أمام السامع فى صورة محزنة ، تبعث فى نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم .

حتى أنه لا يشفى صدره ، إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم ، أن افتحوا أعينكم أيها القوم ، وتعالوا إلى طريق النجاه . وهكذا استعدت النفس أتم استعداد ، لسماع هذا النداء . (يأيها الناس اعبدوا ربكم) — الآيات إلى آخر المقصد الأول .

المقصد الأول من مقاصد السورة : فى خمس آيات (٢١ — ٢٥) .

فى هذه الآيات الخمس تسمع نداء قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب :

١ — أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً .

٢ — أن آمنوا بكتابه الذى نزله على عبده .

٣ — أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هذه المطالب الثلاثة هى الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية ، تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعى ، من المبدأ ، إلى الواسطة ، إلى الغاية .

وترى كل واحد من الركنين الأولين ، قد أقيم على أساس من البرهان العقلى القاطع لكل شبهة ، أما الركن الثالث ، فقد جىء به مجرداً عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب ، وتحريك الوجدان ، بالتحذير والتبشير ما يسد فى موضعه مسد البرهان .

عود على بدء : فى أربع عشرة آية (٢٦ — ٣٩)

١ — بدأ الكلام فى السورة — كما سمعت — بوصف القرآن بما فيه من الهدى اجمالاً : فكان الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن فى هذه الهداية ، ليقول أنها هداية كاملة بالبيان الوافى الشامل لكل شىء ، فانظر كيف مهّد لهذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع .

أما المقدمة ، فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم ، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وأما المقصود ، فقد بين فيه أن لله وحده المثل الأعلى ، الذى لا يشاركه فيه شىء الأنداد ، ثم وضع فيه الفيصل بين النبى والمتنبى تلك المعجزة العالمية ، التى لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتى بمثلها ، ثم ذكر مثل النار التى أعدت للكافرين ، ومثل الجنة التى وعد المتقون .

فتراه قد تناول فى هذه الأمثال ضروباً شتى من الحقائق علوية وسفلية ، مادية ومعنوية .. حتى كانت نهاية الحديث ، أن عرض ما فى الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية ، تلك المعانى التى قد يستحى المرء من ذكرها . وقد يعدها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهى الأعظم ، غافلاً عن أنه الحق الذى لا يستحى من الحق ، وأنه الرحيم الذى يتنزل برحمته إلى مستوى العقول البشرية ، فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، ومما يرجون أو يحذرون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوته إلى استنباط القاعدة الكلية منها ، بيان أن هذه هى طريقة القرآن فى هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ، ويبين الحقائق حلوها ومرها ، واضحا

كل شيء في موضعه ، مسمياً له باسمه ، لا يبالي أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو حقراتها (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها)

حقاً إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل ، والضار والنافع ، شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات ، كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً ، قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته ، وإلى النعي على من أعرض عنه ، كذلك وصف طريقته في الهداية ، قد جرها هنا إلى مثل هذا التقسيم . (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم (وما يضل به إلا الفاسقين)

وكما أن بيان أوصافهم هناك ، قد جلاهم أمام السامع في صورة تحرك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم ، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار . (كيف تكفرون بالله — الآيات)

— وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة ، ولكن في ثوب جديد :

(أما في الركن الأول) فقد سمعته هناك ، يأمر بعبادة الله ، وتسمعه هنا ، ينهى عن الكفر بالله . وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة ، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة ، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل .

(وأما الركن الثاني)

فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ، وهنا ذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم ، لتعلم أن نبينا لم يكن بدعاً من الرسل ، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم متصل بنشأة الانسان ، وقد مهد لهذا البيان ، بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة ، وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشرى ،

اختاره الله لخلافة الأرض ، وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ، ليكون الامتنان بذلك جارياً مع الامتنان بالنعم المذكورة في الركن الأول على حسن نسق — ثم اتصل من هذا التفضيل ، إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ، ومخادعته إياه بوساوسه ، وما انتهى إليه

أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما ، وابتلاء ذريتهما بالتكاليف . وهو — كما ترى — حديث يطلب بعضه بعضاً ، ويأخذ بعضه بأعناق بعض .

(وأما الركن الثالث) فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار بالهما من وصف رائع أو مروع ، وتراه هنا يكتفي عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلهما نظماً مصنع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد ، ومتخلصاً أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر ، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها ، هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقبى .

ولقد ختم الكلام هنا — كما ختمه في المقدمة — بشأن المخالفين ، تمهيدا للانتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وهو المقصد الثاني

المقصد الثاني من مقاصد السورة : في ثلاث وعشرين ومائة آية (٤٠ — ١٦٢) :

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية ، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وأكثرهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم ، بحسبك أن تعلم هذا وذاك ، لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة ، نعني دعوة بني اسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ، ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة ، والحديث عنهم تارة أخرى ، بألوان تختلف هجوماً ، ودفاعاً ، واستمالة واستطالة إلى ما بعد نصف السورة .

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ، ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها .

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة (٤٠) هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله ، ففيها يناديهم بأحب أسمائهم ، وأشرف أنسابهم ، ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً ، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم ، ويرغبهم ويزهدهم .

(ثم) رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج ، وبقدر معلوم ، فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به ، في ست آيات (٤١ — ٤٦) — وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية (٤٧) ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى (٤٨) .

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :
(القسم الأول) يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام .
(القسم الثانى) يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .
(القسم الثالث) يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام .
(القسم الرابع) يذكر فيه حاضر المسلمين فى وقت البعثة .

أرأيت هذه المراحل الأربع ، التى سلكها القرآن فى دعوة بنى اسرائيل ، كيف رتبها مرحلة مرحلة ، وكيف سار فى كل مرحلة منها خطوة خطوة .

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا ، لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين . فهى فى جملتها ساحات من الله للنبى والمؤمنين ، فى خاصة شأنهم ، وفيما بينهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لون كل طرف منها بلون المقصد الذى يتصل به ، فالتقى المقصدان فيه على أمر قد قدر . ألم تر كيف بدأها ، بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم فى بعض حقائق الاسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق ، التى ثاروا فيها ، فجعل يمسح غبار الشبه عن وجهها ، حتى جلاها بيضاء للناظرين ، فكانت هذه البداية — كما ترى — نهاية لتلك المعارك الطويلة ، التى حورب فيها الباطل فى كل ميدان . ثم رأيت كيف ساق الحديث ، فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمساك بها فى غير ما آية ، أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها ، يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة ؟

بلى .. إن ذلك هو ما توحى به سياقة هذه النجوى المتواصلة ، التى مدت فى خطاب المؤمنين مداً ، وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار من ألقى سمعه إليها ملياً ، يسمع فى طيها نداء خفياً : أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهاداً ، وأقبلنا على الأولياء تعليماً وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار ، وجئنا نفتتح كتاب الأبرار ، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بنى اسرائيل ، لم تكن إلا طليعة من كتاب الحق ، تنبىء أن سيتلوها جيشه جرار ، أو شعاعة من فجر هدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار ، إلا ترى الميدان ، قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الاسرائيلية ، التى كانت تتراءى لك فى ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك . هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً ؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الاسلامية ، قد انبعثت يسوق بعضها بعضا ، أصول جامعة ، نظرية تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية ، ألم يأن لسائر الفروع أن تجىء من خلفها ، حتى تبلغ الشمس ضحاها ...

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة ، فلو أنها ألقيت عليها الآن عداً وسرداً ، ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضباً .

لكن القرآن ، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس ، لم يشأ أن يهجم على المقصود ، مكتفياً بهذا التمهيد ، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد ، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد . فانظر فيما يلى :

المدخل إلى المقصد الثالث : فى خمس عشرة آية (١٦٣ — ١٧٧)
نيف وعشر من الآيات الكريمة ، هى بمثابة الدهليز بين الباب والدار ، يقطعها السائر فى خطوات ثلاث :
(الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[1]
(الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً .. ﴾[2]
(الخطوة الثالثة) فهرس إجمالى للأوامر والطاعات المطلوبة .
﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .. ﴾ الآية[3] .

المقصد الثالث من مقاصد السورة : فى ست ومائة آية (١٧٨ — ٢٨٣) بعد إرساء الأساس . تكون إقامة البنيان ، وبعد الأطمئنان على سلامة الخارج ، يجىء دور البناء والإنشاء فى الداخل ...

نعم ، لقد تم (إصلاح العقيدة) التى هى روح الدين وجوهره ، فليبدأ (تفصيل الشريعة) التى هى مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبه المعاندين ، وأقيمت الحجة عليهم ، فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين . وإيضاح المحجة بين يديهم .. كانت العناية من قبل موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلتتوجه الآن ، إلى بسط (شرائع الإسلام) .

١ — البقرة آية رقم : ١٦٣ .
٢ — البقرة آية رقم : ١٦٨ .
٣ — البقرة آية رقم : ١٧٧ .

وأنت فقد رأيت كيف مهدت السورة لهذا التحول ، إذ وضعت برزخاً يربط أطراف الحديث ، ويلتقى فيه سباقها ، وسياقها ... ولو تلفت الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك ، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة (آية البر) التى انتظمت أصول الدعوة بشطريها : النظرى والعملى ، ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك ، هو هذ الشطر العملى .

فاعلم الآن ، أن هذا الشطر العملى ، الذى لمحناه من قبل مطوياً فى فهرس موجز ، ستراه فيما يلى ، مبسوطاً فى بيان مفصل .

ففى نيف ومائة آية ، سترى فناً جديداً من المعانى ، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين ، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم فى شتى مناحى الحياة ، فى شأن الفرد ، وفى شأن الأسرة ، وفى شأن الأمة ... بياناً مؤتنفاً تارة ، وجواباً عن سؤال تارة أخرى . متناولاً فى جملته عشرات من شعب الأحكام ..

هذه الحكمة العامة : فى تأخير إقامة البنيان ، ريثما أرسيت قواعده وفى تأجيل الفروع ، حتى أحكمت أصولها ، ستبدو من ورائها حكم جزئية ، وأسرار دقيقة ، لمن أقبل على هذه الفروع ، ينظر إلى تلاصق لبناتها فى بنيتها ، وتناسق حباتها فى قلادتها ، ثم رجع ينظر فى وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق ، وهذا التفصيل اللاحق ..

فنأخذ فى استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة : لقد ختمت آية البر كما رأيت ، بخصلة من خصال البر ، مُيِّزت فى إعرابها تمييزاً ، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أى تنويه ، تلك هى خلة الصبر ، التى شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر فى البأساء ، والصبر فى الضراء ، والصبر حين البأس ، فهل تعلم أنه الآن وقد برىء نور التفصيل ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تعنى السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستنشرها نشراً مرتباً ترتيباً تصاعدياً ، على عكس ترتيب الطى ، الصبر حين البأس ، ثم الصبر فى الضراء ، ثم الصبر فى البأساء ، وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدى نفسه ، سيتبع فى سائر الخصال ، الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية فى سبيل الله ؟

إليك البيان مفصلاً :

الصبر حين البأس :

لا تحسبنه هنا صبراً على الجروح والقروح فى الحرب ، فذلك معنى سلبى استسلامى ، ولا تحسبنه صبراً فى البطش والفتك بالأعداء ، فذلك جهد عملى إيجابى حقاً ، ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب ،

لا إلى قوة الخلق والأدب « ليس الشديد بالصرعة ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب »[1]

هكذا سيختار الله لنا من مُثل الصبر أمثلها ، ومن موازينه أوزنها فى معايير القيم ؛ ذلك هو ضبط النفس حين البأس ، كفاً لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام ، وردعاً لها من الاسراف فى القتل ، ووقوفاً بها عند حد التماثل والتكافؤ التعادل .

(القصاص ـــ ١٧٨ ـــ ١٧٩) ... وإذا كانت تداعى المعانى يسوقنا من الحديث عن القتل ، إلى الحديث عمن هم يشرف الموت ، ناسب تتميم الكلام ، ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه بر بهم (الوصية ١٨٠ ـــ ١٨٢)

الصبر فى الضراء :

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر فى الضراء أعلاها ، ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق ، ولكنه الصبر على الظمأ والمخمصة فى طاعة الله (الصوم ١٨٣ ـــ ١٨٧) .... وينساق الحديث عن الصوم المؤقت عن بعض الحلال ، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام (١٨٨) .

الصبر فى البأساء

وعلى هذا النمط نفسه ، سترى الصبر فى البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطرارى على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية ، ولكنه الصبر الاختيارى على التضحية بالأموال إنفاقاً لها فى سبيل الله .

والمثال الذى يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج . ينتظم الصبر فى البأساء والضراء جميعاً ، إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال (الحج إلى بيت الله ١٨٩ ـــ ٢٠٢) ولا تنس ما هنا أن تنظر إلى المعبرة اللطيفة ، التى انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج ... تلك هى مسألة الأهلة ، التى جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعاً (١٨٩) .

ولنقف بك ها هنا وقفة يسيرة ، نشير فيها إلى شأن عجيب من شؤون النسق القرآنى فى هذا الموضع ، ذلك أنه حين بدىء بذكر الحج ، لم تتصل به أحكامه ولاء ، بل فصل بين اسمه وحكمه بست آيات فى أحكام الجهاد بالنفس والمال فى قتال الأعداء (١٩٠ ـــ ١٩٥) ـــ فاصلة ، يحسبها الجاهل رقعة غريبة فى ثوب المعنى الجديد .. ولكن الذى يعرف تاريخ الاسلام ، وأسباب نزول القرآن ،

يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع ، وإصابة المحز ، لا لمجرد الاقتران الزمانى بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية ، فى السنة السادسة من الهجرة ، ولكن لأن أداء المناسك فى ذلك العام كان عزماً لم ينفذ ، وأملاً لم يتحقق ؛ إذ حصر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهموا أن يبطشوا بأعدائهم ، الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان ، وأمرهم ألا يقاتلوا فى المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه ، فانصرفوا راجعين ، مستسلمين لأمر الله ، منتظرين تحقيق وعد الله ، فكذلك فلينصرف القارىء أو المستمع ها هنا ، وهو متعطش إتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل ، كما انصرف المسلمون اذ ذاك عن مكة ، وهم إليها متعطشون ، على أن يعودوا إليها من عام قابل ... هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكاراً خالداً لتلك الأحداث الأولى ، وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية ، نطالع فيها صور الحقائق من كل نوع ، فتبصها تارة من تصريح تعبيره ، وطوراً من نهجه وأسلوبه ، فى تعجيل البيان أو تأخيره ، ثم كانت هذه الآيات الفاصلة فى الوقت نفسه درساً عملياً فى صبر المتعلم على أستاذه ، لا يعجله بالسؤال عن أمر فى أثناء حديثه ، ولكن يتثبت قليلا حتى يحدث له منه ذكراً فى ساعته الموقوته ، وهكذا لن يطول بنا الانتظار ، حتى نرى أحكام الحج والعمرة ، تجىء فى إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشبع وتروى بالبيان الشافى الوافى (١٩٦ — ٢٠٣) وبهاء هذا البيان ، تتم الحلقة الأولى من الأحكام ، أعنى فريضة الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس .

استجمامة (٢٠٤ — ٢١٤)

وشاءت حكمة الله ، وتلطفه بنا فى تربية نفوسنا على طاعة أمره ، ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية ، من فورنا هذا ، ولكن بعد استرواحة فيها شىء من الموعظة العامة ، يثبت بها القلوب على ما مضى ، ويوطىء لما السبيل إلى ما بقى . . . وكان من حسن الموقع هذه الموعظة العامة ، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة ، التى ختم بها حديث الحج ، والتى قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامحهم إلى فريقين : فريق يطلب خير الدنيا ، ولا يفكر فى أمر الآخرة ، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخراه (٢٠٠ — ٢٠٢) فجاءت الموعظة العامة ، تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين !

فئتين : فئة لا تبالى أن تضحى الأثرة أو الإيثار إلى العباد ، وعمران البلاد ، وفئة على العكس من ذلك ، لا تضن أن تضحى بنفسها فى سبيل مرضاة الله (٢٠٤ — ٢٠٧) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم ، إلى توجيه النصح للمؤمنين ، بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله ، دون تفريق بين بعضها وبعض ، محذرة إياهم من الزلل عنها ، بعد أن هدوا إليها ، ووقفوا عليها ، مغرية لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء فى سبيل إقامتها ، ضاربة لهم المثل فى ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة (٢٠٨ — ٢١٤) .

هنا تمت الاسترواحة بالموعظة العامة .

وستكون الحلقة التالية فى تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية ، التى أجملت فى آية البر ، وهى الوفاء بالعهود والعقود ، وستختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية ، عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة : أليست الأسرة هى المجال الأول للتدريب على حسن العشرة ، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة ؟ ثم أليست الأمور متى استقامت فى هذا المجتمع الصغير ، استقامت بالتدرج فى المجتمع الكبير ، ثم فى المجتمع الأكبر ؟

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية ؟ هل يصعد القرآن بنا تواً إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المتشابكة المتشعبة ؟ كلا إن هذا البيان التربوى الحكيم ، لن يهجم بنا عليها دفعة ، ولكنه سيتلطف فى الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة ، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية : الإنفاق والجهاد (٢١٥ — ٢١٨) ، وتتصل أواخرها بالأحكام التالية : مخالطة اليتامى ، وشرائط المصاهرة ، وموانع المباشرة (٢٢٠ — ٢٢٢) وهكذا نصل فى رفق ولين ، دون اقتضاب ولا ابتسار ، إلى صميم الحلقة الثانية (٢٢٢ — ٢٣٧) حيث نتلقى فى شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيماً ، مؤلفاً من شطرين ، شطره الأول يعالج شؤون الأسرة فى أثناء اتصالها (٢٢٣ — ٢٣٠) وشطره الأخير يعالج شؤونها فى حال انحلالها وانفصالها (٢٣٢ — ٢٣٧)

تأمل أول كل شىء فى خط سير المعانى :

انظر كيف استهل الحديث بإرسال الأساس ، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية (٢٢٣) ثم انظر كيف تلاه النهى عن إدخال اليمين فى أفعال هذه الحقوق المقدسة ، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه ، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل (٢٢٤ — ٢٢٥) وكيف عقبه بحكم نرعى من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية ، وهو حكم من حلف على الإمتناع عن زوجته (٢٢٦ — ٢٢٧) وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق ، وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات (٢٢٨) .

فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوى ، وهذا التدرج المنطقى ، فى شؤون كانت متفرقة ، ارتجلتها الحوادث ارتجالا ، فتعال معى لأضع يدك فى هذه القطعة ، على حرف واحد ، تلمس فيه مبلغ الاحكام فى التأليف بين هذه المتفرقات ، حتى صارت شأناً واحداً فى نسق واحد :

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء إلى فتيا الطلاق :

(وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن ..)

ألا ترى كيف أدير الأسلوب فى حكم الإيلاء على وجه معين ، يظل القارىء منه على أفق متلبد ، ينذر باحتمال الفراق ؟ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً ، بل وجد مكانه مهيأ له من قبل ؛ كأنه خاتمة حكم الإيلاء ، وكانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها ؛ فلما جاءت فيها الطلاق فى إبانها ، كانت هى تلك العروة المنتظرة ، وما هو إلا أن اعتنقت العروتان حتى اعتنقتا ، وكانت منهما حلقة مفرغة ، لا يدرى أين طرفاها ، وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً .

ترى من علم محمداً ــ لو كان القرآن من عنده ــ أنه سوف يُستفتى يوماً ما فى تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق ؟ ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جواباً ، وأن هذا الجواب سيوضع فى نسق مع حكم الإيلاء ، وأنه ينبغى لاستقامة النسق كله ، أن يساق حكم الإيلاء ، الذى وقع الاستفتاء فيه الآن ، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق ، الذى سوف يسأل عنه بعد حين ؛ لكى ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه ؟ .. هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى . فإنما ذلك شأن عالم الغيب والشهادة ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

يقضى السورة فى هذا النحو الجديد ، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها : عدة ، ورجعة ، وخلعاً ، ورضاعاً ، واسترضاعاً ، وخطبة ، وصداقاً ، ومتعة ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧) .

وهنالك تبدأ الحلقة الثالثة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى[1] ....) (٢٣٨ ــ ٢٧٤) .

فلننظر : كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين ؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث ، والاستجمام ، والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية ، سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة ، نقلة شبه خاطفة ، بل لفتة جدّ مباغتة ، قد يحسبها الناظر اقتضاباً ، وما هى بالقضب إلا فى حكم النظر السطحى ... أما من تابع معنا سير قافلة المعانى منذ بدايته ، وقطع معنا تلك الطريق ، الذى رسمته آية البر : من الوفاء بالعهود ، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى تلك الباقى : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبذل المال على حبه فى سبيل الله ، وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة ، قد جاءت هنا فى رتبتها وفى موضعها المقدر لها ، وفق ترتيبها فى الآية الجامعة ..

١ ـــ البقرة آية رقم : ٢٣٨

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت فى موضعها ورتبتها ، ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسى ، ولا تمهيد بيانى التى ختمت بها الحلقة السابقة ــ (وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير)[1] فهذه لو تدبرت عبرة ذهبية ، وضعت وقت الحاجة إليها ، بعد أن استطال الحديث فى تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية ، عبرة جىء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة ، إلى سكون المسامحة والمكارمة ؛ فكانت معراجاً وسطاً ، صعد بنا إلى أفق أعلى ، تمهيداً للعروج بنا فيما يلى ، إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : (ولا تنسوا الفضل بينكم) لا تنسوا . الفضل .. بينكم إن كل حرف أثار بينا فترة ما ، ليفصل فى شؤوننا ، ثم أخذ الآن يطوى صحيفة أحكامه ، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها ، فقال لنا وهو يطويها : دعوا المشادة فى هذه الشؤون الجزئية الصغرى ؛ سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل ، الذى هو أسمى من قانون الحق والعدل ، وحولوا أبصاركم معى إلى الشؤون الكلية الكبرى ، التى هى أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد ، وأجرى أن يشتغل بها العقل والقلب ... نعم نعم لقد كفاكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد ، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن :

حافظوا على الصلوات ... انفقوا فى سبيل الله ... جاهدوا فى سبيل الله ..

وبعد ، فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً ، أم هو جزء من مقصد آخر ؟

إن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين ، من حيث هم مجاهدون ، ليحل المشاكل التى يثيرها موقف الجهاد نفسه قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال ..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة فى الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة فى إسقاط هذا الواجب أو فى تأجيله .

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة فى ترك الصلاة ، ولا فى تأجيلها ، لا فى سلم ولا فى حرب ، لا فى أمن ولا فى خوف (حافظوا على الصلوات) (٢٣٨) وإنما الرخصة عند الخوف فى شىء واحد : فى صفات الصلاة وهيآتها (فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) (٢٣٩) . والصلاة كما تعلم قوة معنوية ، على العدو ، وعدة من عدد النصر ، لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمراً صريحاً ، والصلاة فى الوقت نفسه

١ ـــ البقرة آية رقم : ٢٣٧

طهرة للنفس من مساوىء الأخلاق ، تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا ، لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآتية ، التى أمرتنا بالتسامح والتكارم فى المعاملات ... هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معاً ، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً ، بل قل إنه مثلث الفائدة ، لأنه فى نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآنفة وحدها ، بل ينظر كذلك إلى الآية الخامسة ، ليفصل إجمالها فى هذا الجانب ..

والجندى فى الحرب تشغله على الأقل مخافتان ، مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه ، من أخطار الموت أو الهزيمة ؛ ومخافة على أهله من الضياع والعيلة لو قتل .. لذلك اتساق البيان الكريم يطرد من قبله كلتا المخافتين ..

أما أهله ، فقد وصى الله للزوجة ، إذا مات زوجها ، بأن تمتع حولا كاملا فى بيته . وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق فى المتعة لا يمس ، فليقر عيناً من هذه الناحية (٢٤٠ — ٢٤٢) . أما خوف الموت ، فليعلم أن الذى يطلب الموت قد توهب له الحياة .

(ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (٢٤٣) .

وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وتلك سنة الله فى المرسلين (٢٤٦ — ٢٥٣) .

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين ، بعد أن زودت أرواحهم بزاد التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسى كامل ، لتلقى الأوامر العليا ، فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (٢٤٤ — ٢٤٥) ولتفصل لهم العبرة التاريخية التى تثبت أقدامهم حين البأس ، والتى تزيدهم أملاً فى النصر (٢٤٦ — ٢٥٣) والجهاد كما قلنا جهادان : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة فى آية قصيرة (٢٤٤) ثم فى آيات كثيرة (٢٤٦ — ٢٥٣) . وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه فى آية قصيرة (٢٥٥) فمن العدل أن يأخذ تمام حظه فى آيات كثيرة كذلك ، وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها ، مطبوعاً بطابع الشدة تارة (٢٥٤ — ٢٦٠) وطابع اللين تارة (٢٦١) وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى (٢٦٢ — ٢٧٤) .

ثم يتساق الحديث عن فضيلة التضحية والإيثار ، التى هى أسمى الفضائل الاجتماعية ، إلى رذيلة الجشع والاستئثار ، التى هى فى الطرف المقابل ، أحط أنواع المعاملات البشرية ، (أعنى رذيلة الربا ،

التى تستغل فيها حاجة الضعيف ، ويتقاضى فيها ثمن المعروف ، الذى يبذله أضعافاً مضاعفة) (٢٧٥ — ٢٧٩) وكان هذا الاقتران بينهما فى البيان ، إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتيهما فى حكم الضمائر الحية .

وبين هذين الطرفين ، يقيم القرآن ميزان القسط فى الحد الأوسط ، جاعلاً لصاحب الحق سلطانا فى المطالبة برأس ماله كله ، لا ينتقص منه شىء ، لا تظلمون ولا تظلمون) . غير أنه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين ، فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى حسنيين . إما الانتظار إلى الميسرة ، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدَّين ، وهذه أكرم وأفضل (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) (٢٨٠ — ٢٨١) .

ولما كان الطابع البارز فى هذا التشريع القرآنى ، وهو طابع القناعة والسماحة ، قد يوحى إلى النفوس شيئاً من التهاون فى امر المال ، وربما جر بها إلى التفريط فى حفظه وتثميره ، جاءت آيتا الدين والرهان (٢٨٢ — ٢٨٣) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم ، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية ، فى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها .

بمختلف الوسائل ، تمهيدا لإنفاقها فى أحسن الوجوه ، فمن لم يجد سبيلا إلى التوثق بوثيقة ما ، ولم يبق أمامه إلا أن يكل عميله إلى ذمته وأمانته (فليؤد الذى اؤتمن أمانته) .

وهكذا ختم الشطر العملى من السورة ، بهذه القاعدة المثلى التى هى أساس كل معاملة شريفة ، أعنى قاعدة الصدق والأمانة ، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة ... آمين .

المقصد الرابع من مقاصد السورة : فى آية واحدة (١٨٤)

فى الآية السابقة ، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية ، عند الحد الذى أراد الله بيانه فى هذه السورة ، وبها ختم الشطر الثانى من الحقيقة الدينية ، وهو شطرها العملى ؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادى فى الآى ، وما بعدها . وهكذا تناول البيان حتى الآن ١ — حقائق الإيمان ، ٢ — شرائع الإسلام ... هل بقى فى بيان الدين شىء فوق هذه الأركان ؟

نعم ، لقد بقيت ذروته العليا ، وحليته الكبرى ..

بعد الإيمان ... والإسلام ، بقى الإحسان ، وهو كما فسره صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . أن تراقب الله فى كل شأنك ، وأن تستشعر شاهدته لك فى سرك وإعلانك ، وأن تستعد لمحاسبته لك . حتى على ذات صدرك ، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن ، ولا كل مسلم . وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين ...

وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة فى هذه الآية الواحدة ، التى توج بها هامة السورة : (٢٨٤) .

خاتمة : فى آيتين اثنين (٢٨٥ — ٢٨٦) .

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها ، وألم بعناصره جميعها ، الإيمان . الاسلام ، والاحسان ، لم يبق بعد تمام الحديث إلا طى صحيفته وإعلان ختامه ؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة ، وكيف أعلن ختامها ؟

تعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التى فتحت بها سورة البقرة ، لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة . مع هذه الخاتمة ، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا . ليلتحم من قوسيهما سور محكم ، يحيط بهذه السورة . فإذا هى سورة حقاً ، أى بنية محبوكة سورة ، ألم يكن مطلع السورة ، وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ، ويطيع أمرها ، بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

ألسنا نترقب الآن صدى، هذا الوعد ؟ بلى ، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة هل آمن بها أحد وهل اتبع هداها أحد ؟ ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من لم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع ...

وهكذا سيكون مقطع السورة :

١ — حديثاً عن نجاح دعوتها : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... وقالوا سمعنا وأطعنا)

٢ — وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها فى اتباعها : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

٣ — فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين ، فليبسطوا إذاً أكفهم مبتهلين : (ربنا .... ربنا .... ربنا .... أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

تلك هى سورة البقرة ... أرأيت وحداتها فى كثرتها ، أعرفت اتجاه خطوطها فى لوحتها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها ، وارتفعت سماواتها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها ، لا أقول أحسن دمية ، بل أجمل صورة حية .

كل ذرة فى خليتها ، وكل خلية فى عضوها ؛ وكل عضو فى جهازه ، وكل جهاز فى جسمه ، ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم ، وفقاً لخط جامع مرسوم ، رسمه مربى النفوس ومزكيها ، ومنور العقول وهاديها ، ومرشد الأرواح وحاديها فتالله لو أن هذه السورة ، رتبت بعد تمام نزولها ، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة ، فكيف وكل نجم منها — كسائر النجوم فى سائر السور — كان يوضع فى رتبته من فور نزوله ، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارا لحلوله ؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة ، محدد الموقع قبل أن ينزل ؟ ثم كيف وقد خصصت من بين السور المنجمة ، بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام ، بل بتسعة أعوام ؟ لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزات ، وفى أساليب تربيته معجزات ، وفى نبوءاته الصادقة معجزات ، وفى تشريعاته الخالدة معجزات ، وفى كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات ، لعمرى إنه فى ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات .

مناقشـــــة

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسئلهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾

قال البخارى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه : قال سمعت النبى — ﷺ — : يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شئ ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟)

كاد قلبى أن يطير ، وجبير بن مطعم ، كان قد قدم على النبى — ﷺ — ، بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذا ذاك مشركاً ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة ، من جملة ما حمله على الدخول فى الاسلام بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ هذا المقام في إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية قال تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ؟ أي أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم . أي لا هذا ، ولا هذا ، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ﴾ أي : ليس الأمر كذلك ، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿ بل لا يوقنون ﴾ بالحق ولا يتدبرون في الآيات ، فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض . وقوله : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما ، فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ أرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ، ويبنوا الأمور على مشيئتهم ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ أي يدعون أن لهم مرتقى إلى السماء ، ومصعداً وسبباً (يستمعون فيه) أي عليه الأخبار ، ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد — ﷺ — بطريق الوحي .

﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة بينة أن هذا الذي هم عليه حق .

وقوله تعالى : ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ سفه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون ، وهم حكماء عند أنفسهم ، أي تضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، والمشركون يزعمون أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يضيقون من نسبة البنات إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ أي : إنك يا محمد متجرد في دعوتك ، لا تبغي من ورائها مالاً ولا جاهاً ، فماذا يضايقهم . ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أي فهم من أدنى شيء يغرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم .

وقوله : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾ أي : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله .

وقوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم

1 — الإنسان آية رقم 1 ، 2

غير الله تعالى ، حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة ؟ ويستنجدوا به لدفع الضر والعذاب عنهم ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أي تنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام .

هذا في الرسول وفي الدين ، غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾[1] فالذين كفروا هم المكيدون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾[2] .

وقوله جل في علاه : ﴿ أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون ﴾ أي ألهم خالق ورازق ، قال الخطيب : كل ما في سورة « الطور » من ذكر « أم » ، فكلمة استفهام وليس بعطف ، وقد تكررت كلمة « أم » خمس عشرة مرة و« أم » عند علماء اللغة ، تجيء في هذا السياق للإضراب ، الذي يعقبه استفهام ، قد يكون توبيخاً ، أو تقريراً ، أو تعجيباً .

رضي

يامن له عنت الوجوه بأسرها	رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذي	كل القلوب له تقر وتشهد

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم . فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ، يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون ﴾

أي أن هؤلاء، قوم ديدنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ما سألوا من الآيات ، فعاينوا كسفاً من السماء ساقطاً — لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين ، وتسمعه الآذان ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[3]

1 — فاطر آية رقم : 43
2 — الشعراء آية رقم : 227
3 — الحجر الآيتان رقم 14 — 15

ثم أمر رسوله — ﷺ — أن يتركهم وشأنهم ، فقال تعالى : ﴿ **فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون** ﴾ أى فدعهم وشأنهم . ولا تكترث بهم ، حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسيئات أعمالهم ، وذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون** ﴾ أى لا ينفعهم كيدهم ، ولا مكرهم الذى استعملوه فى الدنيا ، لا يجزى عنهم يوم القيامة شيئاً (ولا هم ينصرون) ولا يجدون لهم نصيراً ، ولا معيناً يدفع عنهم ما يحيق بهم من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ **وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا . وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾

أى وإن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (عذاب دون ذلك أى قبل ذلك فى الدار الدنيا . كقوله تعالى : ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾[2] ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى نعذبهم فى الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب ، لعلهم يرجعون ، ويثوبون إلى رشدهم ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا خلى عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ أى واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ، وامض لأمر الله ، وبلغ ما أرسلت به ، واصدع بما تؤمر ، فإنك بمرأى منا نراك ، ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك منهم أذى ، كما قال تعالى : ﴿ **فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم** ﴾[4] .

١ — المعارج الآيات : ٤٢ — ٤٤
٢ — السجدة آية : ٢١
٣ — الدخان الآيات : ١٥ ، ١٦
٤ — الشعراء الآيات : ٢١٦ — ٢٢٠

وقوله تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ أى ونزه ربك عما لا يليق به ، حين تقوم من مقامك ، ومن كل مجلس بأن تقول : سبحان الله وبحمده . قال ابن عباس : أى صل لله حين تقوم من منامك .

قال أبو الجوزاء : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ أى من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير . قال القرطبى : وفى هذا روايات صحاح ، منها حديث عبادة عن النبى — ﷺ — قال : « من تعار فى الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لى أو دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته »[1] أخرجه البخارى .

(وتعار) الرجل من الليل إذا هب من نومه مع صوت .

وعن ابن عباس أن رسول الله — ﷺ — كان يقول إذا قام إلى الصلاة فى جوف الليل : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق وقولك حق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت وبك آمنت ، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك »[2] متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام ، كان إذا استيقظ من الليل ، مسح النوم عن وجهه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران »[3] .

وفى سنن أبى داود عن عائشة أن رسول الله — ﷺ — كان إذا استيقظ من الليل قال : « لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[4] .

١ — أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ٤٨ كتاب التهجد باب فضل من تعار من الليل فصلى ، وابن كثير فى تفسير سورة الطور آية ٤٨ ج ٧ ص ٤١٤ [illegible]
٢ — أخرجه البخارى كتاب التوحيد ج ٩ ص ١٤٣ باب قول الله تعالى [illegible]
٣ — أخرجه البخارى كتاب التفسير سورة آل عمران ج ٦ ص ٥٢ [illegible]
٤ — أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ج ٥ ص ٣٠٦ رقم ٥٠٦١ باب ما يقول الرجل إذا تعار من الليل

وقال ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له .

وقال عبد الرزاق عن أبي عثمان الفقير إن جبريل علم النبي — ﷺ — إذا قام من مجلسه أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك »[1] قال معمر وسمعت غيره يقول هذا القول كفارة المجالس ، قال ابن كثير ، هذا حديث مرسل وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوى بعضها بعضاً .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ أى اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل ؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس ، وأبعد من الرياء قال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أى وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ﴾ وقد ثبت فى الصحيحين من عائشة رضى الله عنها قالت لم يكن رسول الله — ﷺ — على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر[4] وفى لفظ مسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها »[5] .

---

١ — أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة الطور رقم ٤٨ جـ ٧ صـ ٤١٥ أخرجه سنن أبى داود كتاب الأدب باب فى كفارة المجلس جـ ٥ صـ ١٨٢ رقم ١٨٥٩ . أخرجه مصنف عبد الرزاق باب كفارة المجلس جـ ١١ صـ ٢٤ رقم ١٩٧٩٦

٢ — المزمل آية : ٦

٣ — الأسراء آية : ٧٩

٤ — رواه مسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتى الفجر جـ ١ صـ ٥٠١ رقم ٩٤ / ٧٢٣ رواه البخارى فى صحيحه كتاب التهجد بالليل باب التعاهد على ركعتى الفجر جـ ٢ صـ ٧١ — ٧٢ وانظر تفسير ابن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ جـ ٧ صـ ٤١٦

٥ — رواه صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب ركعتى سنة الفجر ، والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما جـ ١ صـ ٥٠١ رقم ٩٦ / ٧٢٥ . وانظر أيضاً تفسير ابن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ جـ ٧ صـ ٤١٦

تفسير سورة النجم

مقدمة

قال صاحب البصائر : سورة مكية بالاتفاق

عدد آياتها : اثنتان وستون

وكلماتها : ثلاثمائة وستون

وحروفها : ألف وأربعمائة وخمسون .

مجموع فواصل آياتها (واهن)

سميت النجم لفتحها

مقصود السورة :

القسم بالوحى ، وهداية المصطفى — ﷺ — وبيان معراج الكرامة ، وذكر قبيح أقوال الكفار ، وعقيدتهم فى حق الملائكة والأصنام ، ومدح مجتنبى الكبائر ، والشكوى من المعرضين عن الصدقة ، وبيان جزاء الأعمال فى القيامة ، وإقامة أنواع الحجة على وجود الصانع ، والإشارة إلى أحوال من أهلكوا من القرون الماضية ، والتخويف بسرعة مجيء القيامة ، والأمر بالخضوع والانقياد لأمر الحق تعالى فى قوله : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

المتشابهات : قوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ، وبعده : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى (ومناة الثالثة الأخرى) ، والثانى بعبادتهم الملائكة ، ثم ذم الظن فقال : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾

قوله : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ (ما أنزل) فى جميع القرآن بالألف إلا فى الأعراف (ما نزل بها من سلطان) .

مناسبتها لما قبلها من وجوه

١ – إن السورة قبلها ختمت بقوله : (وإدبار النجوم) وبدئت هذه بقوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾

٢ – إن السورة قبلها ذكر فيها تقول القرآن . وذكر هنا في مفتتح هذه السورة .

٣ – أنه قال هناك في المؤمنين ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ وقال هنا في الكفار : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ .

وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبي ﷺ – قراءتها ، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي : إن أول سورة نزلت فيها سجدة ﴿ والنجم ﴾ فسجد رسول الله ﷺ – وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ ﴾

---

[1] – أخرجه البخاري في صحيحه جـ ٦ ص ٧٧ كتاب التفسير [تفسير سورة النجم] ، وأخرجه مسلم في صحيحه جـ ١ ص ٤٠٥ رقم ١٠٥ / ٥٧٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب سجود التلاوة . وأخرجه أبو داود في سننه جـ ٢ ص ٥٩ رقم ١٤٠٦ كتاب الصلاة باب من رأى فيها السجود .

معاني المفردات

﴿ والنجم ﴾ جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ﴿ هوى ﴾ يقال هوى النجم هوياً (بالفتح) أى سقط وغرب ، وهُويا (بالضم) إذا علا وصعد . ﴿ ما ضل ﴾ ما حاد عن الطريق المستقيم . ﴿ صاحبكم ﴾ أى مصاحبكم ، والتعبير عنه ﷺ بعنوان المصاحبة لهم ، إيذانا بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشرعية ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة ، تقتضى إحاطتهم خبرا ببراءته مما نسب إليه ، وباتصافه بالهدى والرشاد . ﴿ وما غوى ﴾ أى وما أعتقد باطلاً . والخطاب فى هذا لقريش ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أى ما يتكلم بالباطل . ﴿ شديد القوى ﴾ المراد به جبريل أمين الوحى عليه السلام ، ﴿ ذو مرة ﴾ أى ذو حصافة عقل وقوة عارضة .

﴿ فاستوى ﴾ أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى بدء النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر . ﴿ ثم دنا ﴾ أى ثم قرب ﴿ فتدلى ﴾ أى فتنزل . من قولهم تدلت الثمرة . ﴿ قاب قوسين ﴾ القاب مقدار ما بين المقبض والسِّيَة ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح ، وبالذراع والباع والخطوة ، والشبر والإصبع ﴿ أو أدنى ﴾ : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاده ـ ﷺ ـ . ﴿ ما رأى ﴾ أى ما رآه ببصره ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى أفتجادلونه على ما يراه معاينة ، ﴿ نزلة أخرى ﴾ أى مرة أخرى . ﴿ سدرة المنتهى ﴾ هى شجرة نبق ، قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، ﴿ جنة المأوى ﴾ أى : الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة . ﴿ يغشى ﴾ أى يغطى . ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، وما مال يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ أى ما جاوز ما أمر به ، ﴿ آيات ربه الكبرى ﴾ أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

يقول الإمام ابن القيم فى تفسير هذه الآيات المباركات .

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه ، على تنزيه رسوله وبراءته ، مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي .

واختلف الناس في المراد بالنجم ، فقال الكلبي : عن ابن عباس : أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله : أربع آيات ، وثلاثاً ، والسورة وكان بين أوله وآخره عشرون سنة ، وهو قول مقاتل والضحاك ، ومجاهد وعلى هذا فسمى القرآن نجماً ، لتفرقه في النزول ، والعرب تسمى التفرق تنجيماً ، والمفرق منجماً ، وقوله (هوى) على هذا القول أي : نزل من علو إلى أسفل ، وكذلك قال الأصمعي : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، إذا سقط من أعلى إلى أسفل .

وقال ابن عباس في رواية على بن أبي طلحة ، وعطية في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ يعني الثريا إذا سقطت وغابت وهوى الرواية الأخرى عن مجاهد . والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا . وقال أبو حمزة اليمانى : يعني النجوم إذا انتثرت يوم القيامة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة : يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين ، إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع ، وهذا قول الحسن وهو أظهر الأقوال .

ويكون سبحانه ، قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة ، التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له ، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل للشيطان ، ولا طريق له إليه ، بل قد حرس بالنجم إذا هوى ، رصداً بين يدي الوحي ، وحرساً له . وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور ، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه .

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هوياً ، ولا عهد في القرآن ذلك ، فيحمل هذا اللفظ عليه ، وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت .

وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتثارها يوم القيامة ، بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلاً ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فإنه سبحانه إنما يستدل بما لا يمكن جحده ، ولا المكابرة فيه ، فأظهر الأقوال قول الحسن . والله أعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى ، فإن النجوم التي ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأسماؤه ،

وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهادية ، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافى للهدى ، والغي المنافى للرشد فقال تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ فالهدى في علمه ، والرشاد في عمله . وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ، وبهما سعادته وفلاحه ، وبهما وصف النبي — ﷺ — خلفاءه — فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي[1] » فالراشد ضد الغاوى ، والمهدى ضد الضال ، وهو الذي زكت نفسه ، بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ، ودين الحق ، لا يشتبه الراشد المهدى ، بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية ، ولله در القائل :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام : ضال في علمه غاو في قصده وعمله ، وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفو الرسل .

(الثاني) مهتد في علمه غاو في قصده وعمله ، وهؤلاء هم الأمة الغضبية — أمة اليهود — ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

(الثالث) ضال في علمه ، ولكن قصده الخير ، وهو لا يشعر .

(الرابع) مهتد في علمه ، راشد في قصده ، وهؤلاء ورثة الأنبياء ، وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ ولم يقل ما ضل محمد تأكيداً لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ وبقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾

قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى ، وبهذا الكمال هداه ورشده وقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به ، فتضمن نفى الأمرين نفى الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه : فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال .

---

[1] — أخرجه أبو داود في سننه جـ ٤ صـ ١٣ رقم ٤٦٠٧ كتاب السنة

قوله تعالى ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أي ما نطقه إلا وحي يوحى . وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحي يوحى .

وقد احتج الشافعي لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ .

وقال الشافعي : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحي . وما فرض رسول الله — ﷺ — من صدقة وعقول — الديات — فإنما نزل به الوحي .

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله — ﷺ — بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه .

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال الله تعالى ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وهذا نظير قوله تعالى ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ ذو مرة ﴾ أي جميل المنظر ، حسن الصورة ، ذو جلالة ليس شيطاناً قبيح الخلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل خلق الله وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره في سورة التكوير . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلالته . وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي . فكان رسول الله — ﷺ — أشجع الناس ، وأعلمهم وأجملهم ، والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك ، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى ، وأجبن الخلق وأضعفهم هماً ونفوساً .

قوله تعالى ﴿ فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾

قوله تعالى : ﴿ فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ثم ذكر سبحانه استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ ، وإيحاءه الله ما أوحى ، فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنى فتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه . حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ، ويعاينونها ، هابطاً من السماء ، إلى أن صار بالأفق الأعلى ، مستوياً عليه ، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ ، وخاطبه بما أمره الله به قائلا : ربك يقول لك : كذا وكذا ، وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أو أدنى من ذلك ، وليس هذا على وجه الشك ، بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة .

قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ﴾ ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآه عيناه ، وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو به . فكذب فؤاده بصره ، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد ، وعلم أنه كذلك . وقوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أي أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى ، فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى . وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام ، رآه على صورته التي خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أن سئل عن قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ ، رأى جبريل له ستمائة جناح[1] . وقال البخاري ، عنه : رأى رفرفا أخضر يسد الأفق ؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة في قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام ، وفي صحيحه أيضا عن مسروق ، قال : كنت متكئا عند عائشة . فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئا فجلست ، فقلت : ياأم المؤمنين انظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة ، سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إنما هو جبريل . لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان جـ ١ ص ٥٤ ، باب في ذكر سورة منتهى رقم ١٠٠ . وأخرجه مسلم في كتاب الايمان جـ ١ ص ١٥٨ برقم ١٧٤/٢٨٠ ، ١٧٤/٢٨١ ، ١٧٤/٢٨٢ .

رأيته منبسطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، فقالت : أوَ لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ الأنعام آية ١٠٣ ، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾ الشورى آية ٥١ ، قالت : ومن زعم أن محمدا كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول : ﴿ يأأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المائدة آية ٦٧ ، قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد ، فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾[1] الأحزاب آية ٣٧ ، وفي الصحيحين عن مسروق أيضا ، قال : سألت عائشة رضي الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد قف شعرى لما قلت[2] وفيهما أيضا قال ، قلت لعائشة : فأين قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قالت : (إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسد الأفق)[3] .

وفي صحيح مسلم بأن أبا ذر سأله ﷺ هل رأيت ربك فقال : « نور أنى أراه »[4]

وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[5] وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له .

ولا يرد هذا قوله في الحديث الصحيح — حديث الرؤية يوم القيامة — « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » ، فإن النور الذى هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يقم له شيء ، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان جـ ١ ص ١٥٩ برقم ١٧٧/٢٨٧ .
(٢) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٦٠ برقم ١٧٧/٢٨٩ .
(٣) أخرجه مسلم ص ١٦٠/١٦١ برقم ١٧٧/٢٩٠ .
(٤) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٦١ برقم ١٧٨/٢٩١ .
(٥) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٦١ برقم ١٧٩/٢٩٣ .

وأجمع المسلمون على [illegible] زيغ البصر ، التفاته جانبا ، [illegible] ، وقصده وعمله عن [illegible] ، وهكذا يكون [illegible] وإذا هذه الرؤية كانت [illegible] ﷺ أنه قال [illegible] تأويل هذا الحد [illegible] إنه هو [illegible] أهل [illegible]

قال : ذاك نوره الذى هو نوره ، إذا تجلى به لم يقم [illegible] أن قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ على عمومه وإطلاقه [illegible] يُرى ، بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك .

وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الله [illegible] الخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذى بين أبصار الخلائق و[illegible] حصل للجبل أدنى شيء ومن تجلى الرب تساق الجبل واندك لسبحات [illegible] الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان [illegible] وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[1] .

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى ، هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى ، فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة ، وكشف الحجاب بينهم وبينه ، فهو الحجاب المخلوق . وأما أنوار الذات الذى يحجب عن إدراكها ، فذاك صفة للذات لاتفارق ذات الرب جل جلاله ، ولو كشف ذلك الحجاب ، لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، وتكفى هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق المؤمن . وأما معطل الجهمى فكل هذا عنده باطل ومحال .

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم ، هو جبريل عليه السلام . وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية ، وقد تبين أن المرئى فيها جبريل ، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس ، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة ، فقال — في نقضه على بشر المريسي في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ، أن رسول الله ﷺ قال : رأيت ربي البارحة في أحسن صورة ، فحكى تأويل المريسي الباطل — ثم قال : ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه . أما أن رسول الله ﷺ . قال في حديث أبي ذر : « إنه لم ير ربه » وقال رسول الله ﷺ « لن تروا ربكم حتى تموتوا » ، وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

(١) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٦٣ برقم ٢٩٦ : ١٨٠ .

وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يعنى أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت فى المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك . وروى معاذ بن جبل عن النبى ﷺ أنه قال : « صليت ما شاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبى ، فأتانى ربى فى أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم ؛ قال القاضى عياض : « وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه : أن رؤيته تعالى فى الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة ، عرضة للآفات والفناء ، فلم تكن لهم قدرة على الرؤية ، فإذا كان فى الآخرة ، وركبوا تركيبا آخر ، ورزقوا قوى أخرى ثابتة باقية ، وأتم أنوار قلوبهم وأبصارهم وقلوبهم قووا على الرؤية ، وقد رأيت نحو هذا لمالك ابن أنس قال : لم ير فى الدنيا لأنه باق ، ولا يرى الباقى بالفانى ، فإذا كان فى الآخرة ورزقوا أبصارا باقية رئى الباقى بالباقى .

قال القاضى أبو الفضل : وهذا كلام مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة . فإذا قوى الله من شاء من عباده فأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع فى حقه

وقال شيخ الإسلام ابن حجر : « جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك قول ابن عباس : أتعجبون من أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى ، والرؤيا لمحمد ؟ وعنه : رأى ربه بفؤاده مرتين ، وعنه : لم يره بعينه ، وإنما رآه بقلبه ، فعلى هذا يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفى عائشة ، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، وإثباته على رؤية القلب. قال أبو إسحق محمد بن ابراهيم تلميذ ابن حجر : المراد برؤية الفؤاد : رؤية القلب بخلق إدراك البصر فيه ، لا مجرد حصول العلم ، وذلك بخلاف غيره من الأولياء ، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم ، فإنما يريدون المعرفة فأعلمه ؛ فإنه من الأمور المهمة التى يغلط فيها كثير من الناس ، وقد تقدم أن ذلك ممتنع شرعا .

وقوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾

قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا ، ولا جاوز ما أمر به ، وعلى هذا مسروق ، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائى ، الذى لا أدب له بين يدى الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالا ، ومجاوزة بصره لما بين يديه ، وأخبر عنه بكمال الأدب فى ذلك المقام ، وفى تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانبا ، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذى أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أرى ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تطلعه إلى ما لم يره ، مع ما

فى ذلك فى ثبات الجأش ، وسكون القلب وطمأنينته ، وهذا غاية الكمال ، وزيغ البصر ، التفاته جانبا ، وطغيانه ، مده أمامه إلى حيث ينتهى ، فنزه فى هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغى ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان ، وهكذا يكون المدح .

وقوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[1] . أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين ، استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ولو كان رأى ربه ، لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس .

عبادة غير الله باطلة

قال تعالى :

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

---

(١) الإسراء آية ١ .

معانى المفردات

﴿ اللات ، والعزى ، ومناة ﴾ : أصنام كانت تعبدها العرب فى جاهليتها .
﴿ الأخرى ﴾ أى : المتأخرة الوضيعة القدر .
﴿ ضيزى ﴾ أى : قسمة جائرة غير عدلة .

المناسبة وإجمالى المعنى

... أن بين سبحانه ما رآه محمد ﷺ ، من العجائب ليلة المعراج ، قال للمشركين [illegible] رأيه فى هذه الأصنام ؟ وكيف تحصرون أنفسكم فى [illegible] المذلى وأصنامه ، وتقطعون على أنفسكم طريق [illegible] الارتقاء ، [illegible] لا ترقى إلا بما استعدت له . فإذا وقفت النفوس عند هذه [illegible] وتلك الأصنام ، [illegible] عروج [illegible] ، ولاسيما أن هذه الأصنام ، لا تشفع لهم عند ربهم ، [illegible] نفع . [illegible] هذا منهم إلا [illegible] لا يغنى من الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن تعرض عن هؤلاء الذين [illegible] إلا جمع حطام [illegible] وتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، ويجازيهم [illegible] يقولون ويعتقدون ، جزاء وفاقا .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ اللات والعزى ﴾ قال : كان اللات رجلاً يلت السويق ، سويق الحاج . قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز . وكانت شجرة عليها بناء وأستار (بنخلة) وهى بين مكة والطائف . وكانت قريش يعظمونها ... وأما (مناة) فكانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها ، يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها ، طواغيت أخر ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاث ، التى نص عليها فى كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها

ولهذا قال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ﴾ أى تجعلون له ولدا ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو أقسمتم أنتم ومخلوقون مثلكم هذه القسمة ، لكانت قسمة جائرة ، لما قال تعالى : ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ أى تلك قسمة جائرة غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها ، ثم أنكر عليهم سبحانه — ما ابتدعوه من الكذب والافتراء ، فى عبادة الأصنام ، وتسميتها آلهة فقال تعالى :

﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى أن هذه الأصنام التى تسموها آلهة — هى أسماء فحسب ، وليس لها مسميات هى الحقه البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يُعكف على عبادتها ، وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان ، تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلد فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء ، ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير ، كما تقول : ما هو الاسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة ذا شأن وقدر ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

ثم أكد ما سلف بقوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم ، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم ، وتعظيم آبائهم الأقدمين .

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم ، وعظيم غفلتهم ، فقال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أى هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم ، وينقادون إلى آرائهم ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك مزدجر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾[2] .

قصة الغرانيق « موضوعة »

ذكر الأستاذ الدكتور / محمد بن محمد أبو شهبة فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » ما نصه :

ومن الموضوعات فى أسباب النزول — ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما

(١) يوسف آية : ٤٠ .
(٢) المدثر الآيتان : ٥٠ — ٥١ .

أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

فقد ذكر بعض المفسرين ما قاله السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق بسند صحيح : (كما زعم) عن سعيد بن جبير قال : قرأ النبي — ﷺ — بمكة : ﴿ والنجم ﴾ فلما بلغ : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى ، فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فنزلت ، وأخرجه البزار وابن مردويه ، بوجه آخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — فيما أحسب — وقال : لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، وبعد أن ذكر له طرقا كثيرة قال : وكلها إما ضعيفة ، وإما منقطعة ، سوى طريق سعيد بن جبير الأول ، وهذا الطريق ، وطريقان آخران مرسلان عند ابن جرير ، هم معتمد المصححين للقصة ، كابن حجر والسيوطي[2] .

وهذه القصة غير ثابتة : لا من جهة النقل ، ولا من جهة العقل والنظر . أما من جهة النقل :

فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين ، قال البيهقي وهو من كبار رجال السنة : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال القاضي عياض في كتابه « الشفاء » : إن هذا الحديث ، لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، والمولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ، والمرفوع منه حديث شعبة ، قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل ، إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وبه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيه ، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث الكلبي فمما لا يجوز الرواية عنه ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه أ . هـ . وكذا أنكر القصة القاضي

(١) الحج الآيات : ٥٢ — ٥٤ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٣٩ طبع الشعب .

أبو بكر بن العربي وطعن فيها من جهة النقل ، وسئل محمد بن إسحاق وابن خزيمة ، عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وذهب إلى وضعها الإمام : أبو منصور الماتريدي وصنف منها كتابا فمن يرى : أن من أنكرها وقضى بوضعها ، أكثر ممن صححها اعتمادا على روايات مرسلة .

اضطراب الرواية

ومما يخل الثقة بالحديث : اضطراب الروايات اضطرابا فاحشا . فقائل يقول : إنه كان في الصلاة . وآخر يقول : قالها في نادي قومه . وثالث يقول : قالها وقد أصابته سنة . ورابع يقول : بل حدث نفسه فيها ، ومن قائل : إن الشيطان قالها على لسانه ، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ؟ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي قرأها ، لما رويت : تلك الغرانيق العلا على أنحاء مختلفة . وكل هذا الاضطراب مما يوهي الرواية ، ويقلل الثقة بها ، والحق أبلج والباطل لجلج .

والقصة لم يخرجها أحد ممن التزموا الصحاح . ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة ، والذي روى في البخاري — عن ابن عباس : « أن النبي — ﷺ — قرأ : النجم وهو بمكة . فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » ، وفي رواية ابن مسعود : « أول سورة أنزلت فيها السجدة والنجم ، قال : فسجد رسول الله — ﷺ — وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا[1] » . أما سجود المسلمين : فاتباعا لأمر الله ، وأما سجود المشركين : فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة ، وعيون الكلم والجوامع ، مع التهديد والإنذار ، وقد كان العربي يسمع القرآن ، فيخر له ساجدا . أضف إلى ذلك : ما فيه من موافقة الجماعة ، والشخص إذا كان في جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما يشعر ، ولو كان الأمر على خلاف ما يهوى ويحب ، وهذا أمر مشاهد ، وفي علم النفس ما يؤيده ، وذكر البخاري في تفسير سورة الحج قال : وقال ابن عباس : « إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ، ويحكم آياته ويقال : أمنيته قراءته ، فقد حكى الذي بصيغة التمريض التي تدل على الضعف ، وليس في هذا ولا ذاك ما يشير إلى ما يزعمون .

(١) أخرجه البخاري جـ ٦ ص ١٧٧ طبع الشعب .

المعتمدون للقصة

ومع ما ذكرنا من قول المحققين فى القصة ، فقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية عند الحافظ ابن حجر . فصحح القصة ، وجعل لها أصلا ، قال فى « الفتح » فى تفسير الحج ، مع ما ساق الطرق الكثيرة ، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف ، وإما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أن لها أصلا . مع أن لها طريقين مرسلين آخرين ، رجالهما على شرط الصحيح : أحدهما : ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فذكر نحوه . والثانى : ما أخرجه أيضا من طريق المعتمر بن سليمان ، وحماد بن سلمة ، فرقهما عن داود بن أبى هند عن أبى العالية . وبعد أن ذكر كلام القاضى أبى بكر بن العربى ، والقاضى عياض قال : وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها ، دل ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهى مراسيل ، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض . وإذا تقرر ذلك ، تعين تأويل ما فيها مما يستنكر ، وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه ، تلك الغرانيق العلا ، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره ، لأنه يستحيل عليه — ﷺ — أن يزيد فى القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إن كان مغايرا لما جاء به من توحيد ، لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك ، وبعد أن ذكر الكثير منها ، ورأى ارتضاه ، وارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل ، وهو أن النبى ﷺ — كان يرتل القرآن ترتيلا ، فترصده الشيطان فى سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمة محاكيا نغمته ، بحيث سمعه من دنا إليه فظنه من قوله ، وأشاعها بين الناس ، قال : وهو الذى ارتضاه القاضى عياض وأبو بكر بن العربى أ هـ . والقاضيان : عياض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلا وعقلا ، ولكنهما ارتضيا ذلك تنزيلا على تسليم الصحة .

الذى أجيب به على ما ذكره الحافظ

١ — إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل ، وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابى ، وحينئذ ، يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة ، وعلى الثانى فلا يؤمن أن يكون كذابا ، والإمام مسلم قال فى مقدمة كتابه : والمرسل فى أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ، ليس بحجة

٢ — الاحتجاج بالمرسل إنما هو الفرعيات التى يكتفى فيها الظن ، أما الاحتجاج به على إثبات شىء يصادم العقيدة وينافى دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : أن خبر الواحد — لو كان صحيحا — لا يؤخذ به فى العقائد ، لأنه لا يكتفى فيها إلا باليقين ، فما بالك بالضعيف .

٣ — هذا التأويل الذى ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل ، فهو يوقع متأوله فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبى ، فالتسلط عليه بالمحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه ، كلاهما لا يجوز ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات ، وإذا سلمت أن الشيطان ، هو الذى نطق فى أثناء سكوت الرسول . فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا سمعنا فكيف لا يبادر إلى إنكارها ؟ والبيان فى مثل هذا وجب على الفور ، وإذا لم يسمع النبى ، ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا فكيف يسكتون ؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع ؟

ثم كيف يتفق هذا وما روى : من أن النبى حزن حزنا شديدا وأن جبريل قال له ما جئتك بهذا الحق !!

الحق : أن تصحيح القصة مهما تأول فيه المتأولون ، فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث

مصادمة القصة للقرآن المتواتر

فقد أفادت القصة ، تسلط الشيطان على النبى بالزيادة فى القرآن ما ليس منه ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[1] .

وأى شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء — بله رسول الله —؟

وقال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه ... ﴾[2] . وأى بشر أصدق إيمانا ، وأقوى توكلا من رسول الله ؟ ..

وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر

فقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته — عليه الصلاة والسلام — من مثل ما روى ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة العرب وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ، ويشبه

(١) الحجر آية : ٤٢ .
(٢) النحل آية : ١٠٠ .

عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي ذلك ، حتى ينبهه جبريل ، وذلك ممتنع في حقه أن يقول من قبل نفسه عمدًا وهو كفر ، أو سهوًا وهو معصوم . وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه ، أو قلبه لا عمدًا ولا سهوًا ، أو يكون للشيطان سبيل عليه في التبليغ ، ولو وجدنا ذلك ، لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلا للتشكيك في الأديان .

ووجه آخر لفساد هذه القصة : وهو أن الله — تعالى — ذم الأصنام في هذه السورة ، وأنكر على عابديها ، وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وما تمسك بها عبدتها إلا أوهام وظنون . فلو أن القصة صحيحة ، لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظام مفككًا ، والكلام متخاذلًا ، وكيف يقع مدح بين ذمين ؟ بل كيف يجوز هذا ممن كملت منه على كل العقول . والتسع في باب البيان ومعرفة الفصيح علمه ؟ وكيف يطمئن إلى مثل هذا التناقض السامعون ، وهم أهل اللسن والفصاحة ، ومنهم أعداؤه الذين يتلمسون له الزلات والعثرات ؟ ولو أن ما روى كان واقعًا لشغب المعاندون ، وارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولقامت قيامة مكة ، كما حدث في الإسراء ، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن ..

ومما يدل على بطلان القصة : ما ذكره الأستاذ الإمام محمد عبده في رده هذه الفرية ، وهو : أن وصف العرب آلهتهم بالغرانيق لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : إن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم ، إلا ما جاء في : « معجم ياقوت » من غير سند ولا معروف بطريق صحيح ، والذي تعرفه اللغة ، أن الغرنوق والغرانيق : اسم طائر مائي أسود أو أبيض ، ومن معانيه ، الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك (راجع القاموس) ، ولا شيء من معانيه اللغوية ، يلائم معنى الآلهة والأصنام ، حتى يطلق عليها في فصيح الكلام ، الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق ، لأن الذوق الأدبي ، يأبى ذلك .

زعم مردود

وقد تناول أحد أعداء الدين ، وهو « سيرمويير » المستشرق : الذي عليل هذه القصة بزعمه ، أن يدعمها بما يزعم أنه صحيح ، وهو ما روى : أن النبي — قال ذلك ، لما هادن المسلمون والمشركون ، وترامى الخبر إلى مهاجري الحبشة ، فرجعوا إلى وطنهم ، وهو باطل . والسبب في رجوع مهاجري الحبشة ، هو : إسلام السيد الهمام عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فقد أعز الله به الإسلام ،

وقوى شوكة المسلمين ، فخفف المشركون من غلوائهم مما رغب مهاجرى الحبشة في الرجوع إلى وطنهم ، وانضم إلى ذلك ، حدوث ثورة في بلاد النجاشي ، كان اعترافه بأن ما جاء به القرآن في عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله حق مصدق لما جاء به الأنجيل ، وإيواؤه المسلمين بعض أسبابها ، فآثر المسلمون العودة عن المقام بالحبشة مخافة أن يتطاير إليهم الشرر ، والضرر .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهي مخالفة للقرآن المتواتر ، ومناقضة لما ثبت بالعقل ، مع تعذر التأويل ، فلا جرم ، أن التحقيق يدعونا ، إلى أن نصدع ، بأن حديث الغرانيق مكذوب مختلق ، وضعه الزنادقة ، الذين يحاولون إفساد الدين والطعن في خاتم الأنبياء .

وإذا انتهينا من هذه النتيجة الموفقة ، فما معنى الآية حينئذ ؟ وللإجابة عن ذلك ، أذكر خلاصة ما ذكره الأستاذ الإمام في تفسيرها ، وفي تفسيرها وجهان . الأول ، أن تمنى بمعنى القراءة ، إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذي ذكره المفسرون ، من معنى إلقاء الأصل ولبسه بما يحتمله الكلام ، ولا يكون مرادًا للمتكلم ، أو لا يحتمله ، ولكن يدعى أن ذلك يؤدى إليه ، وذلك من عمل المعاجزين ، الذين دأبهم محاربة الحق ، يتبعون الشبه ، ويسعون وراء الريبة ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حينئذ ، لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ، إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحيًا أنزل الله فيه هداية لهم ، قام في وجهه مشاغبون ، يتقولون عليه ما لم يقله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينشرون ذلك بين الناس ، ولا يزال الأنبياء يجادلونهم في سبيل الحق ، حتى ينتصر ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان من شبه ، ويثبت الحق ، وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ، ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن ضعفاء الإيمان ، الذين في قلوبهم مرض ، ثم يتمحص الحق عند أهله ، وهم الذين أوتوا العلم ، فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وتخبت له قلوبهم .

ثانيا : أن التمنى : المراد به ، تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما كان ويكون ، والأمنية من هذا المعنى ... وما أرسلنا من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان في سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس في صدور الناس ، فثاروا في وجهه ، وجاهدوه بالسلاح حينًا ، وبالقول حينًا آخر ، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها ، ونالوا منه وهو قليل الأتباع ، ظنوا أن الحق في جانبهم ، وقد يستدرجهم الله جريًا على سنته ، فيجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالًا ، فينخدع بذلك الذين في قلوبهم شك ونفاق ، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من شبهات ، وينشىء من ضعف أنصار الآيات قوة ، ومن ذلهم عزة ، وتكون الكلمة

الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . هذا هو الحق ، وما عدا ذلك فهو باطل . أ . هـ .

الأمر لله وحده

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أى ليس كل من تمنى خيرا حصل له كقوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾[1] ، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئا يحصل له .

قال القرطبى وقيل : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ من غير جزاء ، ليس الأمر كذلك . وقيل : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ من شفاعة الأصنام ، نزلت فى النضر بن الحارث ، وقيل فى الوليد بن المغيرة ، وقيل فى سائر الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، لا ما تمنى أحد ، فكل شىء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة بعدها إلا ما شاء هو ، فما شاء هو كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال جل فى علاه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى . فاعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، كما قال تعالى : ﴿ ... بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء : آية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٤ .
(٣) سورة الأنبياء : الآيات : ٢٦ — ٢٨ .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ هم الكفار الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله ﴿ ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أى أنهم لم يشاهدوا خلقة الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه عن رسول الله — ﷺ — ولم يروه فى كتاب ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ أى لا يجدى شيئا ولا يقوم أبدا مقام الحق .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ، ولم يأخذوا بما فيه ، مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة ، وقصص الأولين ، والتذكرة بأمور الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم ، وانتصروا على شئون الدنيا وزينتها بزخرفها وجدّوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها . ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أى أن منتهى علمهم أن يفقهوا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا بالملذات ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكونون به فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، ومما به يذكرون بين الناس ، ولا يُعنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر آذانهم ، ووراء ظهورهم لا يعرفون منها قبيلا من دبير .

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله — ﷺ — « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »[2] .

---

(١) سورة الزخرف : آية ١٩ .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٦ ص ٧١ من رواية عائشة .

وفي الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » . وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « ألا إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما والاه ، وعالمًا ومتعلمًا »[1] . رواه الترمذي وقال حديث حسن وعن أنس — رضي الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[2] . متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي إن ربك هو العليم بمن وصل ليله بنهاره ، وصباحه بمسائه مفكرًا في آياته في الكون ، وفيما جاء على ألسنة رسله . حتى اهتدى إلى الحق الذي ينجيه في آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التي وضعها في خليقته . فاحتذى حذوها وسار على أثرها — ومن حاد عن الطريق وجعل إلهه هواه وركب رأسه . فلم يلو على شيء مما جاء به الداعي الناصح الأمين . وإنه مجاز كلا بما كسب واكتسب . وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، بحسب ما أحاط به واسع علمه ، وبمقدار فضله على من أحسن إليه مصداقًا لقوله : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[3] .

وخلاصة القول : إن هؤلاء قوم لا تجدى معهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾[4] .

العدالة الإلهية

قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي

---

(1) أخرجه الترمذي جـ ٤ ص ٤٨٥ — ٤٨٦ . كتاب الزهد . باب ... ما جاء في هوان الدنيا على الله . رقم ٢٣٢٢ .
(2) أخرجه البخاري جـ ٤ ص ١١ عن رواية أنس .
(3) الحجر : الآيتان ٤٩ — ٥٠ .
(4) هود : آية ٣٦ .

تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62) ﴾

معاني المفردات

﴿ بما عملوا ﴾ أي بعقاب على عملهم . ﴿ بالحسنى ﴾ أي بالمثوبة الحسنى وهي الجنة . ﴿ كبائر الإثم ﴾ ما يكبر عقابه كالزنى وشرب الخمر . ﴿ الفواحش ﴾ واحدها فاحشة ، وهي ما عظم قبحها من الكبائر . (اللمم) ما صغر من الذنوب . وهو في اللغة اسم لما قل قدره ومنه لمة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشيء دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أي قاربت منه ، وعليه فالمراد الهم بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل . ومن ثم قال سعيد بن المسيب : هو ما خطر على القلب . (الأجنة) واحدها جنين ، وهو الولد ما دام في البطن . (تولى) أي أعرض عن اتباع الحق . (أكدى) أي قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أي بلغ كدية أي صخرة تمنعه من إتمام العمل . (ينبأ) يخبر . (صحف موسى) هي التوراة . وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع . (وفى) أي أتم ما أمر به (ألا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل نفس حمل نفس أخرى . (المنتهى) أي المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر . (تمنى) أي تدفع في الرحم . (النشأة الأخرى) هي إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث . (أغنى وأقنى) أي أغنى من شاء وأفقر من شاء . (الشعرى) هي الشعرى العبور وهي ذنب النجم الوضاء ، الذي يقال له مرزم الجوزاء . وقد عبدته طائفة من العرب . (وعاد الأولى) هم قوم هود . (وعادا الأخرى) من ولد عاد الأولى . (والمؤتفكة) هي قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها : أي انقلبت بهم . (أهوى) أي أسقط في الأرض . (غشاها) أي غطاها .

﴿ الآلاء ﴾ : النعم واحدها ألى (بالفتح والكسر) . ﴿ تتمارى ﴾ تمترى وتشك ، والخطاب للإنسان . ﴿ هذا نذير من النذر ﴾ أى أن محمدا بعض من أنذر . ﴿ أزفت ﴾ قربت والآزفة ، الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أولدنوها من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ اقتربت الساعة ﴾[1] . ﴿ من دون الله ﴾ أى من غيره . ﴿ كاشفة ﴾ أى نفس تكشف وقت وقوعه وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ، (والحديث) القرآن . ﴿ سامدون ﴾ أى لاهون غافلون . وعن ابن عباس : السمود : الغناء فى لغة حمير ، يقال : اسمُدى لنا ، أى غنى لنا ، قال أبو عبيدة : السمود الذى غُنى له .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالإعراض عن المشركين ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وبأنهم قوم ضالون لا يصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم ، ذكر هنا أنه لا يهملهم ، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وهو عليم بما فى السموات والأرض فلا يترك سدى هملا ، بل يجازيهم بعدله ، فيثيب المحسن بالجنة ، ويعاقب المسيء بما هو أهله ، ثم أردف ذلك بذكر أوصاف المحسنين ، ثم جاء بعده بأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم ، من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا ، فيميز المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذًا إلى مدح نفسه بفعل الحسنات ، واجتناب السيئات ، ثم ذكر أن من العجب العاجب بعد أن يسمع سامع ، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه فى تحمل وزره ويعطيه جُعلاً ، لكنه ما أعطاه إلا قليلاً ، حتى وقف عن العطاء ، ومن ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا لا يكون إلا بوحى ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؟ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم ، كشريعة موسى وإبراهيم على غير هذا ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فمن لم يصل له أن ذلك مجزى ، ثم بين سبحانه أنه المحى والمميت ، وأنه هو المتصرف فى أمور العالم خلقا وتدبيرًا وملكًا ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت رسلها وأنكرت الخالق ، وختم سبحانه السورة ، كما بدأها بحديث عن هذا القرآن العظيم ، فقال : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ فلا تعجبوا من القرآن منكرين ، ولا تضحكوا منه مستهزئين وابكوا حزنًا على ما فرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها سعادتكم ، واسجدوا شكرًا لبارئ النسيم الذى أوجدها من العدم ، واعبدوه بكرة وعشيا ، شكرا على آلائه ، وتقلبكم فى نعمائه .

(١) القمر : آية رقم ١ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغنى عما سواه ، الحاكم فى خلقه بالعدل . خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم أقدارًا ، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم . وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، يهدى من يشاء ، ويعصم ويعافى ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى ، عدلا ، وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله . ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أى فهو يجازى بحسب علمه المحيط بكل شيء ، المحسن بالإحسان ، والمسيء بصنيع ما أساء ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه أوصاف المحسنين فقال تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ أى أن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى ، كالشرك ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والزنا ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ... ولا تقع منهم إلا صغائره فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرط منهم . كقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريمًا ﴾[2] .

وقال هنا : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى

(١) الجاثية : الآيتان ٢١ — ٢٢ .
(٢) النساء : آية ٣١ .

وتشتهى ، والفرج يصدق من ذلك أو يكذبه »[1] . أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به . فإن تقدم بفرجه كان زانيا ، وإلا فهو اللمم . كذا قال ابن جرير عن ابن مسعود . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال ابن جرير عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية (إلا اللمم) قال : الذى يلم بالذنب ثم يدعه .

قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عبد لك لا ألمّا

وقال الكلبى : اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا فى الدنيا ولا عذابًا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم ، يلم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ أى رحمته سبحانه وسعت كل شىء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ، قال تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ﴾[2] . وقال جل ذكره : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾[3] . وقال سبحانه : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ﴾[6] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ياابن آدم : إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

---

(١) أخرجه أحمد جـ ٢ ص ٢٧٦ طبع دار الفكر العربى . وانظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٧ . كتاب القدر . باب قدر ابن آدم حظه من الزنا : رقم ٢٦٥٧/٢١ .

(٢) طه : آية ٨٢ .

(٣) الزمر : آية ٥٣ .

(٤) النساء : آية ١١٠ .

(٥) غافر : آية ٧ .

(٦) الأعراف : الآيات ١٥٦ ــ ١٥٨ .

ياابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . ياابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح[1] .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة	فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن	فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا	وجميل عفوك ثم إنى مسلم

قوله تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ . أى هو سبحانه بصير بكم ، عليم بأحوالكم ، وأقوالكم ، التى ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين ، فريقًا للجنة ، وفريقًا للسعير .

قال مكحول : كنا أجنة فى بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقى ، ثم كنا مراضيع ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يفعة ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شبابًا ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شيوخًا ـــ لا أبالك ـــ فماذا بعد هذا ننتظر ؟!

وقوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ أى فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصى ، أو بزكاة العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن تقى المعاصى ، ومن ولغ فيها ودنس نفسه باجتراحها .

قال الحسن فى هذه الآية : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة .

والآية كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٥١٢ كتاب الدعوات . باب فى فضل التوبة والاستغفار . رقم ٣٥٤٠ .

(٢) النساء : آية ٤٩ .

وقال مسلم فى صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتى برة ، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال رسول الله ﷺ « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم فقالوا بم نسميها ؟ قال : سموها زينب »[1] .

وروى أحمد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال مدح رجل رجلاً عند النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ويلك قطعت عنق صاحبك — مرارا — إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلانا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك »[2] .

قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى تولى ، وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى . أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ .

يقول تعالى ذاما لمن تولى عن طاعة الله : فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد ، قال عكرمة وسعيد كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرا فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون أكدينا ويتركون العمل .

قوله تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أى عند هذا الذى أمسك خشية الإنفاق ، وقطع معروفه أعنده علم الغيب أنه سينفد ما فى يده ، حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عيانًا ؟ أى ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحًا وهلعًا .

قوله تعالى : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى أم لم يخبر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمره به ، وإنما ذكر ما جاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب ، لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما فى التوراة وصحفها قريبة العهد منهم .

(١) أخرجه مسلم جـ ٣ ص ١٦٨٧ ، ١٦٨٨ رقم ٢١٤٢/١٩ .
(٢) أخرجه أحمد : جـ ٥ ص ٤٦ ط دار الفكر العربى .

الضحك والبكاء ، وسببهما ... تعالى : ... إليه

ثم فصل سبحانه ما جاء فى هاتين الشريعتين فقال : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[1] . أى ولا تكسب كل نفس إثمًا إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها . ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أى كما لا يحمل على الإنسان وزر غيره لا يحصل له من أجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط الإمام مالك والإمام الشافعى ومن تبعهم أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه ، بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة — رضى الله عنهم — ولو كان خيرًا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما ، وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[3] . فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » ، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا

(١) سورة الأنعام : ١٦٤ .
(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .
(٣) أخرجه أحمد جـ ٢ ص ٣٧٢ ومسلم جـ ٣ ص ١٢٥٥ رقم ١٦٣١/١٤ .

وآثارهم ﴾[1] . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ... الحديث »[2] . (أفاده العلامة ابن كثير) .

قوله تعالى : ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أى أن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ، ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ للمسيئين . كقوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[3] . ﴿ يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره فيضاعف الله له الحسنة ، ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها أو يعفو عنها بفضله ، قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[5] . وقال سبحانه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[6] . وقال جل فى علاه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾[7] .

قوله تعالى : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أى وأن مرجع الأمر يوم المعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار ، وفى هذا تهديد بليغ للمسيء ، وحث شديد للمحسن ، وتسلية لقلبه ﷺ ، كأنه يقول له : لا تحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن عمرو بن ميمون الأودى قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بنى أود إنى رسول رسول الله ﷺ إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله ثم إلى الجنة أو إلى النار .

(١) يس : آية ١٢ .
(٢) أخرجه : صحيح مسلم فى كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة جـ ٤ ص ٢٠٦٠ رقم ١٦ (٢٦٧٤) .
(٣) التوبة : آية ١٠٥ .
(٤) الطارق : الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٥) الأنعام : آية ١٦٠ .
(٦) البقرة : آية ٢٦١ .
(٧) البقرة : آية ٢٤٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أى خلق فى عباده الضحك والبكاء ، وسببهما وهما مختلفان ، والمراد أن سبحانه خلق ما يسر ، وما يحزن من الأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ أى وأنه سبحانه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ هو يحيى ويميت وإليه ترجعون ﴾ ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقوله تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ أى وأنه خلق الذكر والأنثى ، من الإنسان وغيره من الحيوان ، من المنى الذى يُدفق فى الأرحام ، كقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منىّ يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴾ وكقوله سبحانه : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾[1]

وقال هنا سبحانه : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أى كما خلق البداءة ، هو قادر سبحانه على الإعادة ، وهى النشأة الأخرى يوم القيامة . كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء . قال ابن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾[3] . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[5] .

(١) الطارق : الآيات ٥ — ٨ .
(٢) العنكبوت : الآيات ١٩ — ٢٢ .
(٣) سبأ : آية ٣٩ .
(٤) العنكبوت : آية ٦٢ .
(٥) الروم : آية ٣٧ .

فسبحان الخالق ، البارىء ، المصور ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد ، الذى يقال مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ، وإنما ذكر أنه رب الشعرى ، وإن كان ربا لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ، فأعلمهم الله — جل وعز — أن الشعرى مربوب وليس برب ، قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ وهى قوم هود عليه السلام ، وعاد الأخرى هى إرم بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾[3] . وقد كانوا من أشد الأمم وأقواهم وأعتاهم عن الله ورسوله ، فأهلكهم ﴿ بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾[4] . أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأولى من ولد عاد الأول .

وقوله تعالى : ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ أى وأهلك ثمود فما أبقى عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم ، أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾[5] .

وقوله ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدءوا بالظلم ، ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من

(١) آل عمران : الآيتان ٢٦ — ٢٧ .
(٢) الحج : آية ١٨ .
(٣) الفجر : الآيات ٦ — ١١ .
(٤) الحاقة : الآيات ٦ ، ٧ .
(٥) فصلت : آية ١٧ .

عمل بها ، وكانت أطغى منهما ، وأكثر تجاوز للحد ، لأنهم سمعوا المواعظ ، وطال عليهم الأمد ، ولبث فيهم النبى نوح ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولم يرتدعوا ، حتى دعا عليهم نبيهم ، بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[1] .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ، ويمشى إلى نوح ، يحذره منه ، ويقول : يابنى إن أبى مشى بى إلى هذا ، وأنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، ولا تأثر من دعائه ، ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم ، وجعل عاليها سافلها ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، قال تعالى : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾[4] . وقوله : ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾[5] .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ، هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ، فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

قوله ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان ، تمترى وتشك ؟ كقوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[6] . وكقوله تعالى : ﴿ ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾[7] . وكقوله سبحانه : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[8] .

(١) نوح : آية ٢٦ .
(٢) نوح : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) نوح : آية ٢٥ .
(٤) الحجر : آية ٧٤ .
(٥) النمل : آية ٥٨ .
(٦) الواقعة : آية ٨٢ .
(٧) الانفطار : الآيات ٦ ، ٧ .
(٨) الرحمن : آية ١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ يعنى محمدًا ﷺ منذر من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، بسوء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل بالذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبوهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال ، جزاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى ترى عليهم ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أى اقتربت القريبة ، وهى القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم ، قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لا تشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجدوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار سبحانه فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

(١) وحدانية الله بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ .

(٢) إثبات نبوة محمد ﷺ بقوله : ﴿ هذا نذير ﴾

(٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ .

ثم أنكر المشركون تعجبهم من القرآن ، واستهزاءهم به وإعراضهم عنه ، فقال تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ﴾ .

أى أينبغى لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن ، وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ، وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تكونوا كالمؤمنين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا ﴾[3] . وكيف تلهون عن استماع عبره ، وتغفلون عن مواعظه ، وتتلقونه بما تتلقى اللاهى الساهى المعرض عما يسمع ، غير المكترث بما يلقى إليه . ﴿ وأنتم سامدون ﴾ والسمود اللهو ، والسامد اللاهى ، يقال للقينة : أسمدينا ، أى ألهينا بالغناء قال الحسن ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى غافلون .

(١) سبأ : آية ٤٦ .
(٢) غافر : آية ١٨ .
(٣) الإسراء : آية ١٠٩ .

ثم قال تعالى آمرًا لعباده بالسجود له ، والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ ، والتوحيد والإخلاص : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ أى فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه .

تحقيق علمى فى تحريم الغناء

قوله تعالى : ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس : هو الغناء بالحميرية ؛ اسمدى لنا ؛ أى غنى لنا ، وهى إحدى الآيات الثلاث التى استدل بها العلماء على تحريم الغناء .

والآية الثانية : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. ﴾[1] . سئل ابن مسعود عنها ، فأقسم والله الذى لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات إنه الغناء ، وعن ابن عمر إنه الغناء ، وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول .

والآية الثالثة : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد الغناء والمزامير صوت الشيطان . وروى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. ﴾ إلى آخر الآية[3] » .

وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبى ﷺ قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما ، صوت مزمار ورنة شيطان عند نغمة ، ومرح ورنة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب »[4] .

(١) لقمان : آية ٦ .
(٢) الإسراء : آية ٦٤ .
(٣) أخرجه الترمذى : جـ ٥ ص ٢٥ ، تفسير سورة لقمان من رواية أبى أمامة .
(٤) انظر سنن الترمذى ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ، جـ ٢ ص ٢٣٧ ، حديث رقم ١٠٠١ من رواية جابر بن عبد الله جاء فيها « ...... ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ورنة شيطان » . وطرق الحديث كلام أكثر من هذا ، انظر مجمع الزوائد ، باب فى النوح ، جـ ٣ ص ١٢ ، فقد ورد الحديث من رواية لأنس ولفظه « صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة ورنة عند مصيبة » رواه البزار ورجاله ثقات . وفى كشف الأستار عن زوائد البزار جـ ١ ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ ، باب ما جاء فى النوح ، حديث ٧٩٥ ، لأنس بن مالك « نص رواية مجمع الزوائد » . وفى باب جواز البكاء ، للبزار ورد الحديث ٨٠٥ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ورد رواية لعبد الرحمن بن عوف جاء فيها « ...... إنما نهيت عن النوح عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة ، لعب ولهو مزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة خمش وجوه ، وشق جيوب ورنة شيطان ... » إلخ .

وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من جلس إلى قينة يسمع منها صب في أذنه الآنك يوم القيامة »[1] . (والآنك الرصاص المذاب) .

قال القرطبي . وهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء ، وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذي يحرك النفوس . ويبعثها على الهوى ، والغزل والمجون ، الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ؛ فهذا النوع إذا كان في شعر يشبب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن وذكر الخمر والمحرمات لا يختلف في تحريمه ؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة . كما كان في حفر الخندق وحدو أنجشة وسلمة بن الأكوع . فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام .

وقال العلامة ابن القيم : (في كتابه إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان) :

« ومن مكايد عدو الله ومصايده ، التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ؛ سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة ، الذي يصد القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ، كاده الشيطان النفوس المبطلة ؛ وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا ، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه . فقبلت وحيه ، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا ، فلو رأيتهم عند ذلك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم ، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك ؛ وقد خالط خمارة النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس . فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق ، وأموال في غير طاعة الله تنفق . واستفزهم بصوته وحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله ، ووخز في صدورهم وخزًا ، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًا فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالذباب ترقص وسط الدار ، فيارحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، وياسوأتنا من أشباه الحمير والأنعام ، ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربًا ،

(1) انظر تفسير القرطبي ، تفسير سورة لقمان ، جـ ١٤ ص ٥٣ فقد ورد حديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا ، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره ، لما حرك له ساكنًا ، ولا أزعج له قاطنًا ، ولا أثار فيه وجدًا ، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زندًا ، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت . فيأيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون ؛ هلا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل امرىء يصبوا إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكله . والجنسية علة الضم قدرًا وشرعًا ، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعًا ، فمن أين هذا الإخاء والنسب ؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب ، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللا ؟ ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[1] .

ولقد أحسن القائل :

تُلي الكتاب ، فأطرقوا ، لا خيفة … لكنه إطراق ساهٍ لاهي
وأتى الغناء ، فكالحمير تناهقوا … والله ما رقصوا لأجل الله
دف ، ومزمار ، ونغمة شادن … فمتى رأيت عبادة بملاهي ؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا … تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعدًا وبرقًا ، إذ حوى … زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن … شهواتها ، ياويحها المتناهي
وأتى السماع موافقًا أغراضها … فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع … أسبابه . عند الجهول الساهي ؟
إن لم يكن خمر الجسوم ، فإنه … خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه … وانظر إلى النشوان عند ملاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه … من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
واحكم فأي الخمرتين أحق بالتحـ … ـريم . والتأثيم عند الله ؟

(1) الكهف : آية ٥٠ .

ويقول ابن القيم :

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه ، في تحريم السماع : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ونسأله أن يرينا الحق حقا فنتبعه ، والباطل باطلا فنجتنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل وقل العلم ، وتناقص الأمر ، حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهارًا ، ثم ازداد الأمر إدبارًا ، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ، وفقنا الله وإياهم ، استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني واللهو ، وسماع الطقطقة والنقير ، واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله ، وجاهرت به جماعة المسلمين ، وشاقت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[1] .

فرأيت أن أوضح الحق ، وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التى تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء ، الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها ، حتى تعلم هذه الطائفة ، أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعها ، والله ولى التوفيق .

فتاوى الأئمة الأربعة فى الغناء

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء ، وعن استماعه ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية ، كان له أن يردها بالعيب .

وسئل مالك رحمه الله : عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء ؟ فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

قال : وأما أبو حنيفة : فإنه يكره الغناء ، ويجعله من الذنوب . قلت : مذهب أبى حنيفة فى ذلك من أشد المذاهب ، وقوله فيه أغلظ الأقوال ، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهى كلها ،

(١) النساء : آية ١١٥ .

كالمزمار ، والدف ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسق ، والتلذذ به كفر . هذا لفظهم ، ورووا فى ذلك حديثا لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد فى أن لا يسمعه إذا مر به أو كان فى جواره .

وقال أبو يوسف فى دار يسمع منها صوت المعازف والملاهى : أدخل عليه بغير إذنهم ، لأن النهى عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام ، إذا سمع من داره ، فإن أصر حبسه أو ضربه سياطًا ، وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعى : فقال فى كتاب أدب القضاء : إن الغناء لهو مكروه ، يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه ، ترد شهادته ، وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله ، كالقاضى أبى الطيب الطبرى ، والشيخ أبى إسحق ، وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق فى التنبيه : ولا تصح ، يعنى الإجارة ، على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافًا . فقد تضمن كلام الشيخ أمورًا :

أحدها : أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة .

الثانى : أن الاستئجار عليها باطل .

الثالث : أن أكل المال به ، أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضًا عن الميتة والدم .

الرابع : أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى ، ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله فى مقابلة محرم ، وأن بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتة .

الخامس : أن الزمر حرام ، وإذا كان الزمر ، الذى هو أخف آلات اللهو حرامًا ، فكيف بما هو أشد منه ؟ كالعود ، والطنبور ، واليراع ، ولا ينبغى من شم رائحة العلم أن يتوقف فى تحريم ذلك ، فأقل ما فيه : أنه من شعار الفساق وشاربى الخمور .

وكذلك قال أبو زكريا النووي في روضته :

القسم الثاني : أن يغني ببعض آلات الغناء مما هو من شعار شاربي الخمر ، وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج ، وسائر المعازف والأوتار ، يحرم استعماله واستماعه . قال : وفي اليراع وجهان ، صحح البغوي التحريم .

ثم ذكر عن الغزالي الجواز . قال : والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة ، وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة والغناء ، فقال في فتاويه :

وأما إباحة هذا السماع وتحليله ، فليعلم أن الدف والشبابة والغناء ، إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ، ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله في الإجماع والاختلاف ، أنه أباح هذا السماع ، والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعي ، إنما نقل في الشبابة منفردة ، والدف منفردًا ، فمن لا يحصل أولا يتأمل ربما اعتقد خلافا بين الشافعيين في هذا السماع الجامع لهذه الملاهي ، وذلك وهم بين الصائر إليه ، تنادى عليه أدلة الشرع والعقل ، مع أنه ليس كل خلاف يعتمد عليه ، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص في أقاويلهم تزندق أو كاد .

قال : وقولهم في السماع المذكور : أنه من القربات والطاعات ، قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما في قوله تعالى : **﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا ﴾**(١) .

وقد تواتر عن الشافعي أنه قال : خلفت ببغداد شيئا أحدثه الزنادقة ، يسمونه التغبير ، يصدون به الناس عن القرآن .

فإذا كان هذا قوله في التغبير ، وتعليله أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد في الدنيا ، يغني به مغن ، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه ، فليت شعري ما يقول في سماع التغبير عنده كتفلة في بحر ، قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل حرام ، فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل .

قال سفيان بن عيينة : كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

(١) النساء : آية ١١٥ .

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

وأما مذهب الإمام أحمد فقال عبد الله ابنه : سألت أبي عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق في القلب ، لا يعجبني . ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق .....

ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره ، إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها . وعنه في كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان .

ونص في أيتام ورثوا جارية مغنية ، وأرادوا بيعها فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفًا ونحوها . وإذا بيعت ساذجة لا تساوي ألفين . فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

سماع الأغاني من المرأة من أعظم المحرمات

وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد ، فمن أعظم المحرمات وأشدها فسادًا للدين .

قال الشافعي رحمه الله : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها ، فهو سفيه ترد شهادته ، وأغلظ القول فيه ، وقال : هو دياثة ، فمن فعل ذلك كان ديوثًا .

قال القاضي أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهًا ، لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهًا فاسقاً .

قال : وكان الشافعي يكره التغبير ، وهو الطقطقة بالقضيب ، ويقول : وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن ......

شبهات والرد عليها

قال العلامة ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين)

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم ، وأنه مباح : بكونه مستلذًا طبعًا ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه ، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة ، فيهون عليه بالحداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة في خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾[1] . وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة ، فقال فيه : ﴿ فهم في روضة يحبرون ﴾[2] . وبأن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حرامًا ، وهو في الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأذنه — أي كاستماعه — لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن . وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي ﷺ إلى صوته ، وأثنى عليه بحسن الصوت ، وقال : « لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود »[3] . أي زينته لك وحسنته . وبقوله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم »[4] . وبقوله ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[5] . والصحيح : أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله . فقال يحسنه بصوته ما استطاع . وبأن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد . وقال لأبي بكر : « دعهما . فإن لكل قوم عيدًا . وهذا عيدنا أهل الإسلام »[6] .

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء ، وسماه لهوًا . وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنسًا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمدا	على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة . وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر . فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صيح بنا أتينا	وبالصياح عولوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

(١) لقمان : آية ١٩ .
(٢) الروم : آية ١٥ .
(٣) انظر صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن جـ ١ ص ٥٤٦ ، حديث رقم ٧٩٣/٢٣٦ .
(٤) انظر سنن أبي داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل في القراءة جـ ١ ص ٥٥٠ رقم ١٤٦٨ .
(٥) انظر سنن أبي داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل في القراءة جـ ١ ص ١٥٦ رقم ١٤٦٩ .
(٦) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٦ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

فدعا لقائله :

وسمع قصيدة كعب بن زهير ، وأجازه ببردة .

واستنشد الأسود بن سريع قصائده حمد بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشى شيئًا من شعره فسمعه .

وصدق لبيدًا في قوله : الا كل شيء ما خلا الله باطل .

ودعا لحسان « أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه » وكان يعجبه شعره . وقال له « اهجهم . وروح القدس معك »[5] .

وأنشدته عائشة قول أبي كبير الهذلي :

ومبرأ من كل غبر حيضة	وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه	برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت « أنت أحق بهذا البيت » فسر بقولها .

وبأن ابن عمر رضي الله عنهما رخص فيه ، وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة وبأن كذا وكذا وليا لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمي أولى بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدد روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه ، فإن كان محبوبه حرامًا كان السماع معينًا له على الحرام ، وإن كان مباحًا كان السماع في حقه مباحًا ، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة ، لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب ، كالتذاذ العين بالمنظر الحسن ، والشم بالروائح الطيبة ، والفم بالطعوم الطيبة ، فإن كان هذا حرامًا كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

(٥) مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢٩٩ .

فالجواب :

إن هذه حَيْدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع ، وتعلق بما لا متعلق به ، فإن جهة كون الشيء مستلذًا للحاسة ملائمًا لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه ، فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة ، تكون في الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح ، فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذه إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم . وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد ؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها ، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد ، وأجمع أهل العلم على تحريمها ، إلا لذيذة تلذ السمع ؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة أو تحريم .

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن لله حق الصوت الطيب ، وهو زيادة نعمة من لصاحبه .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة في النعمة ، والله خالقها ومعطي حسنها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟ وهل في ذم الله لصوت الحمار ، ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدفوف والشبابات ؟!

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة ، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر ، بأن في الجنة خمرًا ، وعلى حل لباس الحرير ، بأن لباس أهلها حرير ، وعلى حل أواني الذهب والفضة والتحلي بهما للرجال ، بكون ذلك ثابتًا وجود النعيم به في الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا ، ولم يقم على تحريم السماع ، قيل : هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة ، فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لا يرضى به محصل .

وأما قولكم : « لم يقم دليل على تحريم السماع » .

فيقال لك : أي السماعات تعني ؟ وأي المسموعات تريد ؟ . فالسماعات والمسموعات ، منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب والمستحب ، فعين نوعًا يقع الكلام فيه نفيًا وإثباتًا .

فإن قلت : سماع القصائد ، قيل لك : أي القصائد تعني ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه ، وهجي به أعداؤه ؟ . فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها ، وهي التي سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها ، وحرض حسانًا عليها ، وهي التي غرت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا : تلك قصائد ، وسماعنا قصائد ، فنعم إذن ، والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتسبيح كلام ، والغيبة كلام ، والدعاء كلام ، والقذف كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة في غير هذا الموضع ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟

ونظير هذا : ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأذنه له ، وإذنه فيه ، ومحبة الله له ، فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمرداد وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد ، وذكر القد والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الخدود ، وذكر الوصل والصد ، والتجني والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى ، مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما ، وأي نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه ، إلى سكرة العشق التي لا يستفيق الدهر صاحبها ، إلا في عسكر الهالكين ، سليبًا حريبًا ، أسيرًا قتيلاً ؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا في سكر السماع ، وتأثيره في العقول والأرواح : خرجوا عن الذوق والحس ، وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحمي الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، ويبيح له ما فيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أن لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب ، وسقمها بسكر السماع ، وكلامنا مع واجد لا فاقد ، فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع — المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية — بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية في عيد وفرح ، وأبيات من أبيات العرب ، في وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم ، فأين هذا من هذا ؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم ، فإن الصديق رضى الله عنه سمى ذلك « مزمورًا من مزامير الشيطان » وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ، ورخص فيه لجويرتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة فى إنشادهما ولا استماعهما ، أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى ؟ فياسبحان الله ! كيف ضلت العقول والأفهام ؟

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ؟ وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه ؟ فكم فى هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة ، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾[1] . وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان والأوتار والعيدان . وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء ، بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمْرى والبلبل والهزار ونحوها ؟ بل تقول لو كانا سواء ، بكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة ، تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور وبعد الله أن يكونا سواء .

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد ، من أهم قواعد الإيمان والسلوك . فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار .

القاعدة الأولى :

إن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكمًا ، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد ، وجعلوه محكًا للحق والباطل ، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكموا فيها الأذوق والأحوال والمواجيد ، فعظم الأمر ، وتفاقم الفساد والشر . وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان إلى الله ، فصيروه إلى النفوس . فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون أنفسهم ...

(١) البقرة : آية ٢٧٥ .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع فى نفسه وفى غيره ، فكل ما خالف مراد الله الدينى من العبد ، فهو حظه وشهوته ، مالاً كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو حالاً ، أو ذوقًا ، أو وجدًا .

تحكيم الوحى :

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدث الكاشف — عمر رضى الله عنه — لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شىء من أمور الدين ، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشىء ، لم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول : لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره ، ويقول : « يأيها الناس ، رجل أخطأ وامرأة أصابت » فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

القاعدة الثانية :

إنه إذا وقع النزاع فى حكم من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق ، هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة ، عند الله ، وعند عباده المؤمنين ، وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه ، وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ، ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله ، فليس على شىء من الدين ، وإن ، وإن ، وإنما معه خدع وغرور **﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾[1] .**

القاعدة الثالثة :

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شىء ، هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته ، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة ، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته ، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى ، ولاسيما إذا كان طريقًا مفضيًا إلى ما يغضب الله ورسوله ، موصلاً إليه عن قرب ، وهو رقية له ورائد وبريد ، فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر .

(١) النور : آية ٣٩ .

فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر ، لأنه يسوق النفس إلى السكر ، الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقًا للنفوس إلى الحرام بكثير ؟ فإن الغناء — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : هو « رقية الزنا » وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبى إلا وفسد ، ولا امرأة إلا وبغت ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا ، والعيان من ذلك يغنى عن البرهان ، ولاسيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حدو إلى المعصية والفجور بأن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله ، من المكان والإمكان ، والعُشراء والإخوان ، وآلات المعازف من اليراع والدف والأوتار والعيدان ، وكان القوّال شاذًا شجى الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان ، وكان القول فى العشق والوصال ، والصد والهجران .

ما جاء فى الشرع من أسماء السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى

قال ابن القيم : « هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى ، فى الشرع بضعة عشر اسما :

اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ، ومنبت النفاق فى القلب ، والصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود .

أسماؤه دلت على أوصافه تبا لذى الأسماء والأوصاف

فلنذكر مخازى هذه الأسماء ، ووقوعها عليه فى كلام الله ، وكلام رسوله والصحابة ، ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا ، وأى تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب المزمار ، والدف ، والغنا ... وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش فى غيّه وضلاله ... على تاتنا تنا ويبعث أشيبا
وفى تنتنا يوم المعاد نجاته ... إلى الجنة الحمراء ، يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أى بضاعة ... أضاع ، وعند الوزن ما خف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته ... إذا حصلت عماله كلها هبا
دعاه الهدى والغى من ذا يجيبه ؟ ... فقال لداعى الغىّ : أهلاً ومرحبا
وأعرض عن داعى الهدى ، قائلاً له : ... هواى إلى صوت المعازف قد صبا

فالاسم الأول : اللهو ، (لهو الحديث)

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾[1] .

قال الواحدى وغيره : أكثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ..

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل ، وهذا قول مكحول ، وهذا اختيار أبى إسحاق أيضا .

وقال : أكثر ما جاء فى التفسير : أن لهو الحديث ههنا هو الغناء ، لأنه يلهى عن ذكر الله تعالى .

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء — ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة بإعلان الغناء . قال : وأما غناء القينات ، فذلك أشد ما فى الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روى أن النبى ﷺ قال : « من استمع إلى قينة صُب فى أذنيه الآنك يوم القيامة »[2] . والآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعًا إلى النبى ﷺ ففى مسند الإمام أحمد ، ومسند الحميدى ، وجامع الترمذى من حديث أبى أمامة والسياق للترمذى : أن النبى ﷺ قال : « لا تبيعوا القينات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام »[3] .

فى مثل هذا نزلت هذه الآية :

﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ .

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد الإلهانى عن القاسم ،

(١) لقمان : الآيتان ٦ ، ٧ .
(٢) انظر تفسير القرطبى ، تفسير سورة لقمان جـ ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظه .
(٣) أخرجه أحمد جـ ٥ ص ٢٦٤ .

عبيد الله بن زحر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلي ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى ، ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .. وصح عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا أنه الغناء .

ولا تعارض بين تفسير « لهو الحديث » بالغناء ، وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن ، فكلاهما لهو الحديث ، ولهذا قال ابن عباس : لهو الحديث : الباطل والغناء . فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر الآخر ، ومنهم من جمعهما .

إذا عرف هذا ، فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن وإن لم ينالوا جميعه . فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ، ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرا كأن لم يسمعه ، كأن فى أذنيه وقرا ، وهو الثقل والصمم ، وإذا علم منه شيئا استهزأ به ، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرا ، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم .

يوضحه أنك لا تجد أحدا عنى بالغناء وسماع آلاته ، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علما وعملا ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن ، عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال عن أن يسكت القارىء ، ويستطيل قراءته ، ويستزيد المغنى ، ويستقصر نوبته .

والكلام فى هذا مع من فى قلبه بعض حياة يحس بها ، فأما من مات قلبه ، وعظمت فتنته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة . ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾[1] .

الاسم الثانى والثالث : الزور ، واللغو .

قال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾[2] .

(١) المائدة : آية ٤١ .
(٢) الفرقان : آية ٧٢ .

قال محمد بن الحنفية : الزور ههنا الغناء ، وقاله ليث عن مجاهد : وقال الكلبى : لا يحضرون مجالس الباطل .

قال الزجاج : لا يجالسون أهل المعاصى ، ولا يمالئونهم عليها ، ومروا مر الكرام ، الذين لا يرضون باللغو ، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله .

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾[1] .

وقال ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾[2] .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ ولم يقل بالزور ، لأن (يشهدون) بمعنى يحضرون . فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور . فكيف بالتكلم به وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور . والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها ، كما فى حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال « هذا الزور » فالزور : القول ، والفعل ، والمحل .

وأصل اللفظة من الميل ، ومنه الزور ، بالفتح ، ومنه : زرت فلانا إذا ملت إليه ، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل ، الذى لا حقيقة له قولا وفعلا .

الاسم الرابع : الباطل .

والباطل : ضد الحق . قال ابن وهب : أخبرنى سليمان بن بلال عن كثير بن زيد ، أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد كيف ترى فى الغناء ؟ فقال له القاسم : هو باطل ، فقال : قد عرفت أنه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : أرأيت الباطل . أين هو ؟ قال : فى النار ، قال : فهو ذاك .

وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما : ما تقول فى الغناء ، أحلال هو أم حرام ؟ فقال :

(١) القصص : آية ٥٥ .
(٢) المؤمنون : الآيات ١ ـ ٣ .

لا أقول ذلك . ثم قال له : أرأيت الحق والباطل ، إذا جاء يوم القيامة : فأين يكون الغناء ؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل ، فقال له ابن عباس ، اذهب فقد أفتيت نفسك .

فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنهما عن غناء الأعراب ، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط ، والتشبيب بالأجنبيات ، وأصوات المعازف ، والآلات المطربات . فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك ، ولو شاهدوا هذا الغناء ، لقالوا فيه قول ، فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير ، وأعظم من فتنته .

فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة بإباحته ، فمن قاس هذا على غناء القوم ، فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والميتة على المذكاة ، والتحليل الملعون فاعله على النكاح ، الذي هو سنة رسول الله ﷺ .

وأما اسم المكاء والتصدية

فقال تعالى عن الكفار :

﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾[1] .

قال ابن عباس ، وابن عمر ، وعطية ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن وقتادة : المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق .

قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ، ويصفقون .

قال ابن عرفة ، وابن الانبارى : المكاء والتصدية ليسا من الصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية ، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار .

والمقصود : أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم ، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر ، بل

(١) الأنفال : آية ٣٥ .

أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ، لئلا يتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة ، وقرنوا به أنواعًا من المعاصي قولاً وفعلاً ؟ .

وأما تسميته رقية الزنا

فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه ، فليس في رقى الزنا أنجع منه ، وهذه التسمية ، معروفة عن الفضيل بن عياض . قال ابن أبي الدنيا : أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن ، قال : قال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا .

قال : وأخبرني محمد بن الفضل الأزدي ، قال : نزل الحطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة ، فلما جنه الليل سمع غناء ، فقال لصاحب المنزل ، كف هذا عني ، فقال : وما تكره من ذلك ؟ فقال : إن الغناء رائد من رادة الفجور ، ولا أحب أن تسمعه هذه ، يعني ابنته ، فإن كففته وإلا خرجت عنك .

فإذا كان الشاعر المفتون اللسان ، الذي هابت العرب هجاءه ، خاف عاقبة الغناء ، فما الظن بغيره ؟ ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء ، كما يجنبهن أسباب الريب ، ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنا ، فهو أعلم بالإثم الذي يستحقه .

ومن المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل ، اجتهد أن يسمعها صوت الغناء ، فحينئذ تعطي الليان . وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًا ، فإذا كان الصوت بالغناء ، صار انفعالها من وجهين ، من جهة الصوت ، ومن جهة معناه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه : « يا أنجشة ، رويدك ، رفقًا بالقوارير »[1] يعني النساء .

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف والشبابة ، والرقص بالتخنث والتكسر ، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حر أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا ، وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا ، وكم أهدى للمشغوف

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (باب رحمة النبي ﷺ بالنساء) جـ ٤ ص ١٨١١ رقم ٧٠/٢٣٢٣ .

به من أشجان وأحزان ، فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا ، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة ، وجلب من نقمة وذلك منه من إحدى العطايا ؟ وكم خبأ لأهله من آلام يتنظره ، وغموم متوقعة ، وهموم مستقبلة .

وأما تسميته منبت النفاق

فقال على بن الجعد ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « الغناء ينبت النفاق في القلب » .

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعا . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاهي .

قال بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل »[1] ... وفي رفعه نظر والموقوف أصح .

فإن قيل : فما وجه إنباته للنفاق في القلب من بين سائر المعاصي ؟

قيل : هذا من أول شيء على فقه الصحابة في أحوال القلوب وأعمالها . ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب ، دون المنحرفين عن طريقهم ، الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها ، فكانوا كالمداوى من السقم بالسم القاتل ، وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التي ركبوها أو بأكثرها . فاتفق قلة الأطباء ، وكثرة المرضى ، وحدوث أمراض مزمنة لم تكن في السلف ، والعدول عن الدواء النافع الذى ركب الشارع ، وميل المريض إلى ما يقوى مادة مرضه . فاشتد البلاء وتفاقم الأمر ، وامتلأت الدور ، والطرقات والأسواق ، من المرضى ، وقام كل جهول يطبب الناس ، فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ، ونباته فيه كنبات الزرع في الماء .

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره ، والعمل بما فيه ، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدا لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ، ومجانبة شهوات النفوس ، وأسباب الغي ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسنه ، ويهيج النفوس إلى شهوات الغي ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، جـ ١٠ ص ٢٢٣ كتاب الشهادات ، باب الرجل يتخذ الغناء صناعة يؤتى عليه ويأتى له ويكون منسوبا إليه مشهورا به معروفا أو المرأة .

ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح ، فهو والخمر رضيعا لبان ، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان ، فإنه صنو الخمر ورضيعه ، ونائبه وحليفه ، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ ، وأحكم بينهما الوفاء التي لا تنسخ ، وهواجس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ، يتغلغل في مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويدب إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة والرقاعة ، والرعونة والحماقة ، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار ، وبهاء العقل ، وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع إلى الغناء ومال إليه ، نقص عقله ، وقل حياؤه ، وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه ، وقال : يارب لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد ، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ، وأبدى من سره ما كان يكتمه ، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب ، والزهزهة والفرقعة بالأصابع ، فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الذباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا	على طيب السماع إلى الصباح ؟
ودارت بيننا كأس الأغاني	فأسكرت النفوس بغير راح
فلم تر فيهم إلا نشاوى	سرورا ، والسرور هناك صاح
إذا نادى أخو اللذات فيه	أجاب اللهو : حى على السماع
ولم نملك سوى المهجات شيئا	أرقناها لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق في قوم ، والعناد في قوم ، والكذب في قوم ، والفجور في قوم ، والرعونة في قوم .

وأكثر ما يورث عشق الصور ، واستحسان الفواحش ، وإدمانه يثقل القرآن على القلب ، ويكرهه إلى سماعه بالخاصية ، وإن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة .

وسر المسألة : أنه قرآن الشيطان ، كما سيأتى ، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب أبدا .

وأيضا فإن أساس النفاق ، أن يخالف الظاهر الباطن ، وصاحب الغناء بين أمرين :

أما أن ينتك ، فيكون فاجرًا ، أو يظهر النسك ، فيكون منافقًا ، فإنه يظهر الرغبة فى الله ورسوله من أصوات المعازف وآلات اللهو ، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه ، فقلبه بذلك معمور ، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله ، وكراهة ما يكرهه قفر ، وهذا محض النفاق .

وأيضًا : فإن الإيمان قول وعمل ، قول بالحق ، وعمل بالطاعة . وهذا ينبت على الذكر وتلاوة القرآن ، والنفاق قول بالباطل ، وعمل البغى ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضا ، فمن علامات النفاق ، قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، ونقر الصلاة ، وقل أن تجد مفتونا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضا : فإن النفاق مؤسس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ، فإنه يحسن القبيح ويزينه ويأمر به ، ويقبح الحسن ويزهد فيه ، وذلك عين النفاق .

وأيضا ، فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسس على ذلك .

وأيضا : فإن المنافق يفسد من حيث يظن أن يصلح ، كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين ، وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أن يصلحه . والمغنى يدعوا القلوب إلى فتنة الشهوات ، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات .

قال الضحاك : « الغناء مفسدة للقلب ، مسخطة للرب » .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق . وبالجملة فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن ، تبين له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته : قرآن الشيطان

فمأثور عن التابعين ....

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين ، قرنه بما يزينه من الألحان المطربة ، وآلات الملاهى والمعازف ، وأن يكون من امرأة جميلة ، أو صبى جميل ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرآنه ، وتعوضها به عن القرآن المجيد .

وأما تسميته : بالصوت الأحمق ، والصوت الفاجر .

فهى تسمية الصادق المصدق ، الذى لا ينطق عن الهوى .

فروى الترمذى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

« خرج رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه فوضعه فى حجره ففاضت عيناه ، فقال عبد الرحمن : أتبكى وأنت تنهى الناس ؟ قال : إنى لم أنه عن البكاء ، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة ، وهذا هو رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم ، لولا أنه حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا ، وإنا بك لمحزونون ، تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » قال الترمذى : هذا حديث حسن »[1] .

فانظر إلى هذا النهى المؤكد ، بتسميته صوت الغناء صوتًا أحمق ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى وصفه بالفجور ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى سماه من مزامير الشيطان ، وقد أقر النبى ﷺ أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزمور الشيطان ، فإن لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبدًا .

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله ﷺ وسماه صوتا أحمق فاجرًا ، ومزمور الشيطان ، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجا واحدًا ، ووصفهما بالحمق والفجور وصفًا واحدًا .

وقال الحسن : صوتان ملعونان : مزمار عند نغمة ، ورنة عند مصيبة .

وأما تسميته صوت الشيطان .

فقد قال الله تعالى للشيطان وحزبه : ﴿ اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الترمذى ، أبواب الجنائز ، باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت جـ ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ . هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الإسراء : الآيتان ٦٣ — ٦٤ .

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : عن ابن عباس : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : كل داع إلى معصية .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعى إلى المعصية ، ولهذا فسر صوت الشيطان به ، قال ابن أبى حاتم : عن مجاهد (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : استزل منهم من استطعت ..

قال : وصوته الغناء ، والباطل ...

وهذه الإضافة إضافة تشخيص ، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك . فكل متكلم بغير طاعة الله ، ومصوت بيراع أو مزمار ، أو دف حرام ، أو طبل ، فذلك صوت الشيطان ، وكل ساع فى معصية الله على قدميه ، فهو من رجله ، وكل راكب فى معصية الله فهو من خياليته ، كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : (رجله) : كل رجل مشت فى معصية الله . وقال قتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس .

وأما تسميته مزمور الشيطان .

ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخل علىّ النبى ﷺ وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى . قال : مزمار الشيطان عند النبى ﷺ ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا »[1] .

فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبى بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان ، وأقرهما لأنهما جاريتان غير مكلفتين ، بغناء الأعراب الذى قيل فى يوم حرب بعاث من الشجاعة والحروب . وكان اليوم يوم عيد ، فوسع حزب الشيطان فى ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية ، أو صبى أمرد صوته فتنة ، صورته فتنة ، يغنى بما يدعو إلى الزنى والفجور وشرب الخمور ، مع آلات اللهو التى حرمها رسول الله ﷺ فى عدة أحاديث . ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه فى الشجاعة ، ونحوها فى

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان لأبى عبد الله النيابورى كتاب صلاة العيدين رقم ٥١٣ ص ١٩٦ .

يوم عيد ، بغير شبابة ولا دف ، ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل ، نعم ، نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان فى بيت رسول الله ﷺ على ذلك الوجه ، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته بالسمود :

لقد قال الله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ .

قال عكرمة عن ابن عباس « السمود : الغناء فى لغة حمير » . يقال : اسْمُدى لنا ، أى غنى لنا ، وقال أبو زيد :

وكـأن العزيـف فيها غنـاء ... للندامى من شارب مسمود

قال أبو عبيدة : المسمود : الذى غنى له ، وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية .

وهذا لا يناقض ما قيل فى هذه الآية ، من أن السمود الغفلة والسهو عن الشىء ، قال المبرد : هو الاشتغال عن الشىء بهم أو فرح ، يتشاغل به ، وأنشد :

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الأنبارى : السامد اللاهى ، والسامد الساهى ، والسامد المتكبر ، والسامد القائم .

وقال ابن عباس فى الآية : وأنتم مستكبرون . وقال الضحاك : أشرون بطرون . وقال غيره : لاهون غافلون معرضون ، فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه .

فهذه أربعة عشر اسما سوى اسم الغناء .

أسماؤه دلت على أوصافه ... تبا لذى الأسماء والأوصاف

تفسير سورة القمر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : خمس وخمسون .

وكلماتها : ثلاثمائة واثنتان وأربعون .

وحروفها : ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون .

وفواصل آياتها كلها على حرف الراء .

وسميت سورة القمر : لاشتمالها على ذكر انشقاق القمر .

معظم مقصود السورة :

تخويف بهجوم القيامة ، والشكوى من عبادة أهل الضلالة ، وذلهم فى وقت البعث وقيام الساعة ، وخبر الطوفان ، وهلاك الأمم المختلفة ، وحديث العادين ونكبتهم بالنكباء ، وقصة ناقة صالح ، وإهلاك جبريل قومه بالصيحة ، وحديث قوم لوط وتماديهم فى العصبية ، وحديث فرعون ، وتعديه فى الجهالة ، وتقرير القضاء والقدر ، وإظهار علامة القيامة ، وبروز المتقين فى الجنة فى مقعد صدق ، ومقام القربة فى قوله تعالى : ﴿ مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

المتشابه من سورة القمر :

قصة نوح وعاد وثمود ولوط ، ذكر فى كل واحد منها من التخويف والتحذير ما حل بهم ، ليتعظ به حامل القرآن وتاليه ، ويعظ غيره ، وأعاد فى قصة عاد ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ مرتين ؛ لأن الأولى فى الدنيا ، والثانية فى العقبى ، كما قال فى هذه القصة : ﴿ لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾[1] وقيل : الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم ، والثانية لتحذير غيرهم بعد إهلاكهم .

(١) فصلت : آية ١٦ .

مناسبة السورة لما قبلها :

من وجوه

(١) مشاكلة آخر السورة لأول هذه ، فقد قال تعالى فى آخر سورة النجم : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قد فصلت ما جاء فى سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التى كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذى أشار عليه فى السابقة ، بقوله : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى ﴾ فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾

معانى المفردات

(اقتربت) أى دنت وقربت .

انشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين .

(آية) : أى دليلا على نبوتك .

(مستمر) : أى مطرد دائم .

﴿ أهواءهم ﴾ : أى ما زينه لهم الشيطان من الوساوس والأوهام .
﴿ مستقر ﴾ : أى منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة .
﴿ الأنباء ﴾ : أخبار القرون الماضية . وما حاق بهم من العذاب ، جزاء تكذيبهم للرسل ، واحدها نبأ .
﴿ بالغة ﴾ : أى واصلة غاية الإحكام والإبداع ، ﴿ تغنى ﴾ أى تفيد وتنفع .
﴿ النذر ﴾ : واحدهم نذير بمعنى منذر .
﴿ فتول عنهم ﴾ : أى لا تجادلهم ولا تحاجهم .
﴿ نكر ﴾ : أى أمر تنكره النفوس إذ لا عهد له بمثله .
﴿ خشعا ﴾ : واحدهم خاشع : أى ذليل .
﴿ والأجداث ﴾ : القبور .
﴿ مهطعين ﴾ : أى مسرعين منقادين .
﴿ عسير ﴾ : أى صعب شديد الهول .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[1] .

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، كما قال تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[2] . وكقوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾[3] . وكقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾[4] . قال العلامة ابن كثير : وقد وردت الأحاديث بذلك .

(١) سورة القمر : آية ٥ .
(٢) النحل : آية ١ .
(٣) الأنبياء : آية ١ .
(٤) النجم : آية ٥٧ .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر فقال : « ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى »[1] .

وروى أيضا عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »[2] . أخرجاه من حديث أبى حازم مسلمة بن دينار وقال الإمام أحمد بسنده عن وهب السوائى قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقنى »[3] . وجمع الأعشى بين السبابة والوسطى .

وقال أبو جعفر بن جرير بسنده عن أبى عبد الرحمن السلمى قال نزلنا المدائن ، فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبى وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، فقلت لأبى أيستبق الناس غدا ؟ فقال : يابنى إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق ، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة »[4] .

وقوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ أى وقد انشق القمر ، قال ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أى انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقال القرطبى : وعلى هذا الجمهور من العلماء ، ثبت ذلك فى الصحيح للبخارى وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس رضى الله عنهم .

وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت « اقتربت الساعة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ١١٦ ، وأخرجه أيضا تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٤٤٥ فى تفسير سورة القمر .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٣ ص ٢٢٢ ، وأخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قرب الساعة حـ ٤ ص ٢٢٦٨ ، رقم ٢١٥٠/١٣٢ .
(٣) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٤ ص ٣٠٩ .
(٤) أخرجه تفسير ابن كثير سورة القمر حـ ٧ ص ٤٤٧ .

وانشق القمر» إلى قوله « سحر مستمر »[1] . قال أبو عيسى الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، ولفظ البخارى عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعد ، وهو منتظر ، أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر وغيره .

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول ، أن القمر انشق بمكة وهو ظاهر التنزيل .

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر ، قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر فرقتين ، نصف على أبى قبيس ونصف على قعيقعان ؛ فقال لهم رسول الله ﷺ ، « إن فعلت تؤمنون » قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله ﷺ ينادى المشركين : « يافلان يافلان اشهدوا »[2] .

وفى حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا من سحر ابن أبى كبشة سحركم فاسألوا السفار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق فنزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا)[3] . أى أن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان (ويقولوا سحر مستمر) أى ذاهب من قولهم مر الشىء ، واستمر إذا ذهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد وغيرهم . وقال أبو العالية والضحاك :﴿ سحر مستمر ﴾ أى محكم قوى شديد ، وهى من المرة وهى القوة .

وقوله : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أى كذبوا الحق إذ جاءهم واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم ، من جهلهم وسخافة عقلهم . وقوله : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر ، وقال السدى : مستقر أى واقع .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أى ولقد جاءهم من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب ؛ مما يتلى عليهم فى هذا القرآن ، ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب .

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٦ ص ١٢٨ فى تفسير سورة القمر . وأخرجه أيضا تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥٠ فى تفسير سورة القمر
(٢) أخرجه تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥٠ تفسير سورة القمر .
(٣) أخرجه تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥١ تفسير سورة القمر .

وقوله تعالى : ﴿ حكمة بالغة ﴾ أى حكمة بالغة فى هدايته تعالى لمن هداه ، وضلاله لمن أضله . (فما تغنى النذر) يعنى أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ؟ فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ قال ابن كثير الآية كقوله تعالى : ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾[1] . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[2] .

بحث فى معجزات الرسول ﷺ

إن قدرة الإنسان محدودة بما حدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعة الإنسان وإلا فلا ، فالإنسان مثلا يستطيع إذا توافر لديه أكسجين وهيدروجين ، والأدوات اللازمة لإحداث التفاعل بينهما ، أن يصنع منهما ماء ، فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكترونات وبروتونات النحاس ، فيصبح النحاس ذهبا ، إذا توافرت لذلك شروط وأدوات معينة ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهبا من لا شىء ، إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات ، يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنســـان محدودة ضمن قوانين هذا الكون ، ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن ما يعرف به الإنسان أن رسول الله ﷺ هو أن تظهر معه آثار قدرة الله ، فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون ، مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله ، بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله ، وتقوم بذلك حجة الله على خلقه ، بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق فى دعوى الرسالة ؛ ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول ـــ ﷺ ـــ تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا ، إذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدة فى إقامة الحجة .

---

(١) الأنعام : آية ١٤٩
(٢) يونس : آية ١٠١

ولم يوجد رسول أبدًا فى تاريخ العالم ، كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتًا تاريخيًا ، يتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد — ﷺ — فإن معايير النقد التى وضعها علماء المسلمين ، لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله — ﷺ — ما وصل إليها العالم قط ، ولا يرق إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخيًا ، يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة ، مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر ، تحيط بكل الأوضاع ، مما لا يبقى ريبًا لمرتاب ، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله ، وهذه نماذج من هذه الوقائعات ، التى لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ ، مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله ، وبها قامت الحجة على خلق الله فى كل العصور ، هى القرآن الكريم . (مستفاد من كتاب « الرسول » للشيخ سعيد حوى)

انشقاق القمر

قال القاضى أبى الفضل عياض اليحصبى فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » ما ملخصه :

قال الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه : أخبرنا الحسين عن محمد الحافظ من كتابه حدثنا القاضى سراج بن عبد الله حدثنا الأصيلى حدثنا المروزى حدثنا الفربرى حدثنا البخارى حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ ، اشهدوا وفى رواية مجاهد ونحن مع النبى ﷺ ؛ وفى بعض طرق الأعمش بمنًى ، ورواه أيضا عن ابن مسعود الأسود وقال حتى رأيت الجبل بين فرجتى القمر ، ورواه عنه مسروق أنه كان بمكة ، وزاد فقال قريش : سحركم ابن أبى كبشة فقال رجل منهم : إن محمدا إن كان سحر القمر ، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك[1] .

وعن أنس سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين ، حتى رأوا

(١) أخرجه تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٥٠ ، من تفسير سورة القمر .

... ، والآية مصرحة ، ...

حراء بينهما ؛ رواه عن أنس قتادة ... وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة ... إلى اعتراض مخذول ، بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شىء ظاهر لجميعهم ، إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة ، فلم يره انشق ، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب ، لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض ، وفى بعضها جزئية ، وفى بعضها كلية ، وفى بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، وآية القمر كانت ليلا ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا ، إلا من رصد ذلك واهتبل به ، ولذلك يكون الكسوف القمرى كثيرا فى الليل وأكثر الناس لا يعلم به حتى يخبر ، وكثيرًا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها ، من أنوار ونجوم طوالع عظام ، تظهر فى الأحيان بالليل فى السماء ولا علم عند أحد منها .

نبع الماء بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته

أما الأحاديث فى هذا فكثيراً جداً ، روى حديث نبع الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود . فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ ، وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه . فأتى رسول الله ﷺ بوضوء ، فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس ، حتى آخرهم ، ورواه أيضا عن أنس قتادة وقال بإناء فيه ماء يغمر أصابعه ، أو لا يكاد يغمر . قال : كم كنتم ؟ قال : زهاء ثلاثمائة ، وفى رواية وهم بالزوراء عند السوق ، ورواه أيضا حميد وثابت والحسن عن أنس وفى رواية حميد قلت لكم كانوا ثمانين رجلا ونحوه عن ثابت وعنه أيضا وهم نحو من سبعين رجلا . وأما ابن مسعود ففى الصحيح من رواية علقمة عنه ، بينما نحن مع رسول الله ﷺ : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ . (أخرجه الشيخان)[1] .

وفى الصحيح عن جابر رضى الله عنه عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٣ ص ١٣٢ ، ١٤٧ ، ١٧٠ ، ٢١٥ .

فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون وفيه قلت : كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشر مائة[1] ، وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط قال : قال لي رسول الله ﷺ : ياجابر ناد الرضوء، وذكر الحديث بطوله ، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب . (فم المزادة الأسفل) فأتى به النبي ﷺ فغمزه ، وتكلم بشيء لا أدري ما هو ، وقال ناد بجفنة الركب فأتيت ، نوضعتها بين يديه ، وذكر أن النبي ﷺ ، بسط يده في الجفنة وفرّق أصابعه وصب جابر عليه ، وقال بسم الله قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة واستدارت ، حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء ، فاستقوا حتى رووا ، فقلت : هل بقى أحد له حاجة ، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[2] .

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعاثه بمسه ودعوته .

فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تبض (أي : تسيل قليلا) بشيء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، وأعاده فيها ، فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس ، قال في حديث ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال : يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مُلِيء جناناً[3] .

وأخرج مسلم عن أبي قتادة ، أن النبي ﷺ ، كان في سفر فأسرى ، ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره ، فدعا بميضأة (إناء يوضع فيه الماء) كانت معي فيها شيء من ماء فتوضأ منها ثم قال : احفظ علينا ميضأتك ، فسيكون لها نبأ ، فسار حتى امتد النهار ، فقال الناس : هلكنا وعطشنا فقال لا هلك عليكم ، ثم قال : انطلقوا إلى عمري يعني القدح الصغير ، فدعا بالميضأة ، فجعل النبي ﷺ ، يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فقال النبي ﷺ : أحسنوا الملء ، كلكم سيروى .. حتى ما بقى أحد[4] .

(1) أخرجه صحيح مسلم حـ ٤ ص ١٣٠٨ رقم ٧٤ / ٣٠١٢ كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل .
(2) رواه مسلم حـ ٤ ص ٢٣٠٧ كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر رقم ٣٠١٣ .
(3) أخرجه مالك في موطأه كتاب قصر الصلاة في السفر حـ ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ رقم ١ .
(4) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها . ١ ص ٤٧١ ، ٤٧٣ رقم ١٣٣ / ٦٨١ . مطولا .

ومن معجزاته ﷺ تكثير الطعام ببركته ودعائه

روى مسلم عن جابر ، أن رجلا أتى النبي ـ ﷺ ـ يستطعمه ، فأطعمه شطر وسق شعير (الوسق مقدار ستين صاعا) فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله ، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره ، فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم » .

(فلقد استمر أكلهم منه من غير نقص شيء منه إلى أن كاله ، فظهر نقصه بعد الكيل مما يأخذ منه ، فكانت البركة في ترك كيله ، حتى لو لم يكله لم ينفد مدة حياتهم)[1] .

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور ـ القصة في صحيح البخاري ـ وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده ؛ أي إبطه ؛ فأمر بها ففتت ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول[2] .

وحديث جابر في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق (العناق الأنثى من أولاد المعز ، لم يتم لها سنة) .

وقال جابر : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا (أي انصرفوا) وإن برمتنا لتغط كما هي (أي تغلى غليانا شديدا) وإن عجيننا ليخبز . (أي أنهم استمروا على خبز العجين وإيصاله شيئا فشيئا لمن يأكل منه ، ولم ينقص ببركة النبي ﷺ)[3] . رواه البخاري .

وحديث أبي أيوب (رواه عنه الطبراني ، والبيهقي) أنه صنع لرسول الله ـ ﷺ ـ ولأبي بكر طعاما زهاء (أي مقدار) ما يكفيهما ؛ فقال له النبي ـ ﷺ ـ : ادع ثلاثين من أشراف الأنصار ؛ فدعاهم فأكلوا حتى تركوا ؛ ثم قال : ادع ستين ؛ فكان مثل ذلك ؛ ثم قال : ادع سبعين فأكلوا حتى تركوا ، وما خرج منهم أحد حتى أسلم ، وبايع .

(1) أخرجه مسلم حـ ٤ ص ١٧٨٤ كتاب الفضائل ، باب في معجزات النبي ﷺ ٩ / ٢٢٨١ .
(2) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب علامات النبوة حـ ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ط الشعب ، وكذلك في كتاب الأطعمة .
(3) انظر صحيح البخاري ، باب غزوة الخندق ، حـ ٥ ص ١٣١ فقد ورد الحديث من رواية جابر ، وانظر ص ١٣٨ فقد ورد عن جابر رواية أخرى .

قال أبو أيوب : فأكل من طعامى مائة وثمانون رجلا[1] .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى ، عن أبيه ، ومثله لسلمة بن الأكوع ، وأبى هريرة ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذكروا مخمصة (الجوع ، والمجاعة) أصابت الناس مع النبى ﷺ — فى بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد (أى : طلب من كل رجل منهم أن يأتى بما بقى عنده من زاده) ، فجاء الرجل بالحثية من الطعام ، (أى : ما يملأ اليدين معًا) ، وفوق ذلك ، وأعلاهم الذى أتى بالصاع من التمر ، فجمعه على نطع . (وهو بساط من جلد) .

قال سلمة : فحزرته كربضة العنز (أى قدرته كمقدار حجم عنز باركة على الأرض) ، ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملئوه وبقى منه . (رواه ابن سعد ، والبيهقى ، وصححاه)[2] .

وعن أبى هريرة : أمرنى النبى ﷺ أن أدعو له أهل الصفة . (وهم فقراء الصحابة الأغراب وغيرهم) فتتبعتهم حتى جمعتهم ، فوضعت بين أيدينا صفحة ، (إناء بين الصغير والكبير يعد للطعام) فأكلنا ما شئنا ، وفرغنا وهى مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع . (رواه ابن أبى شيبة والطبرانى بسند صحيح)[3] .

ومنه حديث أبى هريرة حين أصابه الجوع ، فاستتبعه النبى ﷺ ، فوجد لبنا فى قدح قد أهدى إليه ، وأمره أن يدعو أهل الصفة . قال : فقلت : ما هذا اللبن فيهم ؟ (أى ما مقداره القليل كاف لهم) .

كنت أحق أن أصيب منه شربة ، أتقوى بها . فدعوتهم . وذكر أمر النبى — ﷺ — له أن يسقيهم ، فجعلت أعطى الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يأخذه الآخر ، حتى روى جميعهم ، قال : فأخذ النبى — ﷺ — القدح ، وقال : بقيت أنا وأنت اقعد فاشرب ، فشربت ، ثم قال : اشرب ، ومازال يقولها وأشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكا (أى لم يبق لى جوف محلا خاليا يدخله) ، فأخذ القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .[4]

(1) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد . جـ ٨ ص ٣٠٣ . باب معجزته — ﷺ — فى الطعام وبركته فيه . وقال الهيثمى . رواه الطبرانى وفى إسناده من لم أعرفه .

(2) أخرجه صحيح مسلم فى كتاب اللقطة باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت جـ ٣ ص ١٣٥٤ رقم ١٩ / ١٧٢٩ .

(3) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه جـ ١١ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ ، رقم ١١٧٥٧ كتاب الفضائل باب ما أعطى الله تعالى محمد ﷺ .

(4) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٨ ص ١٢٠ كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النبى ﷺ .

وفى حديث أنس : تزوج رسول الله ﷺ ، فصنعت أمى أم سليم حيسًا ، فجعلته فى تور (الحيس : طعام من لبن وأقط وتمر وسمن يخاس ، أى يخلط بعضه ببعض ، والتور : إناء من حجارة واسع) . فذهبت به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ضعه ، وادع لى فلانًا وفلانًا ، ومن لقيت . فدعوتهم ، ولم أدع أحدًا لقيته إلا دعوته ، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملئوا الصفة والحجرة ، فقال لهم النبى ﷺ تحلقوا عشرة عشرة ، ووضع النبى ﷺ يده على الطعام فدعا فيه ، وقال ما شاء الله أن يقول ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، فقال لى : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت[1] ، (سنن الترمذى) .

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة فى الصحيح ، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل ، بضعة عشر من الصحابة ، رواه عنهم أضعافهم من التابعين ، ثم من لا يعد بعدهم .

كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

عن ابن عمر . كنا مع رسول الله ﷺ فى سفرة ، فدنا منه أعرابى ، فقال : يا أعرابى ، أين تريد ؟ قال : إلى أهلى قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . قال : من يشهد لك على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة السمرة (السمرة : شجرة عظيمة ذات شوك) ، وهى بشاطئ الوادى وادعها فإنها تجيبك فأقبلت تخد الأرض (أى تشقها) حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثًا ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها[2] . (رواه البيهقى ، والبزار ، والدرامى مسندًا عن ابن عمر) .

وفى صحيح مسلم فى حديث جابر بن عبد الله الطويل : ذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، فلم ير شيئا يستتر به ، فإذا بشجرتين فى شاطئ الوادى ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال : انقادى على بإذن الله ؛ فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده ، وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما ، قال : التئما على بإذن الله ؛ فالتأمتا .

(1) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٢٥٥ ، أبواب المناقب ، باب ٣٠ ، أنظر صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب الهدية للعروس . جـ ٧ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ط الشعب .

(ومعنى انقادى علىّ : أى طاوعينى وميلى علىّ ، ومعنى كالبعير المخشوش : المخشوش : الذى يوضع فى أنفه خشاش يذلل به ، ومعنى يصانع قائده : المراد به اللاينة وسهولة الانقياد . والمنصف : أى وسط المكان)[١] .

وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ مثله فى غزاة حنين .

وروى مسلم عن ابن مسعود : أن الجن قالوا : من يشهد لك ؟ قال : هذه الشجرة . تعالى ياشجرة ؛ فجاءت تجر عروقها لها قعاقع (حكاية صوت الحركة من الأجرام الصلبة)[٢] .

وبعد أن أورد القاضى أبو الفضل روايات أخرى قال : فهذا ابن عمر وبريدة وجابر وابن مسعود ، ويعلى بن مرة ، وأسامة بن يزيد وأنس بن مالك وعلى بن أبى طالب وابن عباس وغيرهم — قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها .

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم ؛ فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى ، أى صارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ ، قال لأعرابى : أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فدعاه فجعل ينقز حتى أتاه (أى يثب صعدا) فقال ارجع ، فعاد إلى مكانه[٣] (رواه البخارى فى تاريخه ، والدرامى والبيهقى مسندًا . وأخرجه الترمذى وقال حديث صحيح) .

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ، باب حديث جابر الطويل ، وقصة أبى اليسر جـ ٤ ص ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٧ ، رقم ٣٠١٢/٧ .
(٢) أخرجه تفسير القرطبى فى كتاب الجامع لأحكام القرآن جـ ١٩ ص ١ — ٠٥ من تفسير سورة الجن آية ٣ .
(٣) أخرجه الترمذى ، حديث رقم ٣٧٠٧ ، جـ ٥ ص ٢٥٤ أبواب المناقب ، باب ٢٨ .

فصل
فى قصة حنين الجذع

ويعضد هذه الأخبار أحاديث أنين الجذع ، وهو فى نفسه مشهور منتشر ، والخبرية متواتر ، قد خرجه أهل الصحيح — كالبخارى ومسلم — ورواه من الصحابة بضعة عشر ، وابن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريد ، وأم سلمة ، والمطلب بن أبى وداعة . كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث .

قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل ؛ فكان النبى ﷺ ، إذا خطب يقوم إلى جذع منها (أى يقوم مستندًا) فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار . (العشار الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر ، والمراد خوارها حين وضعها أو عقبه ، راعها لولدها إذا لم تره) .

وفى رواية أنس حتى ارتج المسجد بخواره .

وفى رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوا به .

وفى رواية المطلب وأبى : حتى تصدع وانشق ، حتى جاء النبى ﷺ ، فوضع يده عليه فسكت .

زاد غيره : فقال النبى ﷺ : إن هذا بكى لما فقد من الذكر .

وزاد غيره : والذى نفسى بيده ، لو لم ألتزمه (أى أضمه) لم يزل هكذا إلى يوم القيامة ؛ تحزنا على رسول الله ﷺ ؛ فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر[١] .

فكان الحسن البصرى ، إذا حدث بهذا بكى ، وقال : ياعباد الله الخشبة (يريد هنا الجذع) تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه ؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الفضائل باب علامات النبوة جـ ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . ط الشعب . انظر سنن الترمذى . جـ ٥ ص ٢٥٤ . أبواب المناقب . باب ٢٨ .

قال القاضي : ومثل هذا في سائر الجمادات .

عن ابن مسعود قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي رواية أخرى له : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه[1] . (رواه البخاري) (والرواية الأخرى رواها الترمذي) .

وقال أنس : أخذ النبي ﷺ كفا من حصى ، فسبحن في يد رسول الله ﷺ ، حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر — رضي الله عنه — فسبحن ، ثم في أيدينا فما سبحن . (أخرجه ابن عساكر في تاريخه) .

وروى مثله أبو ذر ، وذكر أنهن سبحن في كف عمر وعثمان . (رواه الطبراني والبيهقي والبزار)[2] .

وقال علي كنا بمكة مع رسول الله ﷺ ، فخرج إلى بعض نواحيها ، فما استقبله شجرة ولا جبل ، إلا قال له : السلام عليك يارسول الله . (رواه الترمذي . بسند صحيح)[3] .

وعن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم علي ، قيل : إنه الحجر الأسود[4] . (رواه مسلم والترمذي) .

وعن عائشة رضي الله عنها : لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة ، جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله . (في حديث صحيح رواه البزار في مسنده) .

وعن جابر بن عبد الله : لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له . (رواه البيهقي)[5] .

---

(١) أخرجه البخاري حـ ١ ص ٢٣٥ . باب علامات النبوة .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩٨ ، ١٩٩ . باب تسبيح الحصى وقال الهيثمي : رواه البزار والطبراني في الأوسط .

(٣) أخرجه الترمذي : حـ ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٢٧ . وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة حـ ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢ / ٢٧٧ . انظر سنن الترمذي . حـ ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٦ ط .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٦٠ كتاب علامات النبوة . باب تسليم الحجر والشجر عليه .

وعن ابن عباس : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ؛ فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم ، (أخرجه الشيخان ، والبزار ، والطبراني أبو يعلى عن جابر وابن مسعود والحديث في مسند الطيالسي)[1] .

فصل
في الآيات في ضروب الحيوانات

قال القاضي عياض بسنده عن مجاهد عن عائشة : رضي الله عنها ، قالت : كان عندي داجن ، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ ، قر وثبت مكانه ؛ فلم يجيء ، ولم يذهب ، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب[2] .

(ومعنى داجن : شاة تألف البيوت وتعلف فيها ، وتطلق على غيرها من الحيوانات التي تربى في البيوت ، ومعنى قر وثبت مكانه : وقف في مكانه لا يتحرك) .

روى عن عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضبا ، فقال : من هذا ؟ قالوا : نبي الله . فقال : واللات والعزى ، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب ، وطرحه بين يدي النبي ﷺ ؛ فقال النبي ﷺ . ياضب ؛ فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك يازين من وافى القيامة . قال : من تعبد ؟ قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عقابه . قال : فمن أنا ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك . فأسلم الأعرابي[3] . (رواه الطبراني ، والبيهقي) .

---

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حـ ٢ ص ٩٤ رقم الحديث ١١٦٦ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة . وذكره تفسير ابن كثير تفسير سورة الإسراء آية ٨١ حـ ٥ ص ١٠٩ .

(٢) انظر الشفاء للقاضي عياض . الباب الرابع ، فيما أظهره الله على يديه من المعجزات . فصل في الآيات في ضروب الحيوانات حـ ١ ص ٣٠٩ . ط دار الفكر .

(٣) رواه مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، باب شهادة الضب بنبوته ﷺ .

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبى سعيد الخدرى : بينا راع يرعى غنمًا له ، عرض الذئب لشاة منها ، فأخذها الراعى منه ، فأقعى الذئب وقال للراعى : ألا تتقى الله ! حلت بينى وبين رزق ! قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله بين الحرّتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق . فأتى الراعى النبى ﷺ ، فأخبره فقال النبى : قم فحدثهم ، ثم قال : صدق ، والحديث فيه قصة وفى بعضه طول . (رواها أحمد ، والبزار ، والبيهقى)[1] .

(ومعنى رسول الله بين الحرتين المقصود بالمدينة فالحرة : ثنية مرتفعة ذات حجارة سود والحرتان بالمدينة) .

ومن هذا الباب ما روى من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، ومعه كتابه ، فهمهم وتنحى عن الطريق ، وذكر فى منصرفه مثل ذلك .

(أخرجه البيهقى أنه وقع لسفينة حين ضل عن الجيش بأرض الروم ، وذكره البخارى فى تاريخه) .

وفى رواية أخرى عنه — أن سفينة تكسرت به ، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد ، فقلت له : أنا مولى رسول الله ﷺ ، فجعل يغمزنى بمنكبه حتى أقامنى على الطريق .

(هذه الرواية هى التى رواها البيهقى والبزار وصححها السيوطى فى تخريجه) .

ثم قال القاضى : والحديث فى هذا الباب كثير ، وقد جئنا منه بالمشهور ، وما وقع فى كتب الأئمة .

(١) أخرجه الإمام أحمد جـ ٣ ص ٨٣ — ٨٤ ، مقطور الحديث من رواية أبى سعيد . انظر مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٢٩١ . باب إخبار الذئب بنبوته ﷺ .

ومن معجزاته
إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن يهودية أهدت للنبى ﷺ شاة مصلية سمتها ، فأكل رسول الله — ﷺ — منها ، وأكل القوم ، فقال ﷺ : ارفعوا أيديكم ، فإنها أخبرتنى أنها مسمومة . فمات بشرين البراء . وقال لليهودية : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : إن كنت نبيا لم يضرك الذى صنعت ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك . قال : فأمر بها فقتلت . (رواه أبو داود مسندا إلى أبى هريرة) .

(ومعنى مصلية : أى مشوية ، سمتها : وضعت فيها السم) .

وقد روى هذا الحديث أنس ، وفيه : قالت : أردت قتلك . فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك ، فقالوا : نقتلها ؟ قال : لا .

ورواه أيضا جابر بن عبد الله وفيه : أخبرتنى هذه الذراع . قال : ولم يعاقبها .

وفى حديث أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : فى وجعه الذى مات فيه : مازالت أكلة خيبر تعادنى ، فالآن أوان قطعت أبهرى . (رواه ابن سعد بسند صحيح) .

وحكى ابن إسحاق : إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة .

ومعنى تعادنى : تعود إلىّ مرة بعد مرة فى أوقات معلومة . والأبهر : عرق كبير متصل بالقلب ، وقيل : العرق الذى فى وسط الظهر ، إذا انقطع لا يتصور معه حياة ، ومات شهيدا : أى بسم الشاة .

وقال ابن سحنون : أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التى سمته (وحديث الشاة المسمومة فى سنن أبى داود ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وطبقات ابن سعد)[1] .

(١) أخرجه أبو داود جـ ٤ ص ٦٥٠ رقم ٤٥١٢ ، كتاب الديات ، باب من سقى رجلا سما أو أطعمه فمات . وانظر صحيح البخارى ، كتاب فضل الجهاد والسير ، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم ، جـ ٤ ص ١٢١ فقد ورد حديث أبى هريرة فى هذا .

قال القاضي عياض : وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح وخرجه الأئمة ، وهو حديث مشهور .

وروى عن سمر بن عطية أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط ؛ فقال : من أنا : فقال رسول الله . (رواه البيهقي في دلائل النبوة) .

وهو حديث مبارك اليمامة ، ويعرف بحديث شاصونة ، اسم روايه ، وفيه فقال له النبي ﷺ : صدقت ، بارك الله فيك ، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب ، فكان يسمى مبارك اليمامة .. وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع .

ومن معجزاته ﷺ
إبراء المرضى وذوى العاهات

عن محمد بن إسحاق ، حدثنا ابن شهاب ، وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بغزوة أحد بطولها ؛ قال وقالوا : قال سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ ليناولني السهم لا نصل له، فيقول ارم به ؛ وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت ، واصيب يومئذ عين قتادة — يعني ابن النعمان — حتى وقعت على وجنتيه ، فردها رسول الله ﷺ ؛ فكانت أحسن عينيه[1] . (هذا الجزء في سيرة ابن هشام ورواه البيهقي) .

وروى النسائي والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه أن أعمى قال يارسول الله ؛ ادع الله أن يكشف لي عن بصرى . قال : فانطلق فتوضأ : ثم صل ركعتين ؛ ثم قال : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبى محمد نبى الرحمة ؛ يامحمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى ، اللهم شفعه فى . قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره[2] . (ومعنى أتوجه بك إلى ربك : أى بدعائك لى فكان توسله بدعاء النبي له ﷺ) .

---

(١) أخرجه مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩٧ . باب رده البصر ﷺ .
(٢) أخرجه الحاكم حـ ١ ص ٥٢٦ كتاب الدعاء — باب دعاء رد البصر . وأخرجه أيضا ابن ماجة فى كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء فى صلاة الحاجة حـ ١ ص ٤٤١ رقم ١٣٨٥ عن عثمان بن حنيف .

وتفل فى عينى على ابن أبى طالب يوم خيبر ، وكان رمدا فأصبح بارئا[1] .. (رواه البخارى ومسلم) .

ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت . (رواه البخارى) .

ونفث فى رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب ، حين قتل ابن الأشرف ، فبرئت . وعلى ساق على بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت ، فبرىء مكانه ، وما نزل عن فرسه . (أخرجه البنوى فى معجمه كما قال السيوطى فى نسيم الرياض ٣ — ١١٨) .

وعن ابن عباس : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره ، فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ؛ فشفى .

(فثع : أى قاء ، والجرو : ولد الكلب والسبع) والحديث رواه أحمد فى مسنده بسند متصل بابن عباس وكذلك رواه البيهقى وابن أبى شيبة[3] .

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل ، فمسح عليه ودعا له وتفل فيه لبرأ لحينه . (رواه البيهقى ، والنسائى والطيالسى ، مسندا مصححا فيه) .

ومن معجزاته ﷺ
(إجابة دعائه ﷺ)

وهذا باب واسع جدا ، وإجابة دعوة النبى ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة ، معلوم ضرورة . وقد جاء فى حديث حذيفة رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده . (رواه أحمد فى مسنده) .

---

(١) أخرجه البخارى فى « أبواب الغزوات » غزوة خيبر حـ ٥ ص ١٧١ فقد ورد الحديث من رواية سهل بن سعد .
(٢) أخرجه البخارى فى « أبواب الغزوات » « باب غزوة خيبر » حـ ٥ ص ١٧٠ فقد ورد الحديث عن يزيد بن أبى عبيد .
(٣) انظر مجمع الزوائد باب طاعة الجن لرسول الله ﷺ . حـ ٨ ص ٢ . وقال الهيثمى رواه أحمد والطبرانى . وفيه فرقد السبخى وثقه ابن معين والعجلى وضعفه غيرها .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال قالت أمى : يا رسول الله ، خادمك أنس ، ادع الله له . قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما آتيته (رواه البخارى)[١] .

ومن رواية عكرمة : قال أنس : فو الله ، إن مالى لكثير ، وإن ولدى وولد ولدى ليعادُّون اليوم على نحو المائة .[٢] (اخرجه مسلم) .

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً .... (رواه البيهقى) .

ودعا بعز الاسلام بعمر رضى الله عنه ، أو بأبى جهل ، فاستجيب له فى عمر . قال ابن مسعود رضى الله عنه : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وأصاب الناس فى بعض مغازيه عطش ، فسأله عمر الدعاء ، فدعا فجاءت سحابة ، فسقتهم حاجتهم ، ثم أقلعت (رواه البيهقى والحاكم وصححه عن عمر) .

ودعا فى الاستسقاء ، فسقوا ، ثم شكوا إليه المطر ، فدعا فصحوا (أى صحت السماء وانكشف غيمها ، والحديث فى صحيح البخارى ومسلم)[٣] .

ودعا لابن عباس : اللهم فقهه فى الدين ، وعلّمه التأويل . فسُمى بعد الحبر وترجمان القرآن . (والحديث رواه الشيخان)[٤] .

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صفقة يمينه (أى : فى بيعه وشرائه) فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه (رواه البيهقى) .

ودعا بمثله لعروة بن أبى الجعد ، فقال : لقد كنت أقوم بالكناسة ، (أى القمامة) فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً (رواه البخارى) .

(١) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه ج ٨ ص ٩٣ كتاب الدعوات باب دعوة النبى ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله .
واخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ١٤١ / ٢٤٨٠ .
(٢) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ١٤٣ / ٢٤٨٠ .
— اخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء ص ١٩٧ — ١٩٨ رقم ٥١٧ .
— رواه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما رقم ١٣٨ / ٢٤٧٧ .

وقال البخارى فى حديثه : فكان لو اشترى التراب ربح فيه .

ودعا على مُضر فأقحطوا ، حتى استعطفته قريش ، فدعا لهم فسقوا .[١] (والحديث فى صحيح البخارى ومسلم) .

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه ، فلم تبق له باقية ، ولا بقيت لفارس رياسة فى أقطار الدنيا . (والحديث رواه الشيخان عن ابن عباس) .[٢]

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به .

ومن معجزاته ﷺ
ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون فى المستقبل

والأحاديث فى هذا الباب بحر لا يدرك قعره ، ولا ينزف غمره .

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر ، لكثرة رواتها ، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب :

عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ، مقاماً فما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه . (رواه مسلم)[٣] .

(وفى رواية أبى داود)

ثم قال حذيفة ما أدرى ، أنسى أصحابى أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة ، إلى أن تنقضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً ، إلا قد سماه لنا باسمه ، واسم أبيه ، وقبيلته .

(١) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب باب علامات النبوة ج ١ ص ٢٥٦ .
(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ج ٤ ص ٢٢٢٦ ، ٢٢٣٢ رقم ٧٥ / ٧٦ — ٢٩١٨ .
(٣) اخرجه أبو داود فى سننه ج ١ ص ٤٤١ رقم ٤٢١٠ كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها .
واخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٢١٧ رقم ٢٢ / ٢٨٩١ كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اخبار النبى ﷺ .

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه فى السماء ، إلا ذكرنا منه عِلْمًا . (رواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند صحيح)[1] .

(ومعنى إلا ذكرنا منه عِلْمًا : أى تذكرنا وفهمنا من طيرانه ، علماً يتعلق به ، فكيف بغيره مما يهمنا فى الأرض) .

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه ﷺ ، مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس ، واليمن ، والشام ، والعراق ، وظهور الأمن ، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ، وأن المدينة ستغزى وتفتح خيبر على يدى على فى غد يومه ، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى ، وقيصر ، وما تحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قبلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، وأنها ستكون لهم أنماط (جمع نمط وهو البساط والمراد التوسع فى الدنيا) يغدو أحدهم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه صحفة ، وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة .

ثم قال آخر الحديث (الذى رواه الترمذى وغيره وحسنه) : وأنتم اليوم خير منكم يومئذ ، وأنهم إذا مشوا المطيطاء (مشية فيها مد اليدين ، والمراد به التبختر) وخدمتهم بنات فارس والروم ، رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم .

وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس ، وتقارب الزمان ، وقبض العلم ، وظهور الفتن والهرج . (رواه مسلم) .

وقال : ويل للعرب من شر قد اقترب . (رواه الشيخان)[2] .

وأنه زويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها (والحديث فى صحيح مسلم) .

وكذلك كان ، امتدت فى المشارق والمغارب مما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجه حيث لا عمارة وراءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ولم تمتد فى الجنوب ولا فى الشمال مثل ذلك .

(١) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٥٣ ، ص ١٦٢ .
(٢) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق باب قصة يأجوج ومأجوج ج ٤ ص ١٦٨ ، ص ٢٤١ باب علامات النبوة .

وقال : يكون فى ثقيف كذاب ومبير ، فرأوهما : الحجاج ، والمختار وأن مسيلمة يعقره الله[1] . (والحديث فى الصحيح البخارى ومسلم) .

وان فاطمة أول أهله لحوقاً به .[2] (الحديث فى صحيح مسلم) .

وأنذر بالردة ، وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكاً ، فكانت كذه مدة الحسن بن على[3] (والحديث مما رواه الشيخان عن ابن عمر) ، وقال : لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه[4] (الحديث فى البخارى) .

.... إلى ما أخبر به من الحوادث التى تكون ولم يأت بعد ، منها ما ظهرت مقدماتها ، كقوله : عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة ، فتح القسطنطينية (وبقية الحديث — كما فى سنن أبى داود) ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ، ثم ضرب بيده على فخذ الذى حدث أو منكبه ، ثم قال : إن هذا لحق كما أنك ها هنا ، أو كما أنك قاعد — يعنى معاذ بن جبل) إلى ما أخبر به من أشراط الساعة وآيات حلولها ، وذكر النشر والحشر ، وأخبار الأبرار والفجار ، والجنة والنار وعرصات القيامة .

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشمل على أجزاء وحده ، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التى ذكرنا كفاية ، وأكثرها فى الصحيح وعند الأئمة . انتهى البحث . (من كتاب الشفا للقاضى عياض) .

إرشاد وتحذير

قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

(١) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٤ .
(٢) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبى ج ٤ ص ١٩٠٥ رقم ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ / ٢٢٤٥٠ .
(٣) أبى داود فى سننه فى كتاب السنة باب فى الخلفاء ج ٥ ص ٣٦ رقم ٤٦٤٦ ورواه مسند الامام أحمد ج ٥ ص ١٢٠ .
(٤) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٣٢ .

ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

معانى المفردات

(وازدجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف .

(فانتصر) أى فانتقم لى منهم . (منهمر) كثير . (فالتقى الماء) أى ماء السماء وماء الأرض . (على أمر) أى على حال . (قد قدر) أى قد قدره الله فى الأزل (ذات ألواح) أى ذات خشب عريضة ، (دسر) أى مسامير ، (بأعيننا) المراد بحراستنا وحفظنا ، (تركناها) أى أبقينا السفينة . (آية) أى علامة ودليلا ، (مدكر) أى متذكر ومعتبر ، (نذر) واحدها نذير بمعنى إنذار . (يسرنا) أى سهلنا ، (للذكر) أى للعظة والاعتبار . (مدكر) أى متعظ بمواعظه .

(الريح الصرصر) الباردة أشد البرد . (النحس) الشؤم ، (منقعر) أى مقتلع من أصوله ، يقال تعرت النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .

(سعر) أى جنون . (الأشر) شديد البطر والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، (فتنة) أى اختباراً ، (فارتقبهم) أى فانتظرهم (واصطبر) أى واصبر على أذاهم . (والشرب) النصيب . (محتضر) أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ، (صاحبهم) هو قدار بن سالف الشقى ، (فتعاطى) أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، (فعقر) أى فضرب قوائم الناقة بالسيف . (صيحة واحدة) هى صيحة صاحها جبريل عليه السلام ، (والهشيم) ما تهشم وتفتت من الشجر . (المحتظر) الذى يعمل الحظيرة فتتساقط منه بعض أجزاء وتتفتت حال العمل . (حاصباً) أى ريحاً ترميهم بالحصباء ، وهى الحصا ، (بالسحر) السدس الأخير من الليل ، (فتماروا بالنذر) أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها . (راودوه عن ضيفه) أى صرفوه عن رأيه فيهم ، فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، (فطمسنا أعينهم) أى فحجبناها عن الأبصار ، فلم تر شيئاً ، (بكرة) أى أول النهار ، (مستقر) أى دائب بهم إلى أن يهلكوا ، (النذر) واحدها نذير بمعنى انذار ، وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلوات الله عليه ، (عزيز) أى لا يغالب ولا يغلب . (مقتدر) أى لا يعجزه شىء .

[Folded corner fragment:] نذر ؟ ﴾ أى ما أشد ... بهم بالنعمة ، وهكذا ... ظالمة إن أخذه ... يوم مشهود

٦٠٧٢ ... رب لا تذر على ... كفاراً ﴾ ... السفينة ...

المناسبة وإجمال الم

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأ... تلك الزواجر شيئاً — أردف هذا ذكر قصص من قبلهم أنهم ليسوا ببدع من الأمم ، بل كثير منهم فعلوا فعلهم ، بل الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت ، فلا تأس على ما فرط منهم و ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾(١) ، وفى هذا وعيد للمشركين من أهل مكة تكذيبهم رسوله ، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم ، فسيحل بهم من العذاب ، مثل ما حل بمن قبلهم وينجى نبيه والمؤمنين ، كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التى أحلها بأممهم .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ ، يقول تعالى : كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح ، ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ أى صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون والضلال ، وقالوا له كما حكى الله عنهم ، ﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾(٢) ، وقالوا : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾(٣) وقالوا عنه ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ وازدجر ، أى انتهروه وزجروه وتواعدوه ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ أى إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ، فانتصر أنت لدينك كقوله تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾(٥) ، وكقوله تعالى : ﴿ قال رب إن قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وقال نوح

(١) الأحقاف آية ٣٥
(٢) الأعراف آية ٦٠
(٣) المؤمنون آية ٢٥
(٤) الشعراء آية ١١٦
(٥) المؤمنون الآيتان ٢٦ ، ٢٧
(٦) الشعراء الآيتان ١١٧ ، ١١٨

يقول تعالى : فقل يا محمد من هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم انهم منتظرون قال تعالى : ﴿ فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ، أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ أى إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال . ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ الخشوع فى البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان ، قال تعالى : ﴿ خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ الأجداث القبور يخرجون منها كأنهم جراد منتشر ، أى كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ، جراد منتشر فى الآفاق ، كقوله تعالى : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾[4] . وقوله تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون . ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أى يوم شديد الهول عسر المنقلب . كقوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾[5] . وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه ولا مشقة .

---

(١) الصافات الآيات : ١٧٤ — ١٨٢
(٢) الشورى الآية ٤٥
(٣) القلم الآية ٤٣
(٤) القارعة الآية ٤
(٥) المدثر الآيات ٨ — ١٠

الرسل وأقوامهم

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[1] ، قال الله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ أى فأجبنا دعاءه ، وأمرناه باتخاذ السفينة ، وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، أى كثير . قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء من غير سحاب لم يقلع أربعين عاماً . ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها ، فتفجرت بالعيون ، ونبعت جميع أرجاء الأرض ، حتى التنانير التى هى محال النيران ، نبعت عيوناً ، ﴿ فالتقى الماء ﴾ أى من السماء والأرض . ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أى أمر مقدر ، قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا ان يغرقوا . وقال محمد بن كعب كانت الأموات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء وتلا هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أى حملناه على سفينة ذات ألواح ، ﴿ ودسر ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دسرت بها السفينة أى شدت ، وقال الحسن وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج ، سميت بذلك ، لأنها تدسر الماء أى تدفعه ، والدسر الدفع والمخر .

وقوله تعالى : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، وقوله تعالى : ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أى جزاء لهم على كفرهم بالله ، وانتصاراً لنوح ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحاً ومن معه — عبرة لمن بعده من الأمم . ليتدبروا ويتعظوا ، ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم ، وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[3] .

وقوله : ﴿ فهل من مدكر ؟ ﴾ أى فهل من معتبر بتلك الآية ، الجديرة بطويل التفكير ، والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

---

(1) نوح ٢٦ ، ٢٧

(2) الحاقة الآيتان ١١ ، ١٢

(3) الشعراء الآيتان ١٢١ ، ١٢٢

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال تعالى : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ؟ ﴾ أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أنظع إنذارى لهم ، بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه ، أن هذا القصص وأمثاله ، إنما ذكر فى القرآن للعبرة . لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى ، فقال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه فيعان عليه ؟ قال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ، فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ، ليذكروا ما فيه ﴿ فهل من مدكر ﴾ قال أبو بكر الوراق : فهل من طالب خير وعلم ، فيعان عليه . قال القرطبى : وكرر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام ، وقيل : إن الله تعالى قص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، فكان فى كل قصة ونبأ ذكر مستمع أن لو ادكر ، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ لأن « هل » كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم ، وجعلها حجة عليهم ، « فاللام » من « هل » للاستعراض و « الهاء » للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله : ﴿ كذبت عاد ﴾ هم قوم هود ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابى إياهم وعقابى لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هوداً ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغى والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء ، لما يلقى عليهم قبل ذكره ، وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فانظروا كيف كان عذابى وإنذارى لهم به قبل نزوله .

---

(1) هود الآيات ١٠١ — ١٠٣

ثم فصّل ما أجمله أولاً فقال تعالى :

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ أي أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات ، ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ أي دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك .

قوله تعالى : ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ أي تقتلعهم من مواضعهم ، قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمي بهم على رءوسهم ، فتندق أعناقهم ، وتبين رءوسهم عن أجسادهم ، والمنقعر المنقطع من أصله ، قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فتقعرت . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾[1] .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما فقال :

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي فانظروا كيف كان عذابي وإنذاري وقد كرره تعظيماً لشأنه ، وهذه سنة في بليغ الكلام ، في باب إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثاني إلى عذاب الآخرة ، كما جاء في قصصهم في آية أخرى ، ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[2] .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ، أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر . إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

(١) الحاقة الآيات ٦ — ٨

(٢) فصلت آية ١٦

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ أي كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقه ، وهم وإن كذبوا صالحاً فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعاً ، لا تفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهي التوحيد ومجيء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال تعالى : ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ أي أنتبع واحداً من الدهماء ، لا من عليّة القوم ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرىء منا بعلم ظاهر ، ولا ثروة وغنى ، تجعله يدّعي أن يكون الزعيم لنا ، ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم : ﴿ إنا اذا لفي ضلال وسعر ﴾ أي إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوي وجانبنا الصواب ، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذي لا يرضى به عاقل لنفسه .

ثم بالغوا في العتو والإنكار ، وتعجبوا من أمره ، ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا : ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا . بل هو كذاب أشر ﴾ أي أأنزل عليه الوحي من بيننا ، وأوتي النبوة ، وهو واحد منا ؟ وما اختصه الله بإنزال الشرائع عليه ، وهو ليس بمث مكرم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويود أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا ما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحي سماوي ، ولا أمر إلهي .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له ووعيدا لقومه فقال : ﴿ سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾ أي سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوي — من الكذاب البطر الذي حمله بطره على ما فعل ، أصالح في دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم في تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ، ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم ﴾ أي إنا مخرجو الناقة من الهضبة التي طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه في ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختباراً لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه ، ويكفرون به ؟ .

﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ أي فانتظر ماذا يعملون ؟ وأبصر ماذا يصنعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتي أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ أي وأخبرهم أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها في نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ، ولا ترد الماء وهي عليه ، فصعب ذلك عليهم . ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ أى فملت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص منها ، فنادوا قدار بن سالف وكان أشقاهم لعقرها وحضوه على ذلك ، فلبى طلبهم ، وتناولها بيده ، وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة . ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[1] . قال تعالى : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ ثم فصل هذا العذاب بقوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أى إنا أرسلنا جبريل ، فصاح بهم صيحة ، فصاروا كالحشيش البالى ، الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمر بعيد . قال ابن عباس : انهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ، كما قال سبحانه : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾[2] ، ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن ، الذى قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ وقال محمد بن كعب القرظى فهل من منزجر عن المعاصى ؟

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا ارسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر ، ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ، فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط ، كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور ، وهى الفاحشة ، التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم ، حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسلها وتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال هنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهى الحجارة ، ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أى خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً ، لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك نجزى من شكر ﴾ أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا وهكذا نجزى من شكرنا على نعمتنا وأطاع فائتمر أمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

(١) الإسراء آية ١٦

(٢) الذاريات الآيات ٤٣ — ٤٥

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أنذرهم عذابه ، وخوفهم بأسه فقال :

﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ أى ولقد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه ، قبل حلوله بهم ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ، كما قال الله سبحانه : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فى صور شباب مرد حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، ويقول لهم ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾[3] فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريل عليه السلام ، فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، يقال إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطا عليه السلام إلى الصباح ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أى لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ﴾ ، قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك . وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[4] ثم ختم سبحانه القصة

(١) الأعراف الآيات ٨٠ — ٨٢

(٢) العنكبوت الآيات ٢٨ — ٢٩

(٣) هود الآيات ٧٨ — ٨٠

(٤) هود الآيات ٨٢ — ٨٣

بقوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ومثله الجملة القسمية ، وردت فى آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ وتنبيهاً إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار ، كافية فى الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار ، وقد جاء هذا التكرير فى سورة الشعراء ، من قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[1] ، وفيما سيأتى فى سورة الرحمن — إن شاء الله — من قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[2] وقوله فى سورة المرسلات : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾[3] وهذا كثير فى كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هام الأمور .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون ، بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة ، وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أى فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ، ولا عين ولا أثر ، كما قال جل فى علاه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى اسرائيل ، إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ، فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[5] .

(١) الشعراء الآيتان ٨ — ٩
(٢) الرحمن ١٣
(٣) المرسلات ١٥
(٤) الاسراء الآيات ١٠١ — ١٠٣
(٥) النمل الآيتان ١٢ — ١٤

وعد ووعيد

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ براءة ﴾ أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، ﴿ والزبر ﴾ الكتب السماوية واحدها زبور ، ﴿ يولون ﴾ أى يرجعون ، ﴿ الدبر ﴾ أى الأدبار هاربين منهزمين ، ﴿ والساعة ﴾ هى القيامة ، ﴿ موعدهم ﴾ أى موعد عذابهم ، ﴿ أدهى ﴾ أى أعظم داهية ، وهى الأمر الفظيع ، الذى لا يهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، ﴿ وأمر ﴾ أى أشد مرارة فى الذوق ، والمراد الشدة والهول . ﴿ إن المجرمين فى ضلال ﴾ أى فى الدنيا عن الحق ، ﴿ وسعر ﴾ أى نيران واحدها سعير ، ﴿ يسحبون ﴾ أى يجرون ، ﴿ سقر ﴾ اسم جهنم ، ﴿ ومسها ﴾ حرها ، ﴿ بقدر ﴾ أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ﴿ أمرنا ﴾ أى شأننا ، ﴿ واحدة ﴾ أى كلمة واحدة وهى قوله : ﴿ كن ﴾ ﴿ كلمح بالبصر ﴾ أى فى اليسر والسرعة ، ﴿ أشياعكم ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، ﴿ مدكر ﴾ أى متعظ ، ﴿ فى الزبر ﴾ أى فى كتب الحفظة ، ﴿ مستطر ﴾ أى مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله . ﴿ نهر ﴾ أى أنهار ، ﴿ فى مقعد صدق ﴾ أى فى مكان مرضى ، ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، وفصل ما أجيبوا به من عذاب لله ، الذى لا مرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله — أعقب هنا بتنبيه كفار قريش ، إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، فستحل بهم سنتنا ، ويحيق بهم من البلاء ، مثل ما حل بأحزابهم من المكذبين من قبلهم ، ثم خاطبهم خطاب إنكار وتوبيخ فقال لهم : على ما تتكلون . وماذا تظنون ؟ ألكم خير من سلفكم عدداً وكثرة مال وبطشاً وقوة ، أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون أنكم جمع كثير ، لا يمكن أن ينال بسوء ، كلا إن شيئاً من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهزمون ، وسيحل بكم قضاء الله الذى لا مفر منه . وما ستلقونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالاً . ثم بين سبحانه أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن ينتبهوا له ، من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، ودمت فعلها فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ، ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾[1] أى أكفاركم يا معشر قريش خير من أولئكم ، الذين أحللت بهم نقمتى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابى ونقمتى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى . ﴿ أم لكم براءة فى الزبر ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أى يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء ، قال تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أى سيفرق شملهم ويغلبون .

قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده

(١) القمر آية ٤٣

وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[1] .

وقال ابن أبى حاتم عن عكرمة قال لما نزلت : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، قال عمر أى جمع يهزم ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ[2] .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر ، يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين ، أنهم فى ضلال وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء . وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق . ثم قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ أى كما كانوا فى سعر وشك وتردد أورثهم النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم ولا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ذوقوا مس سقر . أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر ، فنزلت ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وأخرجه الترمذى أيضا وقال حديث حسن صحيح[3] .

قوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أى إن كل كائن فى هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى حكمة البالغة ، والنظام الشامل ، وحسب السنن التى وضعها فى الخليقة كقوله تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾[4] . وقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾[5] ، وكقوله سبحانه ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾[6] .

قال القرطبى رحمه الله : (عقيدة أهل السنة فى القضاء والقدر) .

الذى عليه أهل السنة ، أن الله سبحانه قدر الأشياء ، أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده ، على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوى والسفلى ، إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى تفسير سورة اقتربت الساعة ج ٦ ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) أخرجه تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٥٧ فى تفسير سورة القمر آية ٤٥ .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى المقدمة باب فى القدر ج ١ ص ٣٢ رقم ٨٣ .
(٤) الفرقان آية ٢
(٥) الأعلى آيات ١ — ٣
(٦) الأحزاب آية ٣٨

وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا ، والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذر رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال « أنتم خصماء الله يوم القيامة » .

روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » رواه ابن ماجه فى سننه [1] .

وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ، ولا يتبرأ إلا من كافر ، ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله : « وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه ، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى فى كتابه : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾[2] . فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب ، كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهى درجة الراسخين فى العلم ، لأن العلم علمان : علم فى الخلق موجود ، وعلم فى الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود ، ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شىء ، كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائن ، لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شىء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلوه كائناً — لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيمة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه فى كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقض ، ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا ناقص ولا زائد من خلقه فى سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان ، وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى فى كتابه : ﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديراً** ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾[4] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى المقدمة باب فى القدر ج ١ ص ٣٥ رقم ٩٢ .
(٢) الأنبياء آية ٢٣
(٣) الفرقان آية ٢
(٤) الأحزاب آية ٣٨

فويل لمن صار لله تعالى فى القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سراً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً » . (من كتاب العقيدة الطحاوية) .

قوله تعالى : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ أى إنما نأمر بالشىء مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين ، كما قال جل فى علاه : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شىء قدير** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر** ﴾ أى ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قريش ، من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا فى أمثالهم ، بشتى العقوبات كما قال سبحانه : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[3] ، وقوله : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾[4] ، وقوله : ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾[5] ثم بين هو سبحانه ، أن كل أعمالهم محصاة عليهم ، وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال تعالى : ﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر** ﴾ أى وكل شىء فعلوه مقيد لدى الكرام الكاتبين ، كما قال تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[6] فما من صغيرة ولا كبيرة إلا هى مسطورة فى دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، ويوم القيامة يقولون : ﴿ **ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[7] .

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « ياعائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً »[8] .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيراً ... إن الصغير غداً يعود كبيراً
إن الصغير وإن تقادم عهده ... عند الإله مسطر تسطيرا
فاسأل هدايتك الإله فتتئد ... فكفى بربك هادياً ونصيرا

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ أى إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوه ، وأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل فى السر والعلن ،

---

(١) يس آية ٨٢
(٢) النحل آية ٧٧
(٣) الصافات آية ١٠
(٤) القتال الآيتان ١٣٧ — ١٣٨
(٥) الأحقاف آية ٢٧
(٦) ق آية ١٨
(٧) الكهف آية ٤٩
(٨) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٦ ص ٧٠

وقاموا الليل واستغفروا بالأسحار ، ثم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من استبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على مشاق الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات كما قيل للربيع بن خيثم ، وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه ، أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب ، كما ينالون الزلفى عند ربهم ، القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته ، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا ممانع ولا يغالب وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا فى زمرتهم واجعلنا ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطول العظيم .

تفسير سورة الرحمن

مقدمة

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى تمييز »

السورة مكية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وسبعون

وكلماتها : ثلاثمائة وإحدى وخمسون

وحروفها : ألف وثلاثمائة وست وثلاثون

وسميت سورة الرحمن لمفتتحها

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : المنة على الخلق بتعليم القرآن ، وتلقين البيان ، وأمر الخلائق بالعدل فى الميزان ، والمنة عليهم بالعصف والريحان ، وبيان عجائب القدرة فى طينة الإنسان وبدائع البحر ، وعجائبها : من استخراج اللؤلؤ والمرجان ، وإجراء الفلك على وجه الماء ، أبدع جريان ، وفناء الخلق وبقاء الرحمن ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وأن لا نجاة للعبد من الله ، إلا بحجة وبرهان ، وقهره خلائق فى القيامة بلهيب النار والدخان ، وسؤال أهل الطاعة (وكذا) أهل العصيان وطوف الكفار فى الجحيم ، ودلال المؤمنين فى نعيم الجنان ، ومكافأة أهل الإحسان بالإحسان ، (وسرور) المؤمنين بأزواجهم من الحور الحسان ، وتقلبهم وورودهم فى رياض الرضوان ، على بساط الشاذروان ، وخطبة جلال الحق ، على لسان أهل التوحيد والإيمان ، بقوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام .

المتشابهات

قوله ﴿ ووضع الميزان ﴾ أعاده ثلاث مرات ، فصرح ولم يضمر ، ليكون كل واحد قائماً بنفسه غير محتاج إلى الأول ، وقيل : لأن كل واحد غير الآخر ، الأول ميزان الدنيا ، والثانى ميزان الآخرة ، والثالث ميزان العقل ؛ نزلت متفرقة ، فاقتضى الإظهار .

قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ كرر الآية احدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقيبها ، لأن فى حرفها ودفعها نعما توازى النعم المذكورة ، أو لأنها حلت بالأعداء وذلك يعد من أكبر النعماء ، وبعد هذه السبعة ، ثمانية فى وصف الجنان وأهلها ، على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونها ، فمن أعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق كلتا الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة ، والله أعلم .

مناسبتها لما قبلها

لما قال سبحانه فى آخر سورة القمر (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) ثم وصف حال المجرمين فى سقر ، وحال المتقين فى جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ الرحمن ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ، ﴿ الإنسان ﴾ هو هذا النوع ، ﴿ البيان ﴾ تعبير الإنسان عما فى ضميره ، وإفهامه لغيره ، ﴿ بحسبان ﴾ أى بحساب دقيق منظم فالحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغفران ومعناه الحساب .

﴿ يسجدان ﴾ أى ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكلفون اختياراً ، ﴿ رفعها ﴾ أى خلقها مرفوعة المحل والرتبة ، ﴿ الميزان ﴾ العدل والنظام . ﴿ أقيموا الوزن بالقسط ﴾ أى قوموا وزنكم بالعدل ، ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أى لا تنقصوه ، ﴿ للأنام ﴾ أى للخلق ، ﴿ والأكمام ﴾ واحدها (كم) بالكسر : وعاء الثمر ، ﴿ والعصف ﴾ ورق النبات الذى على السنبلة ، ﴿ والريحان ﴾ كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها ألى (بفتح الهمزة وكسرها) .. ﴿ الصلصال ﴾ الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقر ، ﴿ الفخار ﴾ الخزف وهو الطين المطبوخ ، ﴿ الجان ﴾ نوع من الجن . ﴿ والمارج ﴾ اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، ﴿ رب المشرقين ﴾ أى مشرق الشمس صيفاً وشتاء ، ﴿ ورب المغربين ﴾ أى مغربيهما كذلك (مرج البحرين) أى أرسلهما وأجراهما من قولك مرجت الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه (يلتقيان) أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، ﴿ برزخ ﴾ أى حاجز ، ﴿ لا يبغيان ﴾ أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال خاصته . ﴿ واللؤلؤ ﴾ الدر المخلوق فى الأصداف ، ﴿ والمرجان ﴾ الخرز الأحمر ، ﴿ الجوارى ﴾ السفن الكبار ، ﴿ المنشئات ﴾ أى المصنوعات . ﴿ والأعلام ﴾ الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى ، ﴿ فان ﴾ أى هالك . ﴿ ذو الجلال والاكرام ﴾ أى ذو العظمة والكبرياء .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان ﴾ .

﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى مختص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ، قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[1] ، وهو يجرى غالباً مجرى الصفة له تعالى ، نحو : (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد يذكر موصوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[2] .

(١) الاسراء آية ١١٠
(٢) طه آية ٥

قال الخطابى : ذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه اسم مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة ، الذى لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع ، وذكر اسم الرحمن سبعاً وخمسين مرة ، فى كتاب الله الكريم ، وأكثر سورة ذكر فيها اسم الرحمن « سورة مريم » إذ ذكر « الرحمن » ستة عشر مرة ، ولم أر اسماً من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة فى القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم ، وكثير من العلماء يفسر ﴿ الرحمن ﴾ بأنه المنعم بعظائم النعم ، وجلائل الآلاء ، ويفسر ﴿ الرحيم ﴾ بأنه المنعم بدقائق النعم ، ولطائفها ، وإننا لنسير مع اللغة العربية فى تفهم صيغة ﴿ الرحمن ﴾ ، وصيغة ﴿ الرحيم ﴾ إذ لابد لكل صيغة من مدلول لغوى ، مقصود المعنى ، باهر الدلالة ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين (فالرحمن) صيغة جاءت بها اللغة للدلالة على التكثير والتكرير ، وللدلالة على ما يصدر عن تلك الصفة ، من رحمات متجددات ، وتعطفات مستمرات ، وأما (الرحيم) فصيغة تدل على الوصف اللازم الثابت . فتكون دلالة الوصفين أن الله سبحانه وتعالى (رحيم) فى ذاته ، قد ثبتت له تلك الصفة ثبوتاً ذاتياً سرمدياً أبدياً ، ثم هو (رحمن) كثير الرحمة لعباده ، لا تنقطع عنهم آثار الرحمة ، ولا تستغنى عنها الحياة لحظة من لحظاتها (فالرحمن) الذى تتجدد رحمته ، ويتتابع إحسانه ..

إن آثار رحمة الله دلت عليها صيغة (رحمن) تبدو فى كل لحظة ، بل فى كل برهة ، بل فى كل نفس يتنفسه الكائن الحى ، فى كل لحظة تسبح فيها الأفلاك رحمة من الله ، وفى كل حركة تجرى فى الأرض ، أو فى السماء رحمة من الله ، ولو تخلت هذه الرحمة عن العوالم برهة ، لكان الفساد الشامل ، بل العدم المطلق ، فهذه الرحمة المتجددة ، ذات الآثار السرمدية ، هى التى لا تنتهى آثارها ، ولا ينقطع مددها ، يقول تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[2] .

فالله عظمت قدرته ، وعمت رحمته ، يصون هذا الإنسان ، ويحرسه ويرعاه فى كل طور من أطوار تربيته ، ثم يتعهده بالرزق والعون والمدد ، فى ظلل الحال ، وفى سارب البحار ، وفى مرامى

(١) الروم آية ٥٠
(٢) الروم الآيات ٢٠ ــ ٢٥

الفلوات ، وإن جن الليل ، وإن انبثق النهار ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾[1] . ويقول تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾[2] ، ومن أعطى اسم « الرحمن » حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل ، وإنزال الكتب أعظم من تضمينه عنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ ، وإخراج الحب ، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح ، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح ، يقول تعالى : ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾[3] ، ويقول جل وعلا : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[4] . لذا ذكره المولى سبحانه وتعالى في أول النعم ، فقال تعالى : ﴿ علم القرآن ﴾ أي سهله لأن يذكر ويقرأ ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾[5] ، وقال الخازن : إن الله عز وجل عدد نعمه على عباده ، فقدم أعظمها نعمة ، وأعلاها رتبة ، وهو القرآن العظيم ، لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه ، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه ، وأكثره ذكراً ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية .

وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمراد بالإنسان الجنس .

وقوله : ﴿ علمه البيان ﴾ أي ألهمه النطق ، الذي يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته ، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان . وقال السدي : علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به ، وقال يمان : البيان : الكتابة والخط بالقلم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[6] ، قال البيضاوي : والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حثاً على شكره ، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه ، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، لأنه أصل النعم الدينية ، فقدم الأهم .

(1) الأنبياء آية ٤٢
(2) الحج الآيات ٦٣ — ٦٥
(3) الحديد آية ٩
(4) العنكبوت آية ٥١
(5) القمر آية ١٧
(6) العلق الآيات ١ — ٥

ويقول الإمام ابن القيم قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ دلت هذه الكلمات ، على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها ، فقوله خلق الإنسان : إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني ، وخص الإنسان بالخلق ، لأنه موضع العبرة ، والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعداد النعم ، وقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ إخبار عن إعطائه الوجود العلمي الذهني ، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه ، كما أنه إنما صار إنساناً بخلقه ، فهو الذي خلقه وعلمه ، ثم قال : ﴿ علمه البيان ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة ، كل منها يسمى بياناً ، أحدها البيان الذهني ، الذي يميز فيه بين المعلومات ، الثاني : البيان اللفظي ، الذي يعبر به عن تلك المعلومات ، ويترجم عنها فيه لغيره . الثالث : البيان الرسمي الخطي ، الذي يرسم به تلك الألفاظ ، فيتبين الناظر معانيها ، كما تبين للسامع معاني الألفاظ ، فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب ، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة ، كقوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾[1] ، وقوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[2] ، ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله : ﴿ صم بكم عمي ﴾[3] ، وقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾[4] .

ويقول : فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها خلقه وتعليمه ، فهو خالق ما خلق ، وكل شيء في الخارج ، بخلقه وجد ، وكل علم في الذهن ، فبتعليمه حصل ، وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان ، فبأقداره وجد ، وتعليمه ، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه ، بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له (أي للعلم) .

قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان فبأي آلاء ربكم تكذبان ﴾ .

انتقل النص القرآني بعد ذلك لصفحة الكون المنظور ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وآثاره العظيمة ، التي لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أي إن الشمس والقمر ، وهما من

(1) الإسراء آية ٣٦
(2) النحل آية ٧٨
(3) البقرة آية ١٨
(4) البقرة آية ٧

أعظم الأجرام ، يجريان فى بروجهما ومنازلهما ، بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان ، ينتفع بهما الناس فى شئون الزراعات ، كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها فى كل فصل من الفصول ، وفى الأمور المالية ، من بيع وشراء ، لآجال محدودة ، من شهور وسنين ، وفى تقدير الأعمار والآجال التى تقدمت ، وجاءت فى أخبار الماضين ، والتى ستكون للحاضرين كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين . فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[2] وكقوله : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] ، وبعد أن ذكر سبحانه ، أن الشمس والقمر طوع قدرته ، وقد جعل لهما النظم الدقيقة فى الحسبان ، أردفه بانقياد العوالم الأرضية له ، فقال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ أى والنجم والشجر ، يسجدان للكبير المتعال ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس . وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾[4] .

قال النحاس أصل السجود فى اللغة : الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من موات كلها استسلامها ، لأن الله عز وجل ، وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك . ويكون من سجود الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ﴾ كقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنياها وزيناها وما لها من فروج ﴾[5] ، وكقوله : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ ووضع الميزان ﴾ أى العدل كما قال تعالى : ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾[7] ، وكقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[8] ، قال مجاهد وقتادة والسدى : أى وضع فى الأرض العدل ، الذى أمر به . وقال

(١) الإسراء الآية ١٢
(٢) يونس الآية ٥
(٣) الأنعام الآية ٩٦
(٤) الحج الآية ١٨
(٥) ق الآية ٦
(٦) الرعد الآية ٢
(٧) الشورى الآية ١٧
(٨) الحديد الآية ٢٥

الحسن وقتادة — أيضاً — والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به ، لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ والقسط العدل ، ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أى لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى : ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[2] ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال .

قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق ، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم فى سائر أقطارها وأرجائها ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾[3] . وكقوله : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ﴾ أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار ، طازجة ومطبوخة ومجففة ، على شتى الأشكال ، وجذوب الألوان . والنخل ذات الأوعية تمرها حين ظهوره ، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جمارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

وقوله تعالى : ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ أى وجميع الحبوب ، التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، وما عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته ، وذكر أولا الفاكهة ، لأنها للتفكهة فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء ، ثم الحب الذى عليه المعول فى

(١) الإسراء الآية ٣٥
(٢) المطففين الآيات ١ — ٥
(٣) الأنبياء الآية ٣١
(٤) الملك الآية ١٥

الغذاء فى جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله فى سائر البلاد ، وجعل النخل فى البلاد الحارة دون غيرها . وقوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به فى العبادة ، دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم ، قال ابن كثير فى تفسيره :

قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن جابر ، قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها ، فسكتوا فقال : (لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم) كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد .. فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به ، اللهم ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد وكان ابن عباس يقول لا بأيها يارب أى لا نكذب بشىء منها[1] .

وقد كررت هذه الآية ، فى واحدة وثلاثين موضعاً من السورة تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها ، فتراه سبحانه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وقال القرطبى رحمه الله : قال الترمذى محمد بن على : هذه السورة من بين السور علم القرآن ، والعلم إمام الجند ، والجند تتبعه ، وإنما صارت علماً ، لأنها سورة صفة الملك والقدرة ، فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ، ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته ، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال : ﴿ خلق الإنسان ﴾ ثم ذكر ما صنع به ، وما من عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر ، وسجود الأشياء من نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخاطب هذين الثقلين الجن والإنس ، حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته ، التى رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه وجحدوا الرحمة ، التى خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلاً لهم : ﴿ فبأى آلا ربكما تكذبان ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم ، أنهم جعلوا فى هذه الأشياء التى خرجت من ملكه وقدرته ، شريكاً يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم ، ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإن له فى كل خلق بعد خلق ، قدرة بعد قدرة ، فالتكرير فى هذه الآيات للتأكيد والمبالغة فى التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق .. أ هـ .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٥ ص ٧٣ رقم ٣٢٤٠ .

قوله تعالى : خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

يذكر تعالى خلقة الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقة الجان من مارج من نار ، قال الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ ، خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم ، أى من طين . ورواه أيضاً مسلم[1] .

وقد جاء فى كتاب الكريم ، عبارات مختلفة فى خلق الإنسان ، باعتبار مراتب الخلق ، فمرة قال : إنه خلق من تراب ، وأخرى قال : إنه من طين ، وثالثة قال : إنه من طين لازب ، أى لاصق باليد لما اختلط به من الماء ، وهنا قال من صلصال ، وهى مادة الأصل ، وأحياناً يذكر مادة الفرع ، وهو الماء المهين .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مما أوض عليكما فى تضاعيف خلقكم من سوابغ النعم .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان ، شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان ، فقال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ أى رب مشرق الصيف والشتاء ، ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات ، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب ، مصالح للخلق من الجن والإنس ، قال : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلا ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ولما ذكر نعمه التى تترى على عباده فى البر ، أعقبها بنعمه عليهم فى البحر فقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ أى أرسل البحر الملح والبحر العذب ، متجاورين متلاقيين ، لا يبغى أحدهما على الآخر ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما بينهما حاجز من قدرته ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة ويجرى

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٦ ص ١٥٣ .

شمالاً ، حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ولا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾[1] . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقد ثبت فى الكشف الحديث ، أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح ، يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان ، وإن كان الغالب ، أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ أى وله السفن الكبار ، التى رفعت شرعها فى الهواء كالجبال الشاهقة تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ، فهى كالجبال فى كبرها ، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة ، من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم . مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه ، من سائر أنواع البضائع ولهذا قال تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

الشمس والبدر من أنوار حكمته ... والبر والبحر فيض من عطاياه
والطير سبحه والوحش مجده ... والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه ... والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيستره ... والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض ، سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السموات ، إلا من شاء الله ، ولا يبقى سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحى الذى لا يموت أبداً .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾[2] ووجه النعمة فى فناء الخلق ، أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب .

(١) الفرقان الآية ٥٣
(٢) القصص الآية ٨٨

وقوله تعالى : ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه ، واستحقاقه صفات المدح ، ﴿ والإكرام ﴾ أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ، قال ابن عباس ذو الجلال والإكرام ذو العظمة والكبرياء .

وعن أنس رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال ، اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم ، فقال النبى ﷺ : « لقد دعا الله باسمه العظيم . الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[1] .

(أخرجه أهل السنن الأربعة والإمام أحمد فى مسنده) .

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم عن حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عن النبى ﷺ أنه قال : « ألظوا بياذا الجلال والإكرام »[2] (ألظوا) (بفتح الألف وكسر اللام وتشديد الظاء) قال أبو عبيدة : الإلظاظ : لزوم الشىء والمثابرة عليه ، ويقال : الإلظاظ الإلحاح . ومعنى : تعلقوا بها والزموا وداوموا عليها . وعن سعيد المقبرى أن رجلاً ألح بجعل يقول : اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودى أنى قد سمعت فما حاجتك ؟

ولما أخبر سبحانه عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة ، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام ، بحكمه العدل قال : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

البقاء لله وحده

أخوانى ، تفكروا فى مصارع الذين سبقوا ، وتدبروا مصيرهم أين انطلقوا ، واعلموا أن القوم القوم قد تفرقوا ، فريق منهم سعدوا ، ومنهم قوم شقوا .

شعر :

عجبت والدهر لا تفنى عجائبه ... للراكنين إلى الدنيا وقد صدقوا
وطال ما نغصوا بالفجع ضاحية ... وطال بالفجع والتنغيص ما طرقوا
دار تغر بها الآمال مهلكة ... وذو التجارب فيها خائف فرق
يا للرجال لمخدوع بزخرفها ... بعد البيان ومغرور بها يثق

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم ج ٢ ص ١٢٦٨ رقم ٣٨٥٨ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ١٧٧

أقول والنفس تدعوني لباطلها ... أين الملوك ملوك الناس والسوق
أين الذين إلى لذاتها ركنوا ... قد كان فيها لهم عيش ومرتفق
أمست مساكنهم قفراً معطلة ... كأنهم لم يكونوا قبلها خلقوا
يا أهل لذات دار لا بقاء لها ... إن اغتراراً بظل زائل حمق

وقال الحسن : إن الله تبارك وتعالى ، قد كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم مشاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل .

شعر :

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار إنك راحل ... إلى منزل فأى المحل سحيق
وما تعدم الدنيا الدنية أهلها ... شواظ حريق أو دخان حريق
تجرع فيها هالكاً فقد هالك ... وتشجي فريقاً منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قراراً فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له ... عن عدو في ثياب صديق
عليك بدار لا يزال ظلالها ... ولا يتأذى أهلها بمضيق
فما يبلغ الراضي رضاه ببلغة ... ولا ينقع الصادي صداه بريق

قال الحسن البصري : ما عجبت من شيء ، كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر ، وهل تشعبت الكبائر إلا من أجلها ؟ وهل عبدت الأصنام وعصى الرحمن ، إلا لحب الدنيا وإيثارها ؟ .

وكان يقول : من عرف ربه أحبه ، وآثر ما عنده ، ومن عرف الدنيا وغرورها ، زهد فيها .

وقيل له : يا أبا سعيد هل يرى الله عز وجل في دار الدنيا ؟

فقال : لا ! قيل : فهل نراه في الدار الآخرة ؟ فقال : نعم !

قيل : وما الفرق بين ذلك ؟ فقال : لأن الدنيا فانية ، وفان كل ما فيها ، ولأن الآخرة باقية ، وباق كل ما فيها ، ومحال أن يرى الباقي بالفاني ، والقديم الأزلي بالمحدث ، وإذا كان يوم القيامة خلق الله لعباده أبصاراً باقية ، يرون بها ربهم تفضلاً عليهم وإكراماً لهم .

وكان يقول : روى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ ، وهو راقد على سرير موصول بالشريط وقد أثر في جنبه أثر الحبل فدمعت عيناه ، فقال النبي ﷺ : مالك يا ابن الخطاب ؟ فقال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك والتنعيم ، ورأيتك وأنت رسول الله وصفيه ومصطفاه وحبيبه تنام على سرير موصول بالشريط ، فقال ﷺ : أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فقال : رضيت يا رسول الله ، فقال ﷺ : إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب سافر في يوم صائف فرفعت له شجرة ذات ظل ظليل ، فنزل إليها فقيل (أي نام) تحتها هنية ، ثم راح وتركها »[1] .

وكان يقول : وجد في حجر مكتوب : ابن آدم ، لو أنك رأيت قبل ما بقي من أجلك ، لزهدت فيما ترجوه من أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت في حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك ، لقد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ، وصرت تدعى ولا تجيب .

شعر :

يا غادياً في غفلة ورائحاً ... إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً ... يستنطق الله به الجوارحا
يا عجباً منك وأنت مبصر ... كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ في غد ... صحيفة قد حوت الفضائحا
وكيف ترضى أن تكون خاسراً ... يوم يفوز من يكون رابحا

ذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال علي : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً .

فيأيها الذام للدنيا المعلل نفسه ، متى خدعتك الدنيا ، أم متى استذمت إليك ، أبمصارع آبائك في البلى ، أم بمضاجع أمهاتك في الثرى ، كم مرضت بيديك ، وعللت بكفيك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغني عنه دواؤك ، ولا ينفعك بكاؤك .

(١) أخرجه : الإمام أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٩١

وقيل لبكر بن عبد الله المزنى : صف لنا الدنيا ، فقال : ما مضى منها فحلم ، وما بقى فأمانى .

وقيل : الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صدق ، يحكم فيها ملك قادر ، يفصل الحق من الباطل .

وقال ابن مسعود : ليس من الناس أحد إلا وهو ضيف على الدنيا ، وماله عارية ، فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة .

شعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسه	تنحَّ عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غرَّارة	قريبة العرس من المأتم

وقال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك عمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال بعض الحكماء : السعيد من اعتبر بأمه ، واستظهر لنفسه ، والشقى من جمع لغيره ، وبخل على نفسه .

وقال بعض الشعراء :

من كان يعلم أن الموت مدركه	والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه	يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سمِجُ	وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا	لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

روى جعفر بن محمد ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ : أنه قال فى بعض خطبه .

« أيها الناس ، إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، وإن لكم معالم فانتهوا إلى معالكم ، وإن المؤمن بين مخافتين ، أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الحياة قبل الموت ، فإن الدنيا خلقت لكم ،

وأنتم خلقتم للآخرة ، فو الذى نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار »[1] .

من مشاهد القيامة

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **يسأله من فى السموات والأرض** ﴾ أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه ، ﴿ **هو فى شأن** ﴾ أى فى أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصاً ، ويجدد أحوالاً ، ﴿ **سنفرغ لكم** ﴾ أى سنقصد لمحاسبتكم بعد الإمهال ، ﴿ **أيها الثقلان** ﴾ الإنس والجن ، ﴿ **أن تنفذوا** ﴾ أى تخرجوا ، ﴿ **والأقطار** ﴾

(1) أخرجه الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى ج ١٨ ص ١١٦ تفسير سورة الجمعة آية ١٠ .

لجوانب ، واحدها قطر ، ﴿ والسلطان ﴾ إلا بأمر الله ، ﴿ الشواظ ﴾ اللهب الخالص ، ﴿ النحاس ﴾ الدخان الذى لا لهب فيه ، ﴿ فلا تنتصران ﴾ أى فلا تمتنعان من الله ، ولا يكون لكما منه ناصر ، ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ أى فإذا جاء يوم القيامة ، تصدعت السموات ، واختلت نظمها ، واحمر لونها ، وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه ، مما يدّهن به ، ﴿ والسيما ﴾ العلامة ، ﴿ والنواصى ﴾ واحدها ناصية ، وهى مقدم الرأس ، ﴿ الأقدام ﴾ واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الحار ، ﴿ آن ﴾ أى متناهٍ فى الحرارة ، لا يستطاع قربه من شدة حرارته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد — عزت قدرته — نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه نعم لا بقاء لها ولا ثبات ، فكل شىء يفنى إلا ذاته تعالى ، ذكر أن كل من فى الوجود مفتقر إليه ، فهو المدبر أمره ، والمتصرف فيه ، فهو يحيى قوماً ويميت آخرين ، ويرفع قوماً ويخفض آخرين ، ثم نبههم إلى أنه فى يوم القيامة ، سيلقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، لا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ، ولات ساعة مندم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

هذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات ، وأنهم يسألونه بلسان الهم ومآلهم ، وأنه سبحانه كل يوم هو فى شأن .

قال ابن جرير بسنده ، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدى عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ فقلنا يا رسول الله وماذاك الشأن ؟ قال « أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماًويضع آخرين »[1] .

(١) أخرجه تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٧٨

قال المفسرون : هى شئون يبديها ولا يبتديها ، أى يظهرها للخلق ، ولا ينشئها من جديد ، لأن القلم جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، فهو تعالى يرفع من يشاء ، ويضع من يشاء ، ويشفى سقيماً ، ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ، ويغنى فقيراً ، فى قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[1] ، ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ سبحانه .

وقال البخارى : سنحاسبكم ، لا يشغله شىء عن شىء ، وهو معروف فى كلام العرب ، يقال : لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول لآخذنك على غرتك ، وقوله تعالى : ﴿ أيها الثقلان ﴾ أى الإنس والجن ، كما جاء فى الحديث الصحيح « يسمعه كل شىء إلا الثقلين »[2] ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ ، قال ابن كثير : أى لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا فى مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق ، سبع صفوف ، من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾ أى إلا بأمر الله ، ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ وهذا إنما يكون فى القيامة لا فى الدنيا ، بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ . (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) . قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الشواظ هو لهب النار ، وقيل الشواظ الدخان ، وقال الضحاك : ﴿ شواظ من نار ﴾ أى سيل من نار . ﴿ ونحاس ﴾ قال ابن عباس النحاس دخان النار . قال ابن جرير : والعرب تسمى الدخان نحاساً (بضم النون) .

(١) آل عمران الآيتان : ٢٦ — ٢٧

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٤ ، وكذا البخارى فى كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال ج ٢ ص ٧ وكذلك جاء فى نفس الكتاب باب ما جاء فى عذاب القبر ج ٢ ص ١٢٣ .

وقال مجاهد : النحاس الصفر المذاب ، فيصب على رؤوسهم وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك ﴿ ونحاس ﴾ سيل من نحاس .

قال ابن كثير : والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية ، بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم ، لترجعوا ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾[1] وكقوله جل فى علاه : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أى تذوب كما يذوب الفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ ، التى يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ، ويحشرون إلى الموقف كقوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[4] ثم يسألون بعد ذلك ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾[5] . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ ، قال الحسن وقتادة : يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[6] ، وكما قال سبحانه : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾[7] ، وكما قال جل فى علاه : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾[8] . وقوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم ، فيقذفون فى النار . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ، وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ، ثم يلقى فى النار ، وقيل تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصيته ،

(١) الحاقة الآية ١٦
(٢) الانشقاق الآيتان ١ ، ٢
(٣) الفرقان الآية ٢٥
(٤) المرسلات الآيتان ٣٥ ، ٣٦
(٥) الحجر الآيتان ٩٢ — ٩٣
(٦) يونس الآية ٢٧
(٧) آل عمران الآية ١٠٦
(٨) طه الآية ١٠٢

وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[1] . وكما قال جل فى علاه : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ، ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك : تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً ، كما قال سبحانه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ أى تارة يعذبون فى الجحيم ، وتارة يسقون فى الحميم ، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب ، يقطع أمعاءهم . وقوله تعالى : ﴿ آن ﴾ أى حار ، قد بلغ الغاية فى الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾[4] ، وكقوله تعالى : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾[5] .

ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ورحمته ، وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه مما يزجرهم عماهم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك ، قال ممتناً بذلك على بريته : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

(١) غافر الآيتان ٧١ — ٧٢
(٢) الإسراء الآية ٢٩
(٣) الطور الآيات ١٣ — ١٦
(٤) الدخان الآيات ٤٣ — ٤٨
(٥) الحج الآيات ١٩ — ٢٢

السابقون وأصحاب اليمين

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾

معاني المفردات

﴿ مقام ربه ﴾ أي قيامه عليه واطلاعه على أعماله . ﴿ ذواتا ﴾ مثنى ذات بمعنى صاحبة ، ﴿ والأفنان ﴾ الأنواع واحدها فن : أي ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، ﴿ زوجان ﴾ أي صنفان ، ﴿ والفرش ﴾ واحدها فراش ، ﴿ والبطائن ﴾ ، واحدها بطانة ، ﴿ والإستبرق ﴾ الديباج أي الحرير الثخين ، ﴿ والجنى ﴾ الثمر ، ﴿ دان ﴾ أي قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع .

﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي نساء يقصرن أبصار ...
يطمثهن ﴾ أي لم يمسسهن ، وأصل الطمث خروج ...
والمرجان ﴾ في الصفاء والبياض .
﴿ ومن دونهما ﴾ أي من ورائهما ، ﴿ ...
اشتدت ، ضربت إلى السواد من كثرة ال...
﴿ حور ﴾ واحدتهن حوراء : أي بيضاء . ...
ومقصورة : أي مخدرة ملازمة بيتها لا تطوف في الطرق ، ...
أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الأرض .

﴿ الرفرف ﴾ واحدها رفرفة : وهي الوسادة ـ المخدة ـ أو ما تدلى من الأسرة من عالي الثياب ، ﴿ والعبقرى ﴾ منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب انه بلد يسكنه الجن ، ويسندون إليه كل شيء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط .

﴿ تبارك اسم ربك ﴾ أي تقدس وتنزه ربنا الذي أفاض على عباده نعمه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما يراه المشركون بربهم ، والعصاة لأوامره ونواهيه ، من الأهوال يوم القيامة ـــ ذكر هنا ما أعده من النعيم المقيم ، لمن خشي ربه ، وراقبه في السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه ، تجري من تحتها الأنهار ، جناها دان لمن طلبه ، وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بياضا ، وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا في الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم ذكر سبحانه جنتين أخريين ، دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يقول تعالى : ولمن خاف مقام ربه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه . فله يوم القيامة عند ربه جنتان .

كما قال عز وجل : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾[1] ، وكقوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾[2] ، وكما قال البخارى بسنده عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »[3] .

قال ابن كثير : وهذه الآية عامة فى الإنس والجن ، فهى من أول دليل على أن الجن يدخلون الجنة ، إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء ، فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

الخوف وحقيقته وبيان درجاته

قال الشيخ ابن قدامة المقدسى فى كتابه « منهاج القاصدين » بتصريف .

أعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال .

مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه ، بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ، بحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف عظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه ، خوف الناس أعرفهم بنفسه وبديه ، ولذلك قال النبى ﷺ : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » جزء من حديث فى البخارى)[4] .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين »[5] متفق عليه .

(والخنين بالخاء المعجمة : هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف) .

(1) النازعات الآيتان ٤٠ — ٤١ (2) البينة الآيتان ٧ — ٨

(3) أخرجه البخارى : فى كتاب التوحيد باب ما يذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله ج ٩ ص ١٦٢

(4) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما يكره من التعمق والتنازع فى العلم والغلو فى الدين والبدع لقوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ ج ٩ ص ١٢٠ .

(5) أخرجه الترمذى فى باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ — دار الفكر بيروت .

وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات ، بالنحول والاصفرار والبكاء .. وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ، ومن أدلج ، بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »[2] رواه الترمذى وقال حسن (وأدلج : معناه سار من أول الليل ، والمراد : التشمير فى الطاعة) ومن ثمرات الخوف . أنه يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه ، إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع فى مخالب سبع ضار ، لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة ، بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف ، بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع محظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمى ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

بيان أقسام الخوف

أعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة ، وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة لا يسأل عما يفعل .

وقد قال : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر .

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها ، مخوفة .

(1) فاطر الآية ٢٨

(2) خرجه الترمذى فى أبواب صفة القيامة ج ٤ ص ٥١ رقم ٢٥٦٧ .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

ذكر خوف نبينا ﷺ

قال صاحب كتاب « الشفا » القاضي عياض :

« وأما خوفه ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه بربه ، ولذلك قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » وفي رواية الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون إلى الله »[1] ، قال أبو ذر : وددت أني شجرة تعضد .

وفي حديث المغيرة : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه . فقيل له : « أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »[2] .

وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلي . فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل . ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة . ثم سجد وقال مثل ذلك . ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة ، يفعل مثل ذلك »[4] . وعن حذيفة مثله .. وعن عبد الله بن الشخير أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

قال ابن أبي هالة : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة . وقال ﷺ : « إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[5] وفي رواية « سبعين مرة » .

---

(1) أخرجه ابن عساكر ج ٥ ص ٢٩٢ وكذلك أتحاف السادة المتقين بشرح علوم الدين ج ٧ ص ٣٠٨ .
(2) أخرجه الترمذي في باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ طبعة دار الفكر بيروت .
(3) أخرجه صحيح مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٧٩ / ٢٨١٩ .
(4) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح باب الذكر في الركوع ج ٢ ص ١٩١ .
(5) أخرجه البيهقي في سننه ج ٧ ص ٥٠ كتاب النكاح باب كان يغان على قلبه فيستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة . وأخرجه صحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ج ٤ ص ٢٠٧٥ رقم ٤١ / ٢٧٠٢ .

ذكر خوف الصحابة رضوان الله عليهم

كان أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد ، وقال : يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل ، وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر — رضي الله عنهم —

وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يسمع آية ، فيمرض فيعاد أياماً ، وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

قال علي بن أبي طالب : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل ، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ولقد صدق من قال فيهم :

يحيون ليلهم بطاعة ربهم ... بتلاوة ، وتضرع وسؤال
في الليل رهبان ، وعند جهادهم ... لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علم الرهان رأيتهم ... يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم ... وبها أشعة نوره المتلالي
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم ... في سورة الفتح المبين العالي
وبرابع السبع الطوال صفاتهم ... قوم يحبهم ذوو إدلال
وبراءة ، والحشر فيها وصفهم ... وبهل أتى ، وبسورة الأنفال

وكان الحسن يقول : إن لله عباداً ، كمن رأى أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى .

وكان سميط يقول : أتاهم من الله وعيد وقذهم ، فناموا على خوف ، وأكلوا على تنغيص .

وقال أحمد بن حنبل — رضي الله عنه — : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

وكان بشر الحافي لا ينام الليل ، ويقول : أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم .

وكلما فه بطارق الكرى ... صاح به الهجران قم لا تنم

قال عمر بن ذر : لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ، ونظروا إلى أهل الغفلة ، قد سكنوا إلى فرشهم ، ورجعوا إلى ملاذهم ، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فرحين مستبشرين ، بما قد وهب الله

لهم من السهر وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وباشروا ظلمته بصفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل ، وما انقضت لذتهم من التلاوة ، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح الفريقان وقد ولى الليل بربح وغبن ، فاعملوا لأنفسكم فى هذا الليل وسواده ، فإن المغبون من غبن خير الدنيا والآخرة ، كم من قائم لله تعالى فى هذا الليل ، قد اغتبط بقيامه فى ظلمة حضرته ، وكم من نائم قد ندم على طول نومه ، عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غداً .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[1] .

فى فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون الغالب منهما

قال ابن قدامة : فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، وهى لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة . قال الله تعالى : **﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾**[2] ، وقال تعالى : **﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾**[3] .

قال النبى ﷺ : قال الله عز وجل : « وعزتى وجلالى ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين إن أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة »[4] (أخرجه ابن حبان عن أبى هريرة ، وسنده حسن) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »[5] .

واعلم : أن قول القائل : أيهما أفضل الخوف . أو الرجاء ؟ كقوله : أيهما أفضل الخبز أو الماء ؟

(١) السجدة الآيتان ١٦ ــ ١٧
(٢) الرحمن الآية ٤٦
(٣) البينة الآية ٨
(٤) أخرجه إتحاف السادة المتقين بشرح أحياء علوم الدين للزبيدى ج ٩ ص ٢١١ .
(٥) أخرجه تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٥ فى تفسير سورة آل عمران آية رقم ٢٠٠ .

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا ، نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء ، دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ــ لأن المعاصى والاغترار من الخلق أغلب .

وهذا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يسأل حذيفة رضى الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا .

وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن خوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه ، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغى لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه ، حسن الظن به .

قوله تعالى : **﴿ ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾** .

ثم نعت سبحانه وتعالى هاتين الجنتين فقال : **﴿ ذواتا أفنان ﴾** أى أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسبيل ، قاله الحسن البصرى ، (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أى فيهما من كل فاكهة صنفان من جميع أنواع الثمار ، مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال ابراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة ، إلا الأسماء ، يعنى أن بين ذلك بوناً عظيماً ، وفرقاً بيناً فى التفاضل . (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فبأى الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟

قوله تعالى : **﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق . وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾** .

بعد أن ذكر سبحانه طعام وشراب أهل الجنة ، ذكر فراشهم ، فقال ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظهائر ؟ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو اخبرتم بالظهائر ؟ .

وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظواهر ؟

قال : هذا ما قال الله فيه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[1] . وفى هذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وإنما ذكر الاتكاء ، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب وراحة البال .

قوله تعالى : ﴿ وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى وثمرها قريب منهم متى شاءوا كقوله تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ﴾[3] فهى لا تمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ؟ .

ثم ذكر سبحانه وتعالى النساء اللواتى يمتعون بهن . فقال تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى فى تلك الجنات ، نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن . فلا يرين شيئاً فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسسهن أحد قبل أزواجهن ، لا من الجن ولا من الإنس .

قال ابن القيم : ظاهر القرآن . أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا ، وإنما هن من الحور العين . وأما نساء الدنيا فنساء الإنس قد طمثهن الإنس ، ونساء الجن قد طمثهن الجن ، والآية تدل على ذلك ، ويدل على أنهن الحور اللاتى خلقهن فى الجنة : أنه سبحانه جعلهن ، مما أعده الله فى الجنة لأهلها ، من الفواكه والثمار ، والأنهار والملابس وغيرها ، ويدل عليه أيضاً الآية التى بعدها . وهى قوله تعالى : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضاً . وقال الامام أحمد مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب »[4] .

وقال الامام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه — يعنى سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما

(١) السجدة الآية ١٧
(٢) الحاقة الآية ٢٣
(٣) الانسان الآية ١٤
(٤) اخرجه الامام أحمد ج ٢ ص ٣٤٥ .

فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » ورواه البخارى عن أنس بنحوه[1] .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[3] .

روى عن ابن عباس أنه قال « هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة » .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ اللهم ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب . فلك الحمد .

قوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قال ابن كثير : هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى الرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ، وقد تقدم فى الحديث الذى اخرجه البخارى جنتان من ذهب وجنتان من فضة ، فالأوليان للمقربين ، والآخريان لأصحاب اليمين ، قال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، والدليل على شرف الأوليين على الآخريين وجوه (أحدها) أنه نعت الأوليين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى ، وقال هناك : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ ، وقال هنا : ﴿ مدهامتان ﴾ أى سوداوان من شدة الرى من الماء .. ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قد اسودتا من الخضرة ، من شدة الرى من الماء .

(١) اخرجه الامام أحمد ج ٣ — ص ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ٢٠٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٤٣٣ .
(٢) الرعد الآية ١٨
(٣) يونس الآية ٢٦

وقال محمد بن كعب القرظى ﴿ مدهامتان ﴾ أى ممتلئتان من الخضرة . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ وقال هناك : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ وههنا ﴿ نضاختان ﴾ قال ابن عباس : أى فياضتان والجرى أقوى من النضخ . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وقال هناك ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم ولهذا فسر قوله ﴿ ونخل ورمان ﴾ من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخارى وغيره وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه ، وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن ، ورد أن الحور يغنين : نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى وهؤلاء الخيرات الحسان ، واسعات العيون ، مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسن بطوافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت ، للدلالة على شدة الصيانة ، قال البخارى عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن »[1] واخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه . ﴿ فبأى آلاء ربكم تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ تقدم تفسيره ، وقوله : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ﴾ أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة ، وفرش رقيقة النسج من الديباج . ووسائد عظيمة ، وبسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ اللهم ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، وكما

(١) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٨٢ تفسير سورة الرحمن .

بدأ سبحانه السورة باسم من أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ختمها كذلك ، فقال تعالى : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ قال ابن عباس ﴿ ذى الجلال والإكرام ﴾ ذى العظمة والكبرياء ، وفى الدعاء المأثورة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » .

دعـاء :

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنبى جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك أنابك وإليك ، تباركت وتعاليت . استغفرك وأتوب إليك » .

(رواه مسلم وأبو داود والنسائى وأحمد) .

تفسير سورة الواقعة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : ست وتسعون

وكلماتها : ثلاثمائة وثمان وسبعون .

وحروفها : ألف وسبعمائة وثلاث .

مجموعة فواصل آياتها (لابد من) على الباء منها آية واحدة : (وماء مسكوب) .

سميت بسورة الواقعة ، لمفتتحها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : ظهور واقعة القيامة ، وأصناف الخلق بالاضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشمال ، والغرق فى بحار الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة ، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع ، وحديث الماء والنار ، وما فى ضمنهما . من النعمة والمنة ، ومس المصحف ، وقراءته فى حال الطهارة ، وحال المتوفى فى ساعة السكرة ، وذكر قوم بالبشارة ، وقوم بالخسارة والخطبة على جلال الحق تعالى بالكبرياء والعظمة بقوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

المتشابهات

قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ أعاد ذكرها . وكذلك ﴿ أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ﴾ ، ثم قال ﴿ السابقون ﴾ لأن التقدير عند بعضهم . والسابقون ما السابقون فحذف (ما) لدلالة ما قبله عليه . وقيل تقديره : أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، والسابقون ، ثم ذكر عقيب كل واحد منهم تعظيماً أو تهويلاً ، فقال : ما أصحاب الميمنة ، ما أصحاب المشأمة ، والسابقون أى هم السابقون ، والكلام فيه يطول .

قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ . ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ﴾ ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه ، وهو الحب الذى منه قوته ، ثم الماء الذى منه سوغه وعجنه ، ثم النار التى منها نضجه وصلاحه ، وذكر عقيب كل واحد ما يأتى عليه ويفسده ، فقال فى الأولى : ﴿ نحن قدرنا بينكم ﴾ وفى الثانية : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ وفى الثالثة : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ﴾ ولم يقل فى الرابعة ما يفسدها ، بل قال : نحن جعلناها تذكرة ، يتعظون بها ومتاعا للمقوين : أى للمسافرين ينتفعون بها .

وجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ، ونعيم المتقين . وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين ، وجنتى بعض آخر منهم . وبين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة ، وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) أنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رج الأرض . فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعاً سورة واحدة مع عكس فى الترتيب . فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) ﴾

معانى المفردات

﴿ وقعت ﴾ أى حدثت . ﴿ والواقعة ﴾ القيامة . ﴿ لوقعتها ﴾ أى لوقوعها . ﴿ كاذبة ﴾ أى كذب . ﴿ رجت ﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً . ﴿ بست ﴾ أى فتت وصارت كالسويق الملتوت . ﴿ هباء ﴾ أى غباراً . ﴿ منبثا ﴾ أى متفرقاً . ﴿ أزواجاً ﴾ أى أصنافا . ﴿ الميمنة ﴾ ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال . ﴿ والسابقون ﴾ هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا . ﴿ والمقربون ﴾ هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم . ﴿ والثلة ﴾ الجماعة . قلت أو كثرت . وقيل : الجماعة الكثيرة من الناس . ﴿ موضونة ﴾ من الوضن وهو النسج . ﴿ أكواب ﴾ أى آنية لا عرا لها ولا خراطيم . ﴿ أباريق ﴾ واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . ﴿ كأس من معين ﴾ أى خمر جارية من العيون ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا . ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ أى لا يلحقهم صداع بسببها ، كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا المحرمة . ﴿ ولا ينزفون ﴾ أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها . ﴿ يتخيرون ﴾ أى يختارون . ﴿ حور ﴾ واحدتهن حوراء : أى بيضاء . ﴿ عين ﴾ واحدتهن عيناء ، أى واسعة العينين . ﴿ المكنون ﴾ المصون الذى لم تمسسه الأيدى . وهى أصفى وأبعد من التغير .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله أراك قد شبت ! قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت »[1] (رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ووافقه الذهبى) .

قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع ، والوعيد الشديد ، لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما فى بعضهن من الأمر بالاستقامة .

قوله تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة ، وسميت واقعة ، لأنها تقع عن قرب ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وفيه إضمار ، أى اذكروا إذا وقعت الواقعة .

وقوله : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ قال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائى أيضاً : ليس لها تكذيب ، أى ينبغى ألا يكذب بها أحد ، وقال قتادة : لا يردها شيء كما قال سبحانه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال قتادة : خفضت أقواماً فى عذاب الله ، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء الله فى الجنة .

---

(1) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير فى تفسير سورة الواقعة ج ٥ ص ٧٠ رقم ٣٣٥١ ، أخرجه الحاكم ج ٢ ص ٣٤٣ كتاب التفسير .
(2) المعارج الآيات ١ ، ٢ .

وقال محمد بن كعب القرظى : خفضت أقواماً كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا فى الدنيا مخفوضين ، والخفض والرفع يستعملان ــ عند العرب ــ فى المكانة والمكان ، والعز والمهانة ، ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة ، توسعاً على عادة العرب فى اضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ، مما لم يكن منه الفعل ، والخافض والرافع على الحقيقة ، إنما هو الله وحده ، فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض اعداءه فى أسفل الدركات . (قاله القرطبى) .

قوله تعالى : ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أى زلزلت وحركت ، كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها ﴾[1] . وكما قال سبحانه : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أى فتت ، قال مجاهد : كما يُبس الدقيق ، أى يُلت ، كما قال جل وعلا : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾[3] ، لذا قال سبحانه : ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ قال عكرمة : المنبث الذى قد ذرته الريح وبثته ، أى ونشرته ، وقال قتادة (هباء منبثاً) كيبس الشجر الذى تذروه الرياح ، وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال الرواسى عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها ، أى قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش .

قوله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ﴾ قال العلامة ابن كثير :

أى وينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين ، قال السدى : وهم جمهور أهل الجنة وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ، ويؤتون كتبهم بشمائلهم ، ويؤخذ بهم ذات الشمال ، وهم عامة أهل النار ــ عياذاً بالله من صنيعهم ــ وطائفة سابقون بالخيرات ، بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء ،

---

(1) الزلزلة الآيات ١ ــ ٣
(2) الفجر آية ٢١
(3) طه الآيات ١٠٥ ــ ١٠٧

والصديقون والشهداء ، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ، وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأول الناس رواحاً إلى الصلاة ، وقال سعيد بن جبير : السابقون إلى التوبة وأعمال البر ، قال الله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾[1] . قال ابن كثير : وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين ، هم المبادرون إلى فعل الخيرات ، كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾[3] . فمن سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى فعل الخير ، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، لذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون فى جنات النعيم ﴾ أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا الحظوة عند ربهم ، وهم فى جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين أنهم (ثلة) أى جماعة من الأولين وقليل من الآخرين ، وقد اختلفوا فى المراد بقوله الأولين والآخرين ، فقيل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة »[4] ولم يحك غيره ، ولا عزاه إلى أحد ، ومما يستأنس به لهذا القول ، ما رواه الإمام : أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت : « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبى ﷺ « انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثانى »[5] ورواه أحمد بسنده عن أبى هريرة ، وهذا الذى اختاره ابن جرير ههنا ، فيه نظر بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ،

(١) ، (٢) آل عمران الآية ١٣٣
(٣) الحديد الآية ٢١
(٤) أخرجه بن جرير الطبرى فى تفسيره ج ٢٧ ص ٩٩ وكذلك للسيوطى كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٧ ص ٤٩٠ الآية رقم ١٣ ، ١٤ .
(٥) خرجه أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٥٠٤ .

والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم . فالأ... وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أى ... الآخرين ﴾ أى من هذه الأمة . ثم قال ابن كثير : ولا شك أن نعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت ... الله ﷺ قال : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...

قوله تعالى : ﴿ على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ﴾ أى السابقون فى على سرر ، جمع سرير منسوجة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت ، قال مجاهد ... سرر موضونة) : مرمولة بالذهب ، أى منسوجة بالذهب . ﴿ متكئين عليها ﴾ أى على السرر ﴿ متقابلين ﴾ أى لا يرى بعضهم قفا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ، أى يتكئون متقابلين ، قاله مجاهد وغيره .

قال الكلبى : طول كل سرير ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت ، فإذا جلس عليها ارتفعت ، قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ .

قوله : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ قال مجاهد : أى غلمان لا يموتون ، وقال الحسن : لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقد وصف الله حسنهم فى قوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾[3] .

وقوله : ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ أما الأكواب ، فهى الكيزان ، التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التى جمعت الوصفين ، والكئوس الهانات ، والجميع من خمر من عين جارية ، معين ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ رقم ٢١٠ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .
(٢) الواقعة الآية ٣٤
(٣) الطور الآية ٢٤
(٤) الإنسان الآية ١٩

وقوله تعالى : ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ أى لا تصدع رءوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة ، واللذة الحاصلة ، روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال السكر ، والصداع ، والقىء ، والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال .

وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون ﴾ أى ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، كما قال تعالى : متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ قال الامام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى فى شجر الجنة ، فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال : ﴿ آكلها أنعم منها — قالها ثلاثاً — وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها »[2] . وقال الحسن بن عرفة بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً »[3] .

قوله تعالى : ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أى وحور عين ، كأنهن الرطب فى بياضه وصفائه ، كما وصفهن سبحانه فى أكثر من موضع بقوله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾[4] وبقوله : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى هذا الذى اتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ، كقوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾[6] .

ثم قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أى لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغياً ، أى عبثاً خالياً عن المعنى ، أو مشتملا على شىء حقير ، أو ضعيف ﴿ إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ أى إلا التسليم منهم بعضهم على بعض . كما قال تعالى : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾[7] . اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام . اللهم انا نسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

---

(١) ص الآية ٥١
(٢) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٢٢١ .
(٣) اخرجه تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢١ ج ص ٤٤ واخرجه الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٥٢٧ رقم ٣
(٤) الصافات الآية ٤٩
(٥) الرحمن الآية ٥٨
(٦) الإنسان الآية ٢٢
(٧) يونس الآية ١٠

أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

معانى المفردات

﴿ السدر ﴾ شجر النبق ، ﴿ مخضود ﴾ أى خضد شوكه ، أى قطع ، ﴿ الطلح ﴾ شجر الموز ، ﴿ منضود ﴾ أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ، فليست له سوق بارزة ، ﴿ ممدودة ﴾ أى منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، ﴿ مسكوب ﴾ أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، ﴿ فرش ﴾ واحدها فراش كسُرُج وسراج ، ﴿ مرفوعة ﴾ أى عالية منضدة ، ﴿ عرباً ﴾ أى متحببات إلى أزواجهن ، ﴿ أتراباً ﴾ : أى متساويات فى السن واحدهن ترْب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال السابقين ، وبين ما لهم من نعيم مقيم فى جنات النعيم — أردف ذلك ذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات ، يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة ، التى لا تنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ إلى أى شىء أصحاب اليمين ، وما حالهم وكيف مآلهم ، ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ فى سدر مخضود ﴾ قال الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجلر بسنده عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب

ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوماً فقال يا رسول الله : ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هى ؟ » قال : السدر فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فى سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فتنور الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ قال مجاهد : أى متراكم الثمر ، وقال ابن عباس يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال العلامة ابن كثير : لعل هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد أنه قال (وطلح منضود) قال : الموز[2] قال وروى عن ابن عباس وأبى هريرة والحسن وعكرمة وأبى قتادة مثل ذلك وبه قال مجاهد وابن زيد وزاد فقال أهل اليمن يسمون الموز الطلح ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

قوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها . اقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ . وكذا رواه مسلم وأحمد[3] وفى رواية أحمد « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين أو مائة سنة هى شجرة الخلد » . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾[4] ، وقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا ﴾[5] ، وقوله : ﴿ إن المتقين فى ظلال وعيون ﴾[6] ، قوله تعالى : ﴿ وماء مسكوب ﴾ أى مصبوب لا يحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه .

---

(١) اخرجه تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢٨ ج ٨ ص ٣ . واخرجه أيضا الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٥٢٧ ــ ٥٢٨ باب نعيم أهل الجنة .

(٢) اخرجه تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢٩ ج ٨ ص ٤ .

(٣) اخرجه البخارى كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ج ٤ ص ١٤٤ ، اخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إن فى الجنة شجرة ج ٤ ص ٢١٧٥ ، اخرجه احمد فى مسنده ج ٣ ص ١٣٥ رقم ٦ / ٢٨٢٦ . واخرجه الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٥١٩ فصل فى شجر الجنة وثمارها رقم ٥١ .

(٤) النساء الآية ٥٧

(٥) الرعد الآية ٣٥

(٦) المرسلات الآية ٤١

وقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان والطعوم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ﴾[1] ، أى يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم ، وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر[2] ، وفيهما أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، قال : « إنى رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا . الحديث »[3] وقوله تعالى : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شئ ، وقال قتادة لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقد تقدم فى الحديث : إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها الأخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أى وفرش عالية وطيئة ناعمة ، وقوله تعالى : ﴿ انا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ﴾ . قال ابن القيم فى تفسير هذه الآيات :

أعاد الضمير إلى النساء ، ولم يجر لهن ذكر ، لأن الفرش دلت عليهن ، إذهى محلهن ، وقيل : الفرش فى قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ كناية عن النساء ، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها ، ولكن قوله : ﴿ مرفوعة ﴾ يأبى هذا إلا أن يقال : المراد رفعة القدر ، وقد تقدم تفسير النبى ﷺ للفرش وارتفاعها .

فالصواب : أنها الفرش نفسها ، ودلت على النساء ، لأنها محلهن غالباً .

قال قتادة وسعيد بن جبير : خلقناهن خلقاً جديداً ، وقال ابن عباس : يريد نساء الآدميات .

وقال الكلبى ومقاتل : يعنى نساء أهل الدنيا العجز والشمط ، يقول الله تعالى : خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول فى الدنيا . ويؤيده ما رواه يحيى الحمانى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، وعندها عجوز ، فقال : من هذه ؟ فقلت : احدى خالاتى ، فقال :

---

(١) البقرة الآية ٢٥

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ج ١ ص ١٤٥ رقم ٢٥٩ / ١٦٢ .

(٣) اخرجه سنن النسائى بشرح السيوطى فى كتاب الكسوف باب قدر القراءة فى صلاة الكسوف ج ٣ ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

أما إنه لا يدخل الجنة عجوز ، فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله ، فقال النبي ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء » خلقاً آخر ، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، وأول من يكسى ابراهيم خليل الله ، ثم قرأ النبي ﷺ « إنا أنشأناهن انشاء »[1] .

وقال آدم بسنده عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ « يعني الثيبات والأبكار اللاتي كن في الدنيا »[2] .

وقال آدم بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة العجز » فبكت عجوز ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز ، إنها يومئذ شابة ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾[3] وذكر مقاتل قولاً آخر ، وهو اختيار الزجاج : أنهن الحور العين اللاتي ذكرهن قبل ، أنشأهن الله عز وجل لأوليائه ، لم يقع عليهن ولادة .

والظاهر : أن المراد أنشأهن الله في الجنة إنشاء ، ويدل عليه وجوه أحدها : أنه قد قال في حق السابقين : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب ــ إلى قوله ــ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ فذكر سدرهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم ، وأزواجهم من الحور العين ، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم ، وفرشهم ونساءهم ، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقهن في الجنة .

الثاني : أنه سبحانه قال : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان ، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك ، كقوله : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾[4] .

الثالث : أن الخطاب بقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ إلى آخره : للذكور والإناث . والنشأة الثانية أيضا عامة للنوعين ، وقوله : ﴿ انا أنشأناهن إنشاء ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء . وتأمل تأكيده بالمصدر ، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف ، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة ، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات ، بل هن أحق به منهن فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم .

(١) اخرجه الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ج ٨ تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٥ طبعة دار الفكر .
(٢) اخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ . واخرجه أبو داد الطيالسي ج ٦ ص ١٨٥ رقم ١٣٠٧ .
(٣) اخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ الآية رقم ٣٥ .
(٤) النجم الآية ٤٧ .

وقوله ﴿ عرباً ﴾ جمع عروب ، وهن المتحببات إلى أزواجهن ، قال ابن الأعرابي : العروب من النساء : المطيعة لزوجها ، المتحببة إليه . قلت : يريد حسن موافقتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع .. وذكر المفسرون في تفسير العُرب . أنهن العواشق المتحببات .. قلت : فجمع سبحانه بين حسن صورتها ، وحسن عشرتها . وهذا غاية ما يطلب من النساء ، وبه تكمل لذة الرجل بهن . وقوله : ﴿ أتراباً ﴾ أي كلهن في سن واحدة ، لا تمتاز واحدة عن أخرى .

اخراج الترمذي في الشمائل بسنده عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ حور عين ﴾ قال « حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي . قلت اخبرني عن قوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه . قلت أخبرني عن قوله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال « رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقىء » قلت يا رسول الله اخبرني عن قوله : ﴿ عربا أترابا ﴾ قال : « هن اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات محببات أترابا على ميلاد واحد » قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين . قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة . قلت يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل . ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب ، يقلن نحن الخالدات ، فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له ، وكان لنا ، قلت يا رسول الله : المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت ، فتدخل الجنة ، ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ » قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقا ، فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقا معي فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »[1] وقال الطبراني بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »[2] . وقال أبو داوود الطيالسي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء قلت يا رسول الله ويطيق ذلك ؟ قال يعطى قوة مائة »[3] .

(١) اخرجه تفسير بن كثير تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٠ .
(٢) اخرجه الطبراني في المعجم الصغير ج ١ ص ٩١ . واخرجه أيضا تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ .
(٣) اخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ واخرجه أبو دوود الطيالسي في مسنده ج ٨ ص ٢٦٩ رقم ٢٠١٢ .

وقوله تعالى : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أى خلقهن لأصحاب اليمين وقوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ أى جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين ، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين . قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ﴿ ثلة من الأولين ، ثلة من الآخرين ﴾ قال رسول الله ﷺ « هما جميعاً من أمتى »[1] .

أصحاب الشمال

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦) ﴾

معانى المفردات

﴿ السموم ﴾ حر نار ينفذ فى المسام ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ واليحموم ﴾ دخان أسود ، كما قال ابن عباس : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى لا هو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، ﴿ مترفين ﴾ أى متنعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على شىء مما جاء به الرسل ، ﴿ يصرون ﴾ أى يقيمون ولا يقلعون ، ﴿ الحنث العظيم ﴾ أى الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله ، ﴿ والميقات ﴾ ما وقت به الشىء ، والمراد به يوم القيامة ، وسمى به ، لأنه وقتت به الدنيا .

(١) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٩١ .
وأخرجه أيضا تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية رقم ١٣ ، ١٤ ج ٧ ص ٤٩٢ ، ج ٨ ص ١٥ .

﴿ وشجر الزقوم ﴾ شجر ينبت فى أصل الجحيم . ﴿ والهيم ﴾ واحدها أهيم وهو الجمل الذى يصيبه الهيام – بالضم – وهو داء يشبه الاستسقاء ، يصيب الأبل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقما شديداً . ﴿ النزل ﴾ ما يقدم للضيف إذا نزل تكرمة له . ﴿ ويوم الدين ﴾ يوم الجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه زوجين من الأزواج الثلاثة ، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم وشرف عظيم ، فى جنات ونعيم ، فى جملة شئونهم ، فى مآكلهم ومشاربهم وفرشهم ، وأزواجهم – أردف ذلك ذكر الزوج الثالث ، وبين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال . ثم أعقبه بذكر السبب فى هذا ، بأنهم كانوا فى دنياهم مترفين غارقين فى ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ، ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتما ، وأن مآكلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة فى هذا اليوم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ .

أى وأصحاب الشمال فى حال لا يستطاع وصفها ، ولا يقدر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المبهم بقوله تعالى : ﴿ فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ﴾ أى هم فى حر ينفذ فى المسام ، وماء متناه فى حرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم . يؤلم من يستظل به ، وذكر السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموماً ، وماءهم الذى يستغيثون به حميماً ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بحالهم مع حرها ؟

كقوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جملت صفر ويل يومئذ للمكذبين ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر كما قاله الحسن وقتادة ، ﴿ ولا كريم ﴾ أى ولا كريم المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى . فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة ..

ثم ذكر سبحانه السبب فى تعذيبهم ، فقال تعالى :

﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ﴾ .

أى كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وكانوا يصرون ﴾ أى يقيمون ولا يتوبون توبة ﴿ على الحنث العظيم ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ، قال ابن عباس : الحنث العظيم الشرك ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يعنى أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه . قال الله تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أى أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم ، سيجمعون من عرصات إلى عرصات القيامة ، لا يغادر منهم أحداً ، كما قال تعالى : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم

(١) المرسلات الآيات ٢٩ — ٣٤
(٢) الصافات الآيات ٣٤ — ٣٩
(٣) مريم الآيات ٩٣ — ٩٥

نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾[١] ، ولهذا قال ههنا ﴿ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أى هو موقت بوقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ، قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين ﴾ .

أى أيها الذين ضللتم فأصررتم على الذنب العظيم ، إذ لم توحدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتم رسله ، فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم — إنكم لآكلون من شجر الزقوم ، فمالئون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك ماء حار لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلاً .

كما قال تعالى : ﴿ أذلك خير نزلاً ، أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾[٢] ، وكما قال تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[٣] .

أخرج الامام أحمد بسنده عن مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن ليس له طعام إلا من الزقوم »[٤] وكذلك رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ أى هذا الزقوم المأكول والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم ، كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار ؟ ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[٥] .

(١) هود الآيات ١٠٣ — ١٠٥
(٢) الصافات الآيات ٦٢ — ٦٨
(٣) الدخان الآيات ٤٣ — ٥٠
(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٠١
(٥) الدخان الآيات ٤٩ — ٥٠

من دلائل التوحيد

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

معاني المفردات

﴿ تمنون ﴾ أي تقذفون في الأرحام من النطف . ﴿ تخلقونه ﴾ أي تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً تام الخلق ، ﴿ قدرنا ﴾ أي قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، ﴿ نبدل أمثالكم ﴾ أي نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ أي من الخلق والأطوار التي لا تعهدونها ، ﴿ فلو لا تذكرون ﴾ أي فهلا تتذكرون ذلك ، ﴿ تحرثون ﴾ أي تبذرون حبه وتعملون في أرضه ، ﴿ تزرعون ﴾ أي تنبتونه وتجعلونه نباتاً يرف ، ﴿ حطاماً ﴾ أي هشيماً متكسراً متفتتاً لشدة يبسه بعد ما أنبتناه ، ﴿ تفكهون ﴾ أي تتعجبون من سوء حاله ، ﴿ مغرمون ﴾ أي معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك ، ﴿ محرومون ﴾ أي غير مجدودين ، فليس لنا جد وحظ ، ﴿ المزن ﴾ السحاب واحدته مزنه ، ﴿ أجاجا ﴾ أي ملحاً زعاقاً ، لا يصلح لشرب ولا في زرع ، ﴿ لولا ﴾ بمعنى هلا ، وهي كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها . ﴿ تورون ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد

﴿ تذكرة ﴾ تذكيراً بالبعث ، ﴿ ومتاعاً ﴾ أي منفعة ، ﴿ للمقوين ﴾ أي للمسافرين الذين يسكنون القواء : أي القفر والمفاوز . ﴿ فسبح ﴾ أي تعجب من أمرهم وقل : سبحان الله العظيم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها ، وفصل ما يلقاه السابقون ، وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لا ريب في جحيم وعشاق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم ، لأنهم أشركوا بربهم ، وعبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء — أردف ذلك اقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورزق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم ثبت الأصل الثالث ، وهو النبوة فيما بعد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ .

قال ابن كثير :

يقول تعالى مقرراً المعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾[1] ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أى نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، أفليس الذى قدر على البداءة ، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا تصدقون ﴾ أى فهلا تصدقون بالبعث ، ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ أى أنتم تقرونه في الأرحام ، وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أى صرفناه بينكم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أى وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أى نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أى من الصفات والأحوال ، ثم قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أى قد علمتم ان الله أنشأكم ، بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون ، وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن

(١) المؤمنون الآية ٨٢

ذلك على الله يسير قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[2] . وكقوله جل شأنه : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[3] ، وكقوله جل وعلا : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾[4] ، وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[5] .

فلينظر الإنسان مم خلق

خلق الإنسان من نطفة ، قذيفة منوية تشتمل على أكثر من ٨٠ مليون كائن منوى فى السنتيمتر الواحد . هذه القذيفة ، إذا صبت فى الأرحام لا يصلح منها للإنجاب ، إلا كائن منوى واحد . هذا الكائن المنوى لا تراه إلا بالمجهر المكبر حجمه ١٠٠٠٠ / ٥٢ من المليمتر ، مفلطح الرأس طويل الذنب يسبح فى ظلمات بسرعة ١/٢ مليمتر فى الثانية الواحدة ، خلق منه الإنسان فى كل مرة يجتمع فيها الذكر والأنثى ، تنساب ملايين الحيوانات المنوية ، لكى تسبح بذيولها حول بويضة صغيرة .. تراها بالميكروسكوب تضرب بذويلها ، وكأنها ترقص ومن بين هذه الملايين ، يخترق حيوان واحد جدار البويضة ، ترى هو أقوى هذه الحيوانات المنوية ؟ أبداً .. هل هو أضعفها ؟ أبداً .. هل هو ؟ .. هل هو ؟! أبداً قد يكون الحيوان العليل الذى يحمل المرض الوراثى ، هو الذى يخترق جدار البيوضة ، وتبقى ملايين الحيوانات المملوءة صحة خارجها ، قد يكون أضعفها ، قد يكون وقد يكون . العلماء يقولون نحن نعرف أن هذه العملية لا تخضع لأى قانون مدون ، ونحن نقول إنها تخضع لإرادة الله لمشيئة الله .

(1) العنكبوت الآيات ١٩ ــ ٢٢
(2) الروم الآية ٢٧
(3) يس الآيات ٧٧ ــ ٧٩
(4) الطارق الآيات : ٦ ــ ١٠
(5) المؤمنون الآيات ١٢ ــ ١٧

وفى الثانية التى يخترق الحيوان المنوى جدار البويضة يتحدد كل شيء أليس عجباً !! يتحدد نوع الجنين هل هو ذكر أو أنثى ــ لون بشرته ، لون شعره ــ تصميم هيكله الجسدى ــ طويل أم قصير ، بدين أم رفيع ــ تناسق الأطراف ــ الأمراض الوراثية التى يحملها ، كل شيء .. كل شيء ؟ .

والآن هل تعرف ما هو وزن الخلية التى حددت كل هذه الصفات ؟ وزنها ٦ من مليون من الجرام ، أى : أنك إذا جئت بجرام ثم قسمته إلى مليون جزء يكون وزن الخلية ستة أجزاء منه أترى الإعجاز ؟ ! وتنمو الخلية الملقحة هذه داخل الرحم .

رحم طوله ٧ سم وعرضه ٥ سم وسمكه ٢ ١/٢ سم . هل فيه ضوء يضيء له حتى يخلق ؟ لا بل ظلمات ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[1] . هل صورك فى الأشعة تحت الحمراء ؟ هل صورك فى الأشعة فوق البنفسجية ؟ هل صورك فى ضوء الشمس أو ضوء القمر ؟ لا .

إذاً فى أى شيء صورك ؟! فى ظلمات ثلاث ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾[2] .

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل
أنهى
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنات توحيد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

ــ (مستفاد من كتاب القرآن والإعجاز فى خلق الإنسان للدكتور طاهر توفيق) .

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . ﴾ .

هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته ، أى : أخبرونى عن البذر الذى تلقونه فى الطين ﴿ أأنتم

(1) سورة آل عمران الآية ٦
(2) سورة الزمر الآية ٦

تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ أى : أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحب ، أم نحن الفاعلون لذلك ؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذى يخرج الحب وينبت الزرع فكيف تنكرون إخراجه الأموات من الأرض ؟ .

قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[3] . وقال جل ذكره : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾[4] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[5] .

وقال سبحانه : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾[6] .

(١) سورة الأنعام الآية ٩٩
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧
(٣) سورة الحج الآيات ٥ ـ ٧
(٤) سورة النمل الآية ٦٠
(٥) سورة عبس الآيات ٢٤ ـ ٣٢
(٦) سورة يس الآيات ٣٣ ـ ٣٦

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصارهن الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ... وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى ... يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره ... وزانه بأنجم كالدرر المنتثرة
انظر إلى الليل فمن ... أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم ... كالدرر المنتثرة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
انظر إلى الشمس التى ... جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها ... حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها ... فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
انظر إلى المرء وقل ... من شق فيه بصره
من الذى جهزه ... بقدرة مفتكره
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذوحكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة

قوله تعالى : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ﴿ ولو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أى : لأيبسناه قبل استوائه واستحصاره ، ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ أى : فظللتم وبقيتم تفجعون وتحزنون على الزرع مما حل به وتقولون : ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قال قتادة : أى : لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أى : بل نحن محرومون الرزق ، غرمنا قيمة البذر ، وحرمنا خروج الزرع .

نظرة فى حياة النبات

يقول الأستاذ الدكتور / محمد أحمد الغمراوى ــ رحمه الله ــ فى كتابه « الاسلام فى عصر العلم » ما نصه :

« إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يؤخذ الأكسجين وثانى أكسيد الكربون وأحياناً الأزوت ، ومن الأرض يؤخذ الماء وبعض الأملاح ، خصوصاً الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعاً فى كل هذا ، لكن محور هذا التغذى ، وهو تمثيل ثانى أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا فى الأجزاء الخضراء من النبات ، سواء كانت الخضرة فى الساق ، أو الفروع ، أو الأوراق ، لكن ما يحدث فى غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث فى الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال : إن حياة النبات ، وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثانى أكسيد الكربون فى الأوراق الخضراء » .

إن النبات يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الأرض وتسقى بالماء فتنبت ، أى : تتفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملاً ورقتين صغيرتين خضراوتين .

هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الإنبات : لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأوكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء ، وعلى الجذير والوريقتين يتوقف تغذى النبات بعد ذلك . فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض ، والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ ــ تمتص الأوكسجين من الهواء لإحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقاً بطيئاً . وتطرد فضلات التغذى من ثانى أوكسيد الكربون وبخار الماء ، هذه عملية تنفسية ، وتجرى ليلاً ونهاراً ، وهى وان كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ ــ تمتص ثانى أوكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيراً كيماويا باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا تمثلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح . وينشأ عنها من ناحية أخرى أوكسجين بقدر ما كان فى ثانى أوكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم : إن النبات فى التمثيل الخضرى

يحلل ثانى أوكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأوكسجين ، والواقع انه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيباً تنتج عنه مواد عضوية وأوكسجين بقدر ما كان فى ثانى أوكسيد الكربون ، وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الإنبات انما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير ، فالجذير يمتص الماء والأملاح ، والوريقات تمتص الأوكسجين وثانى أوكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى : تحوله إلى مواد معقدة نسبياً إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها ، وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر ، والسويق إلى ساق ، والوريقات إلى أوراق كثيرة ، ثم إذا جاء دور الإثمار إلى أزهار وحب وثمار .

لكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لابد لإتمامه من طاقة . فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ، ولكن الله سبحانه وتعالى ــ يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس : يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثانى أوكسيد الكربون والماء ، أى : أنه تحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه . لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى إلا نهاراً فى حين ان التنفس يجرى نهاراً وليلاً . وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيراً فى الشمس منه فى الظل ، على أن للتمثيل الخضرى فى الضوء حدا أقصى يقف عنده قلما يبلغه النبات ولو فى الشمس ، لأنه متوقف ــ أيضاً ــ على مقدار ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء ، وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية ، وثانى أوكسيد الكربون ، والماء من ناحية أخرى أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل . أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر . وأما ثانى أوكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول . فقريباً من وجه الأرض مثلاً تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ إلى ١٣ فى كل ١٠٠٠٠ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢,٧ إلى ٢٢٩ ، وفى الشتاء من ٣ إلى ٣,٦ فى كل ١٠٠٠٠ ، وتزداد النسبة طبعاً وانتشار الغازات كفيلان بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٢,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة ، لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدار هائلاً

من ثاني أوكسيد الكربون قدروه بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوي على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز في الهواء .

على أن هذا المقدار الهائل لا يكفي حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاماً . إن سرعة التمثيل الخضري تختلف طبعاً باختلاف النباتات ، واختلاف الظروف ، لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر في الظروف المسعدة ينتج بالتمثيل الخضري من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة في الساعة ، فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر في أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها في فصول نشاطها في العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التي يخلقها الله بالتمثيل الخضري في درجة الحرارة العادية كل عام ، صحيح أن هذه المواد تداخل في عناصرها الأوكسجين والأيدروجين وما إليهما جانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدروه بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ إلى ٨٠ بليون كيلو جرام من ثاني أوكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثاني أوكسيد الكربون في الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات في نحو ثلث قرن ، ووقفت بوقوفها الحياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضرورياً للحياة ، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت . إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار في الأرض ، يكفي أن يستنفد عنصر واحد منها في جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض ، فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل ، في النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التي يخلق الله منها الجيل الذي بعده . فالأوكسجين يستمده الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثاني أوكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضري ، والكربون يستمده النبات من ثاني أوكسيد الكربون من الجو . ويتغذى الحيوان بالنبات ، ثم يموت النبات ، فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثاني أوكسيد الكربون ، فيما يتحول إليه ، ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثاني أوكسيد الكربون فيما يتحول إليه ، ويصعد ثاني أوكسيد الكربون في الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضري وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض ، وأحياناً من أزوت الجو فيحوله إلى جزء منه ، ويتغذى الحيوان بالنبات وتتحلل فضلاتهما وأجسامها في الأرض بعد الموت ، وتتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد في الجو ، وفي الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

... طبعاً هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحي فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفد منه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء في حلقة أخرى . وقد وازن الله — سبحانه — بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار ، وهذا هو سر خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الإنسان ، فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوتي حظاً من العلم في هذا العصر الحديث .

تلك أمثلة من دورة المادة في حياة النبات والحيوان ، أو بين الحياة والموت . وللتمثيل الخضري أثر عظيم فيها . أما الطاقة التي تقوم عليها حياة الكائن الحي ، كما تقوم على المادة ، فليس لها دورة . أو ليس يعرف الإنسان لها دورة ، إنما الطاقة على سطح الأرض مستمدة كلها من الشمس ، وللتمثيل الخضري في ذلك أعظم الأثر .

إن الإنسان والحيوان ينتفع طبعاً بما يصله من حرارة الشمس وضوئها المباشر وكذلك النبات ينتفع باعتدال الجو حوله ، لكن هذا على عظمه لا يكاد يذكر بجانب انتفاع النبات بما يمثله ويخزنه من ضوء الشمس ، أو بجانب انتفاع الحيوان بالطاقة المخزونة في النبات . فالطاقة التي يخزنها النبات من الشمس هي جزء من صميم كيانه كالمادة التي يأخذها من الهواء أو من الأرض . والإنسان والحيوان يستمد مادته وطاقته من النبات ، فهو حين يتغذى بالنبات ليس يأخذ مادة النمو فقط ، ولكن يأخذ طاقة للعمل . وكل طاقة له خارجية مردها في النهاية إلى النبات . ومصدرها الأول هو الشمس .

فالنار التي يستدفئ بها الإنسان ، أو التي يستوقدها في قطاراته أو سفنه التجارية أو آلاته الصناعية . كلها نباتي الأصل ، سواء أكانت نار خشب ، أم نار فحم ، أو نار زيت أم نار كحول . أو نار بنزين ، حتى نار البترول الذي يختلفون في مصدره أحيواني هو أم نباتي أو معدني مردها — أيضا — إلى النبات في النهاية .

فعلى النبات مدار حياة الحيوان وحياة الإنسان ، لا من حيث المادة فحسب ، ولكن من حيث الطاقة التي هي بالفعل وبالحرف أهم من المادة .

ومدار النبات في مادته وطاقته على التمثيل الخضري المتوقف على الضوء من ناحية وعلى نواتج التحلل والتعفن والاحتراق من ناحية أخرى ..

لكنا نريد مع ذلك إلا نترك هذا الفصل حتى ننظر معك في آيتين اللتين لن تجد صعوبة في فهم

اشاراتهما الواضحة إذا استحضرت ما قدمناه لك من الحقائق . الأولى : آية سورة الأنعام ، والثانية آية سورة يس ، كلاهما تنبه إلى أثر التمثيل الخضرى فى الحياة ، إلا أن آية سورة يس تؤكد فيه ناحية الطاقة ، وآية سورة الأنعام تؤكد فيه ناحية النمو .

أما آية سورة يس ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[1] .

فمفتاح معناها وصف الشجر بالأخضر ، وترتيب النار على خضرة الشجر . ومن يعرف أثر الخضرة فى نمو الشجر ، وفى بناء كيانه الخشبى على الأخص ، وفى اختزانه ما فى ذلك الكيان من طاقة تبدو ناراً عند الاستيقاد ، لا يجد صعوبة فى إدراك سر ترتيب النار على الخضرة ، أو فى تبين عظمة الآية وبلاغتها وإعجازها . ومن لم يعرف هذا تحير أمامه هذا الترتيب الغريب ، وراح يتلمس للآية توجيها يذهب بها فى غير وجهها ، كما فعل من تلمس تفسير الآية فى سهولة اتقاد المرخ والعفار .

على أن هناك قرينة قرآنية قوية تعين أن نفهم الآية الكريمة على هذا الوجه الذى ذكرناه ، ألا وهى قرينة السياق .

إن تلك الآية الكريمة إنما سيقت رداً على منكرى البعث . بعث الإنسان بعد أن يصير عظماً رميماً ﴿ **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال من يحى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾[1] . فلابد أن يكون هناك صلة بين معناها وبين مسألة البعث ، كما لابد أن يكون هناك حجة فيها على منكرى البعث . أما الصلة فظاهرة من أن الآية متصل موضوعها اتصالاً وثيقاً بحياة النبات وإنشائه حياً نامياً قوياً ، بعد أن كان بذرة أو نواة لانماء بها ولا حياة ، وتزداد الصلة بأمر البعث وضوحاً باتضاح الحجة التى فى الآية على منكر البعث ، والتى تقوم على أن جميع نماء الشجر ومادته وطاقته ، بعد خروج أول وريقتين خضراوتين من البذرة أو النواة ، انما هو آتٍ من مواد أولية هى نواتج تعفن الشجر بعد موته أو احتراقه ، أى : من مواد تشبه من كل الوجوه ذلك العظم الرميم الذى استبعد المفكر الجاحد أن يحييه الله مرة أخرى .

هذا وقد أشارت الآية الكريمة إشارة واضحة يفهمها العالمون إلى ظاهرة تشبه ظاهرة البعث تمام الشبه ، لأنها بالفعل ظاهرة بعث للنبات بعد أن صار بالتعفن أو الإحراق بخار ماء وثانى أوكسيد الكربون

(١) سورة يس الآية ٨٠
(١) سورة يس الآيات ٧٨ — ٨٠

ورمادا أو أملاحاً ، هى فى الحقيقة التى تقابل العظم الرميم الذى ذكره الجاحد . فكأن الآية تقول لذلك المفكر : إن الذى يبعث الشجرة بعد أن فنيت ويخلقها مرة أخرى بواسطة المادة الخضراء من نواتج تعفنها أو احتراقها ، قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته ويخلقه مرة أخرى من نواتج تعفنه ، وتحوله إلى عظم رميم وغير عظم رميم إلا أنه لما لم يكن مأموناً على العقل حين نزلت الآية التصريح بهذه المعانى اكتفى فى الآية بإيداعها مفاتيح إلى هذه المعانى ، لينتفع بها الإنسان إذا اتسع علمه ، ألا وهى وصف الشجر بالخضرة عند جعله أصلاً للنار ، مع السياق على أنه إذا كانت آية سورة يس قد عبرت عن خلق الشجر من الخضرة بلازمة ، وهو خلق النار من الخضرة ، فإن ما أشارت إليه آية سورة يس قد صرحت به آية سورة الأنعام ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكبا** ﴾[1] هذه الآية إذا أخذت حرفياً فقد صرحت بما ألممنا به من حياة النبات فى التفسير السابق . فهناك دور الإنبات ينتهى بخروج الوريقات الخضر ، وكلمة نبات فى الآية يصح أن تكون — أيضا — اسم مصدر بمعنى (إنبات) . فالماء ينبت الله به كل بذر وكل نوى . ومن ناتج هذا الإنبات يخرج الله الخضر ، ومن هذا الخضر يخرج الله الحب المتراكب الذى هو ثمرة النبات ، وإذن فالله يخرج — أيضا — من الخضر ما بين الخضر والحب من ساق وفروع وأوراق وأزهار .

على أن بقية آية سورة الأنعام صريحة — أيضا — فى أن ما يخرجه الله — سبحانه — من الخضر ليس مقصورا على الزرع ذى الحب ولكن يتناول الأعناب ، والزيتون ، والرمان ، وأشباهها من النباتات طبعا ﴿ **ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[2] .

ألا إننـــا كلنـــا بائـــد	وأى بنـــى آدم خالـــد
وبدؤهـــم كان مـــن ربهم	وكل إلى بابـــه عائـــد
فواعجبـــاً : كيـــف يعصى الإلـــه	بـــل كيـــف يجحـــده الجاحـــد؟
وفى كل شىء لـــه آيـــة	تـــدل على أنـــه الواحـــد !

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون** ﴾ .

(١) سورة الأنعام من الآية ٩٩
(٢) سورة الأنعام من الآية ٩٩

أى : أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ أى : من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟ ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ أى : لو نشاء جعلناه ملحاً زعاقاً لا تنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذباً زلالاً ؟

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[1] .

قال جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾[2] .

وقال جلا وعلا : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً . لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً ﴾[3] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً . ويل يومئذ للمكذبين ﴾[4] .

وقال بن أبى حاتم بسنده عن أبى جعفر عن النبى ــ ﷺ ــ : إنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقاناه عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجا بذنوبنا »[5] .

وأخرج الإمام مسلم عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن

---

(١) سورة النحل الآيتان ١٠ ــ ١١

(٢) سورة الحجر الآية ٢٢

(٣) سورة الفرقان الآيتان ٤٨ ــ ٤٩

(٤) سورة المرسلات الآيات ٢٥ ــ ٢٨

(٥) انظر تفسير ابن كثير ... تفسير سورة الواقعة ، ج ٨ ص ١٨ ط دار الشعب فقد ورد الحديث بلفظه لابن أبى حاتم عن جعفر .

الله ــ تعالى ــ ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها »[1] .

وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ــ ﷺ ــ كان إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين »[2] .

وأخرج أبو داود والنسائى بالإسناد الصحيح عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى ــ رضى الله عنه ــ قال : كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا أكل أو شرب قال : « الحمد لله أطعم وسقى وسوَّغه وجعل له مخرجاً »[3] .

آية الله فى إيجاد الماء العذب

قال الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه « الاسلام فى عصر العلم » ما نصه :

فى قوله تعالى : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾ . الناس طبعاً يسلمون بالقدرة الالهية على قلب العذب أجاجاً ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ولا يتساءلون هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟ ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذى يسقيهم الله إياه من السحاب هى بمحض رحمة الله . إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت ، والأزوت كما تعرف ــ أيضا ــ لا يكاد يتحد فى العادة بشىء ولا بالأوكسيجين الذى يكاد يتحد بكل شىء ، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية ، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأوكسجين بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به وكون حمضين أزوتين أحدهما حمض الأزوتيك ، أو ماء النار كما كان يسميه القدماء ، وإليه يصير الحمض الثانى .

---

(1) انظر صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب ، استحباب حمد لله تعالى ــ بعد الأكل والشرب ج ٤ ص ٢٠٩٥ حديث رقم ٨٩ / ٢٧٣٤ من رواية لأنس بن مالك .

(2) انظر سنن الترمذى ، أبواب الدعوات ، باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ج ٥ ص ١٧٠ ــ ١٧١ حديث رقم ٣٥٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(3) انظر سنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب ما يقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى أيوب الأنصارى .

وقليل من حمض الأزوتيك فى الماء كاف لإفساد طعمه وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً من غير خرق لأى سنة من سنن الله الكونية ، فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائى ويتكرر فى الهواء ، وما يتكون من الأكاسيد الأزوتية يذوب فى ماء السحاب ، ويحوله حمضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ولا يؤج بها الماء . إن شيئاً من ذينك الحمضين لابد أن ينزل فى ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول فى الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات . لكن الله برحمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان .. ولو شاء لله لكثره فى ماء المطر فأفسده على الناس .

سواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى : ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجاً** ﴾ إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة . ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العملية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى إلى حمض .

إن نعمة الله على الناس فى ماء العذب أكبر من أن يقوموا بشكرها ، لأن كل ماء عذب فى الأرض كان أجاجا فى الأصل إذ هو آت من ماء البحار . إنك تعرف أن الأرض ربعها يابس وثلاثة أرباعها ماء ، هذا الماء كله ماء ملح ومنه يقطر الله للإنسان والحيوان والنبات ما لا غنى لهم عنه من الماء العذب . أما جهاز التقطير فليس كمثله جهاز : البحار كلها فى ذلك الجهاز دست لا يسخن من تحت كما يفعل الإنسان فى تقطيراته التافهة ، ولكن يسخن من فوق بنار قدر تفوق نار الأرض آلاف المرات ، فإذا ما تبخر الماء بحرارة الشمس تكثف فى مكثف ناهيك من مكثف : الجو العلوى كله والجبال ، والرياح مسخرة تحمل البخار من الأرض إلى الجو ، وتحمل السحاب فى الجو إلى حيث يشاء الله أن تنزل الأمطار . فإذا سالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الخصب والنماء إلى الأقطار تبخر بعض الماء وامتصت الأرض منه بعضاً ، وصار باقية إلى البحر الذى كان منه مصعده .

لكن ليس شيء من هذا الماء بضائع . فما تمتصه الأرض تتفجر به بعد عيوناً حيث يشاء لله ، وما يتبخر من الماء العذب ، أو يصير إلى البحر فهو فى حرز حريز من الضياع ، إذ مآله أن يصير مرة أخرى ماء يحيا به الناس والأنعام ، وتحيا به الأرض الموات . وهذا فرق آخر بين صنع الله وصنع الإنسان .

فما يفلت إلى الجو من الإنسان أثناء تقطيراته فهو ضائع لا يملك الإنسان له استرداداً ، لكن

ليس شيء من الماء أو غير الماء الصاعد إلى الجو ضائعاً فى ملك الله ، فالماء بين البحر والجو واليابسة فى دورة مقدرة متصلة لا انقطاع فيها ولا توقف ولا تعثر ، عليها مدار الحياة فى الأرض ، ولا تنتهى أبداً إلا ان يشاء الله الذى أذن لها بالابتداء .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم** ﴾

أى : أفرأيتم النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، أأنتم أنشأتم شجرتها التى منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المرخ بالعفار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العفار وبقطعة عريضة من المرخ يحفرون فى وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار فى هذه الفجوة ، ويأتى فتى من فتيان القبيلة ويحرك عود العفار فيها بالتوالى ، ويأتى بعده آخر ويصنع صنيع سابقه . ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان البيت فى القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها ، وإلى هذا أشار فى قوله تعالى فى قصص موسى : ﴿ **إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو جذوة من النار لعلكم تصطلون** ﴾ .

ثم بين منافع هذه النار فى قوله تعالى : ﴿ **نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين** ﴾ قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ **نحن جعلناها تذكرة** ﴾ أى : تذكر النار الكبرى وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « يا قوم ناركم التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ قال انها قد ضربت بالبحر ضربتين ثم مرتين حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنو منها » . وهذا الذى حكاه قتادة اخرجه الإمام أحمد فى سنده موصولا عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »[1] .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

ورواه البخارى ومسلم — أيضاً — وفى رواية : « والذى نفسى بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم يعنى بالمقوين المسافرين . وقال مجاهد ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار .

قال ابن كثير وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير جميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله — تعالى — أودعها فى الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافرون من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناره فأصبح بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها وينتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً فى حق الناس كلهم .

وفى الحديث « المسلمون شركاء فى ثلاثة .. النار والكلأ والماء »[2] .

الحكمة فى خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار

قال العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار السعادة » ما نصه :

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ما هى عليه من الكمون والظهور فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً فاتت المصالح المترتبة على وجودها . فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها

---

[1] انظر صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة ، ج ٢ ص ٢١٩ فقد ورد حديث عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ... « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » .

وفى صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فى شدة حر نار جهنم .. الخ ج ٤ ص ٢١٨٤ حديث رقم ٢٨٤٣ ولفظه « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها » وفى رواية أبى الزناد « ... كلهن مثل حرها » .

[2] انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الرهون ، باب المسلمون شركاء فى ثلاث فقد ورد الحديث ٢٤٧٢ عن رواية لابن عباس بلفظ : « المسلمون شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلأ والنار وثمنه حرام » قال أبو سعيد : يعنى الماء الجارى .

فى الزوائد : عبد الله بن خراش (ورد فى سند الحديث) قد ضعفه أبو زرعة والبخارى وغيرهما . وقال محمد بن عمار الموصلى : كذاب .

ويوقدها الرجل عند حاجته إليها ، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها ، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة والضرر . قال تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ إلى قوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للمقوين ، وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هى الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفؤ والأنس وغير ذلك .

ثم تأمل حكمته فى كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، ونبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة المنفعة وهى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاؤا من ليليهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صنعة أو تصرفاً فى ظلمة الليل الداجى وكيف تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك . ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف ، وأما منافع النار فى إنضاج الأطعمة والأدوية وتخفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه ، وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله ، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ، ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو ، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً ، فمن أعطى هذه القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره ، وأعطى هذه القوة التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم .

أ . هـ .

ويقول الشيخ نديم الجسر فى كتابه « قصة الإيمان » (عن طريق الحوار بين الشيخ وتلميذه) .

يقول القرآن العظيم : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ .

أما العلم فيقول : إن النار هى عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج من احتراق بعض الأجسام

وأن (الاحتراق) بمعناه العام ، هو عبارة عن ظواهر كيماوية تحصل عند اتحاد جسم من الأجسام مع الأوكسجين . ولكن الاحتراق الذى يولد الحرارة إنما يحصل من اتحاد (الأوكسجين مع الكربون) وهذا الكربون موجود فى الطبيعة فى أجسام مختلفة من الجمادات والأحياء ، ولكن أعظم وجوده وأيسره فى النباتات ، فأنسجة النبات ، كما تعلم ، كلها من الكربون . بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد فى تركيب جسم النبات وغذائه وثماره . فهل أدركت الآن ، يا حيران ، ما تنطوى عليه هذه الآيات ، وما أعظمها وأوضحها (تذكرة) فى بيان القدرة والحكمة !! فالنار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان ، فى دفئه وطعامه وصناعته . ولوجدت مكونة كالماء والهواء لأهلكت الحياة ، أو كانت خطرا دائماً عليها . فانظر كيف أعد الخالق لها نواميسها ، وعناصرها ، وجعلها (كامنة) فى الشجر الأخضر كموناً بالقوة . وسلطنا على توريتها ، عند الحاجة ، وبقدر اللزوم ، وجعلها لنا متاعاً وتذكرة فنذكر بها (حينما نستخرجها من مكمنها فى الشجر الأخضر الطرىء المائى الذى لا نتوقع كمون النار فيه) ، تلك القدرة العظيمة وحكمة الباهرة التى أنشأت لنا شجرة النار . فإن هذا التذكير مما يثير عجب البدوى الساذج ، ويدله على قدرة الخالق . كما يثير عجب العالم ، فيدرك ما وراءه من أسرار القدرة والحكمة والنظام والقصد والتصميم .

فهل كانت هذه النار ، يا حيران ، هذه النار (غير المتكونة بالفعل ، ليقال إنها تكونت بالمصادفة العمياء ، بل مُعدة ومهيأة للتكوين بالقوة ، وموقفة على عمل ينتجها ويخرجها عن كمونها ، عند الحاجة ، وفق نواميس دقيقة) .

هل كانت هذه النار التى من الله علينا بها ليذكرنا بوجوده ، أثراً من آثار المصادفة العمياء ، يا حيران ؟

قال التلميذ (حيران) — سبحان الله العظيم .. أ . هـ .

ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الفرد الذى	كل القلوب له تقر وتشهد

قسم ومشاهد

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **لا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ أى : أقسم بمواقع النجوم . وهذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ومعنى (مواقع النجوم) أى : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، ﴿ **مكنون** ﴾ أى : مصون عن التغيير والتبديل . ﴿ **المطهرون** ﴾ أى : المتزهون من دنس الحظوظ النفسية ، ﴿ **مدهنون** ﴾ أى : متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه . ﴿ **لولا** ﴾ حرف يفيد الحث على حصول ما بعده عن سبيل الاستحسان أو الوجوب . ﴿ **الحلقوم** ﴾ مجرى الطعام . ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ أى : علماً وقدرة ﴿ **مدينين** ﴾ أى : محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين ، من قولهم : دان السلطان الرعية إذا استذلهم ، واستعبدهم ، ﴿ **فروح** ﴾ الروح : الراحة . ﴿ **وريحان** ﴾ رزق حسن . ﴿ **والمكذبين الضالين** ﴾ هم أصحاب الشمال ، ﴿ **فنزل** ﴾ أى : فجزاؤه نزل ، ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ أى : ادخال فى النار ، ﴿ **حق اليقين** ﴾ أى : حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء ــ أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يرونه في مشاهداتهم من مساقط النجوم ، أنه لكتاب كريم ، لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل ــ عليه السلام ــ أمين الوحى ، فكيف تتهاونون في اتباع أوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم ؟ ثم أردف ذلك توبيخهم على ما يعتقدون ، فإنه إذا كان لابد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، وإذاً فماذا لا ترجعون الروح بينكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجعوها ، الحق أنكم لا تعقلون الدليل والبرهان ، بل لا تفهمون إلا المحسوسات ، فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة ، فليس عدم رؤية الشىء دليلاً على عدم وجوده .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى ، وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس فى القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن ، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

وقد اختلف فى النجوم التى أقسم بمواقعها ، فقيل : هى آيات القرآن ، ومواقعها ، نزولها شيئاً بعد شىء وهذا قول ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ فى رواية عطاء ، وقيل : النجوم هى الكواكب ومواقعها مساقطها عند غروبها .. ومن حجة قول من قال هى مساقطها عند الغروب : أن الرب ــ تعالى ــ

يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ، إذ فيها وفى أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما فى قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ﴾[1] ، وكقوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾[2] ، وقوله : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾[3] . ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت فى القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ .

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم : وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه :

﴿ أحدها ﴾ : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الجهل والغى فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القرآن فى الظلمات المعنوية . فجمع بين الهدايتين ، مع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعاينة ، والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أى : وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك . وفى هذا تفخيم للمقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ومن مقتضيات رحمته ، ألا يترك عباده سدى .

ويحدثنا عن عدد النجوم العالم الفلكى « جيمس جينز » فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله .. ويقول كذلك فى كتابه « النجوم ومسالكها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض . وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم ، فلابد لنا من سبعمائة

(١) ١٥ ، ١٦ سورة التكوير
(٢) ١ سورة النجم
(٣) ٤٠ سورة المعارج

سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم في الدقيقة لاستغرقنا في ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التي نعيش عليها ، فهي أقل من نقطة على حرف في مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أي كتاب من هذه الكتب في هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم ــ وهي شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التي يقيسها الإنسان بأجهزته ــ فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هي واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التي تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟ إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها في الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية ــ التي تتكون من ٣٥٦ يوماً ، في كل يوم ٢٤ ساعة ، وفي كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفي الدقيقة ٦٠ ثانية ــ لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ... ولذلك كان الكلام للعرب الأميين (إنه لقسم لو تعلمون عظيم) وكيف يعلمون ؟ وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد الشاسعة التي تتنقل الكواكب فيها ولكن لفت نظرهم إلى هذه الكواكب وما فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس الجميع يجب أن يسلم لله وجهه ، وان ينحني له صلبه ، وأن يخضع لأمر ربه ، وأن يستكين لحكمه فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾

فوصفه ــ سبحانه وتعالى ــ بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ وصف نفسه بالكرم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات ، وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي : حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ، لأنه كلامه . وقال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال ، وانه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج خيره إلا النزر إلا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم في الناس واللئيم . قوله تعالى : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ .

قال ابن القيم : اختلف المفسرون في هذا : فقيل هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة ﴾[1] ، ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فهذا يدل أنه بأيديهم يمسونه . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح وجوه :

(الوجه الأول) أن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون . فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه ، كما قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون ﴾[2] ، فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يتأتى منهم ، ولا يقدرون عليه . وكذلك قوله في سورة عبس : ﴿ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة ﴾ فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

(الوجه الثانى) أن السورة مكية ، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية .

(الوجه الثالث) إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا في حياة رسول الله ــ ﷺ ــ وإنما جمع في المصحف في خلافة أبى بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار ، يوضحه .

---

(١) سورة عبس الآيات : ١٤ ــ ١٧

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٠ ــ ٢١١

(٣) سورة الصافات الآية ٤٩

(الوجه الرابع) وهو قوله : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر ، كما قال تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾[1] وهكذا قال السلف . قال الكلبى : مكنون من الشياطين . وقال مقاتل : مستور . وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو اسحق : مصون فى السماء . يوضحه .

(الوجه الخامس) أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾[2] . يوضحه .

(الوجه السادس) أن هذا أبلغ فى الرد على المكذبين . وأبلغ فى تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث .

(الوجه السابع) قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهى احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره . إلى معنى النهى والأصل فى الخبر والنهى حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهى .

(الوجه الثامن) أنه قال : ﴿ إلا المطهرون ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون . ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾[3] وفى الحديث « اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » فالمتطهر فاعل التطهر والمطهر الذى طهره غيره ، فالمتوضىء متطهر ، والملائكة مطهرون .

(الوجه التاسع) انه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة . إذ مجرد الكلام مكنوناً فى كتاب ، لا يستلزم ثبوته فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً فى كتاب ، وهذا أمر مشترك . والآية إنما سيقت ببيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التى تدل على انه منزل من عند الله ، وانه محفوظ مصون . لايصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمس محله إلا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة .

١ ـ الصافات الآية ٤٩

٢ ـ سورة البروج الآيتان ٢٢ ـ ٢٣

٣ ـ سورة البقرة من الآية ٢٢٢

(الوجه العاشر) ما رواه سعيد بن منصور فى سننه بسنده عن أنس بن مالك فى قوله ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : المطهرون : الملائكة . وهذا عند طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع . وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا فى حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم وقال حرب فى سائله : سمعت اسحق فى قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ، قال : النسخة التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون . قال الملائكة :

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر . فقال : هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها إلا طاهر . والحديث مشتق من هذه الآية . وقوله « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهرى عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده : أنه فى الكتاب الذى كتبه النبى ـ ﷺ ـ إلى أهل اليمن فى السنن والفرائض والديات (ان لا يمس القرآن إلا طاهر)[1] قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحاً . وقال أيضا : لا أشك أن رسول الله ـ ﷺ ـ كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد . لأنه أشبه التواتر فى مجيئه . لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه ، ومالك فى موطئه . وفى المسألة آثار أخر مذكورة فى غير هذا الموضع .

لا يفهم القرآن إلا القلوب الطاهرة

ويقول ابن القيم : ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى . قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به . وهذا ـ أيضا ـ من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه حرج ومن لم يؤمن بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكلم

(١) انظر موطأ الامام مالك ، كتاب القرآن ، باب الأمر بالوضوء من مس القرآن ط / دار الشعب ص ١٤١ حديث ١ عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم .

به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففي قلبه منه حرج . ومن قال : إن له باطناً يخالف ظاهره ، وأن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففي قلبه منه حرج .. ومن سلط عليه آل الآرائيين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المتفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففي قلبه منه حرج ، ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففي قلبه منه حرج ، ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه ، ففي قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم بإحسان . وأنت إذا تأملت قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته ، وتنبيه وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التي عقدها الله — سبحانه وتعالى — وربطها بين الظاهر والباطن — فهمت هذه المعاني كلها من الآية . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي : هذا القرآن العظيم منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر بل هو الحق الذي لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع .

قال ابن القيم : وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين

(أحدهما) أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ ونظيره ﴿ ولكن حق القول مني ﴾[1] ، وقوله : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾[2] .

(والثاني) علو الله — سبحانه — فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول ، وتعرفه الفطر — هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب — تعالى — إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم ، وتصرفه فيهم وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم . وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب

---

(١) سورة السجدة من الآية ١٣ .
(٢) سورة النحل من الآية ١٠٢ .

العالمين ، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ﷺ ، وصحة ما جاء به وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

ثم وبخهم — سبحانه — على وضعهم الأدهان في غير موضعه ، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لا يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ؟ وإنما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

ثم قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ — كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ، وكان لا حياة له إلا بذلك ، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب — أنعم — سبحانه — على عباده بهذين النوعين من الرزق . وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فاوت — سبحانه — بينهم في قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته . فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه في الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب . وبالعكس . وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر . والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد فإن الله — تعالى — تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه ، ولابد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً ، فإن التصديق والشكر لما كان سبب زيادة الرزق وهو رزق القلب حقيقة . فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر ، فجعلوا رزقهم التكذيب ، وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . ومن بعض معنى الآية قولهم : مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى والله أعلم (حكاه ابن القيم) .

قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ أى : الروح . ﴿ الحلقوم ﴾ أى : الحلق وذلك حين الاحتضار كما قال تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقى . وقيل من راق . وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق ﴾[1] . ولهذا قال ههنا : ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت . ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى : بملائكتنا . ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أى : ولكن لا ترونهم كما قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصرى : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وقال ميمون بن مهران فى قوله : (فلولا إن كنتم غير مدينين) أى : غير معذبين مقهورين .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« ثم ختم — سبحانه — السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة . وذكر بين يدى هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته ، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا انكاره فقال : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أى : وصلت الروح إلى هذا الموضع . بحيث فارقت ولم تفارق ، فهى برزخ بين الموت والحياة ، كما أنها إذا فارقت صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب — تعالى — أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون ، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين ، ولا مستوعين ليوم الحساب .

فإن قيل : أى الارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما ؟ قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر آمر ، ناه ،

(١) سورة القيامة الآيات ٢٦ — ٣٠
(٢) سورة الأنعام الآيتان ٦١ — ٦٢

أو لا يقرون بذلك : فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله ، وأن لا يجعلوا له نداً ، ولا شريكا ، وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وإن أنكروا ذلك وقالوا : إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين ، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الروح الحلقوم . فإن المتصرف فى نفسه ، الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولامدافع له . وإن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية ، ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع فى معرفة الروح وأنها تصعد وتنزل ، وتنتقل من مكان إلى مكان ، وما أحسن إعادة « لولا » ثانياً قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الأول . وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحداً وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثانى ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هى الرابط بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثانى ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه . فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً ، واستدلالاً على أصول الإيمان : من وجود الخالق — سبحانه — ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه فى أرواح عباده ، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشىء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء ، ويخلى أبدانهم منها تارة ويجمع بينها وبينهم تارة ، وإثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا فى صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءين — منتظمة أحسن الانتظام ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض .

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه . قال الفراء : وأجيبت (فلولا إذا بلغت) و (فلولا إن كنتم غير مدينين) بجواب واحد وهو (ترجعونها إن كنتم صادقين) .

وقال الجرجانى : قوله ﴿ ترجعونها ﴾ جواب قوله ﴿ فلولا ﴾ المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها ، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون ؟ .

يقول تعالى : إن كان الأمر كما تزعمون انه لا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ فإذا لم يمكنكم فى ذلك حيلة بوجه

من الوجوه . فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر ، متصرف فيكم ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ؟ .

قلت : وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ﴾[1] ، أى : إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقاً جديداً ، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى ، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك ، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو إما أن تقروا بأن لكم رباً متصرفاً فيكم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يميتكم إذا شاء ، ويحييكم إذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقاً جديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم . فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال بعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت . والذى فى الواقعة استدلال بعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد .

قوله تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون مجزيون محاسبون — ذكر — سبحانه — طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاثة طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية طبقة المقربين عند الوفاة : الروح ، والريحان ، والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التى يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التى يعطونها يوم القيامة : ﴿ فالروح ﴾ الفرح والسرور ، والسرور والابتهاج ولذة الروح ، فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها وذلك قوتها وغذاؤها ، ﴿ والريحان ﴾ الرزق وهو الأكل والشرب (والجنة) المسكن الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث فى البرزخ وفى المعاد الثانى .

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهى طبقة أصحاب اليمين ، ولما كانوا دون المقربين فى المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلام من الآفات والشرور التى تحصل للمكذبين الضالين فقال : (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) . والسلام مصدر من مسلم . أى : فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أى : يقال لك السلامة . كما يقال للقادم : لك البشرى فهذه تحية عند اللقاء .

(١) سورة الإسراء من الآيتان ٥٠ — ٥١

قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . كما قال تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[1] ، وقال الكلبى : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك ، وعلى هذا فقوله : ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ، ثم ذكر — سبحانه — الطبقة الثالثة ، وهى طبقة الضال فى نفسه ، المكذب لأهل الحق ، وأن له عند الموافاة نزل الحميم وسكنى الجحيم . ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم ﴾ ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال : (إن هذا لهو حق اليقين) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين ، وعن درجة اليقين إلى حقه .

ثم أمره أن ينزه اسمه — تبارك وتعالى — عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون فقال تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

تفسير سورة الحديد

مقدمة

قال صاحب البصائر

السورة مدنية ، وقيل مكية .

عدد آياتها : تسع وعشرون

وكلماتها : خمسمائة وأربع وأربعون .

وحروفها : ألفان وأربعمائة وست وسبعون .

ومجموع فواصل آياتها (من بزرة) على الراء (ان الله قوى عزيز) وعلى الدال (هو الغنى الحميد) .

سميت سورة الحديد لقوله — تعالى — فيها : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ .

(١) سورة يس آية ٥٨

معظم مقصود السورة

الإشارة إلى تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات فى الأرض والسموات وتنزيه الحق ــ تعالى ــ فى الذات والصفات ، وأمر المؤمنين بإنفاق النفقات والصدقات ، وذكر حيرة المنافقين فى صحراء القرصات وبيان خسة الدنيا وعز الجنات ، وتسلية لخلق عند هجوم النكبات والمصيبات ، فى قوله ﴿ **وأن الفضل بيد الله** ﴾ بهذه الآيات .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **سبح الله** ﴾ وكذلك فى الحشر ، والصف ، ثم ﴿ **يسبح** ﴾ فى الجمعة والتغابن ، هذه كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر فى بنى اسرائيل ، لأنه الأصل ، ثم بالماضى ، لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمستقبل ، ثم بالأمر فى سورة الأعلى ، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها ، وهى أربع : المصدر ، والماضى ، والمستقبل ، والأمر للمخاطب .

قوله : ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ وبعده ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأولى فى الدنيا ، لقوله ﴿ **يحيى ويميت** ﴾ والثانية فى العقبى ، لقوله ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ .

قوله ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ بزيادة ﴿ **هو** ﴾ لأن ﴿ **بشراكم** ﴾ مبتدأ ، ﴿ **وجنات** ﴾ خبره ، ﴿ **تجرى من تحتها** ﴾ صفة لها ، ﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال ﴿ **ذلك** ﴾ اشارة إلى ما قبله ﴿ **وهو** ﴾ تنبيه على عظيم شأن المذكور ﴿ **الفوز العظيم** ﴾ خبره .

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾ ابتداء كلام ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾ عطف عليه .

قوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم** ﴾ ، وفى سورة التغابن ، ﴿ **من مصيبة إلا بإذن الله** ﴾ فصّل فى هذه السورة ، وأجمل هناك ، موافقة لما قبلها فى هذه السورة ، فإنه فصّل أحوال الدنيا والآخرة فيها ، بقوله : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا** ﴾ الآية .

وجه مناسبتها لما قبلها .

(١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح ، فكأنه قال : سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له ما فى السموات والأرض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾

معانى المفردات

﴿ **سبح لله** ﴾ نزه الله ومجده . ﴿ **العزيز** ﴾ القادر الغالب على كل شىء .

﴿ **الأول** ﴾ السابق على جميع الموجودات ليس قبله شىء .

﴿ **الآخر** ﴾ الباقى بعد فنائها ، ليس بعده شىء .

﴿ **الظاهر** ﴾ فليس فوقه شىء .

﴿ **الباطن** ﴾ فليس دونه شىء كذلك فسره البشير النذير .

﴿ **استوى على العرش** ﴾ استواء يليق بكماله تعالى .

﴿ **ما يلج** ﴾ ما يدخل من مطر وغيره .

﴿ **ما يعرج** ﴾ ما يصعد إليها من الملائكة والأعمال .

﴿ **وهو معكم** ﴾ بعلمه المحيط بكل شىء .

﴿ **يولج الليل** ﴾ يدخله .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أى : إن ما دونه من خلقه ينزهه عن كل نقص ، تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته . كما قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به .. الآية ﴾[1] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم . تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم .. الآية ﴾[2] ، وقال رب العزة : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[3] وقال جل وعلا : ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته .. الآية ﴾[4] .

والتسبيح تنزيه المولى عن كل ما لا يليق به قولاً ، وفعلاً واعتقاداً . فإن قيل : قد جاء فى بعض فواتح السور ﴿ سبح لله ﴾ بلفظ الماضى ، وفى بعضها ﴿ يسبح لله ﴾ بلفظ المضارع فما المراد ؟ قال الخازن فى تفسيره : فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً ، غير مختص بوقت دون وقت ، بل هى كانت مسبحة أبداً فى الماضى ، وستكون مسبحة أبداً فى المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أى : وهو القادر الغالب الذى لا ينازعه شيء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه وتصريفها فيما شاء وأحب .

قوله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ﴾ أى : هو سبحانه المالك المتصرف فى خلقه فيحيى ويميت ويعطى من يشاء ما يشاء ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أى : ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال عز وجل : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق

---

(١) سورة غافر من الآية ٧

(٢) سورة الشورى من الآيات ٣ — ٥

(٣) سورة الاسراء من الآية ٤٤

(٤) سورة الرعد من الآية ١٣

من تشاء بغير حساب ﴾[1] . وكما قال سبحانه : ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير ﴾[2] ، فهو — سبحانه — الملك الحق الذى بيده ملكوت كل شيء ولا شريك له فى ملكه ولا معين ، المتصرف فى خلقه بما يشاء من الأمر والنهى والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

قوله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، أقض عنى الدين وأغننى من الفقر »[3] رواه مسلم .

قال الامام ابن القيم — رحمه الله أثناء كلامه على هذه الأسماء الحسنى الأربعة وهى : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن : هى أركان العلم والمعرفة . فحقيق بالعبد أن يبلغ فى معرفتها إلى حيث ينتهى به قواه وفهمه . واعلم أن لك أنت أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله — سبحانه — سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه — سبحانه — إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهى إحاطتان زمانية ومكانية ، فإحاطته أوليته وآخريته بالقبل والبعد ، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٦ — ٢٧

(٢) سورة المائدة الآية ١٢٠

(٣) انظر صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ج ٤ ص ٢٠٨٤ حديث رقم ٦٣ / ٢٧١٣ من رواية أبى هريرة .

فوقه وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده .. فسبق كل شيء بأوليته وبقى بعد كل شيء بعطونه ، فلا توارى منه سماءٌ سماءً ، ولا أرضٌ أرضاً ، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد فهو الأول فى آخريته ، والآخر فى أوليته ، والظاهر فى بطونه ، والباطن فى ظهوره ، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً . ثم سبق الكلام على التعبد بهذه الأسماء فتشفى وتكفى — رحمه الله تعالى — ، ولكن قد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله — ﷺ — فى حديث أبى هريرة المتقدم قريبا بأوجز عبارة وأحضرها فسبحان من خصه بجوامع الكلم — ﷺ — (من كتاب معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد حكمى) .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر وغيره ، ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وزرع وثمار ومعادن فلا تخفى عليه خافية . كما قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴾[2] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[3] ، فما من جبل إلا ويعلم ما فى وعره ، ولا بحر إلا ويدرى ما فى قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ان ذلك على الله يسير .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ أى : انه سبحانه يعلم ما ينزل من الأمطار والثلوج والبرد والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام وفى الأثر : « ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء الله — تعالى — .

---

(١) سورة الشورى من الآية ١١
(٢) سورة آل عمران الآية ٥
(٣) سورة الأنعام الآية ٥٩

وقوله : ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أى : من الملائكة والأعمال كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1] ، وكما جاء فى الحديث الصحيح « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أى : رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر فى ليل أو نهار فى البيوت أو فى القفار الجميع فى علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[3] ، وكقوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[4] ، وكقوله — جل وعلا — : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾[5] .

وفى الصحيح أن رسول الله — ﷺ — قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[6] .

وكان الامام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

---

(١) سورة فاطر من الآية ١٠
(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب فى قوله عليه السلام « ان الله لا ينام » ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ فقد ورد الحديث ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية لأبى موسى ولفظه : « قام فينا رسول الله — ﷺ — بخمس كلمات فقال : « إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور (وفى رواية أبى بكر : النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .
(٣) سورة يونس الآية ٦١
(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ — ١١
(٥) سورة المجادلة الآية ٧
(٦) انظر صحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب بيان الايمان والاسلام والاحسان .. الخ ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ حديث ١ / ٨ وهو حديث طويل من رواية لعبد الله بن عمر عن أبيه وهو حديث طويل ، يعتبر هذا الحديث الذى معنا جزء منه
وانظر صحيح البخارى ، كتاب الايمان ، باب سؤال جبريل النبى — ﷺ — عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة .. الخ فقد ورد حديث لأبى هريرة هذا الحديث الذى معنا جزء منه .

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفى عليه بغيب
يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها ... فى قاع بحر ذاخر متجندل

قوله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى : هو المالك لما فيهما ، والمدبر لأمورهما ، والنافذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال تعالى : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[1] . وكما قال سبحانه ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى : يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه وقوله : ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت ، فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر ، كيف لا وهو الذى خلق وقدر ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[3] .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والأصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم ... سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت واعصرت ... أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

(١) سورة يس الآية ٨٣
(٢) سورة القصص الآية ٧٠
(٣) سورة الملك الآية ١٤

توجيه وإرشاد

﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ مستخلفين فيه ﴾ أى : جعلكم ــ سبحانه ــ خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ، ﴿ آيات بينات ﴾ الآيات البينات هى القرآن الكريم ، ﴿ الفتح ﴾ هو فتح مكة ، و ﴿ الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، ﴿ يقرض الله ﴾ أى : ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته وقدرته وعلمه بين أن كل ما فى السموات وما فى الأرض فهو فى قبضته يصرفه كما يشاء ، ثم ذكر أنواعاً من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأومأ إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية فأمر بالإيمان والإخلاص والانقياد لرسوله ــ ﷺ ــ ، ثم طلب انفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردة فهو منك له وأنتم

خلفاؤه ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول وقد أخذ عليكم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم والله رءوف بكم إذ أنقذكم من ظلمات الشرك إلى نور الطاعة ، ثم ذكر — سبحانه — فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقل المعين ، فهؤلاء لا يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى ، ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضاً له ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجمل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ .

أمر — تبارك وتعالى — بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل والدوام والثبات على ذلك والاستمرار كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أى : وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حساباً عسيراً ، وفى هذا ترغيب أيما ترغيب فى الإنفاق ، لأنه من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه — علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال الشاعر :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه ... تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق ... وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مالٍ فبادر به الذى ... يحق ، وإلا استهلكته مهالكه

(١) سورة النساء الآية ١٣٦

وقال آخر :

كل نفس عند ميتتها ... حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له ... منه إلا ذكره الحسن

قال شعبة : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرِّف بن عبد الله عن أبيه قال : « انتهيت إلى رسول الله — ﷺ — وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس »[1] رواه مسلم .

ثم حث — سبحانه — على ما تقدم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله فقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ أى : فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خولهم الله عمن قبلهم — فى سبيل الله لهم الثواب العظيم عند ربهم وهناك يرون من الكرامة والمثوبة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أى : وأى شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به .

قال ابن كثير قد روينا فى الحديث من طرق فى أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى أن رسول الله — ﷺ — قال يوماً لأصحابه : أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ — قالوا الملائكة — قال ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ — قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم — قالوا فنحن قال ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها .. »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ هذا نظير قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، ج ٤ ص ٢٢٧٣ فقد ورد الحديث ٣ / ٢٩٥٨ من رواية لقتادة عن مطرف عن أبيه وهو بلفظه .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ، تفسير سورة الحديد ، ج ٨ ص ٢٦ ، ٢٧

الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴾[1] ، ويعنى بذلك بيعة الرسول — ﷺ — .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ أى : هو تعالى الذى ينزل على محمد القرآن العظيم ، المعجز فى بيانه ، الواضح فى أحكامه ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أى : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ﴿ وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ أى : مبالغ فى الرأفة والرحمة بكم ، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم ، كما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾[2] ، وكما قال جل وعلا : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[3] . وكما قال سبحانه : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾[4] . وكما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾ .

أى : وما لكم أيها الناس لا تنفقوا مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثاً . فأنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض وبيده مقاليدهما وعنده خزائنها وهو مالك العرش بما حوى وهو القائل سبحانه : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[6] . وقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾[7] . فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذى العرش إقلالاً وعلم أن الله سيخلفه عليه .

(1) سورة المائدة الآية ٧
(2) سورة النساء الآية ١٧٤
(3) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦
(4) سورة إبراهيم الآيتان ١ ، ٢
(5) سورة يونس الآيتان ٥٧ ، ٥٨
(6) سورة سبأ من الآية ٣٩
(7) سورة النحل من الآية ٩٦

وقوله تعالى : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ .

قال قتادة : كان قتالان ، أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أى : وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى مقدار الجزاء كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾[1] .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله — ﷺ — : « لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى : عالم بأعمالكم ، مطلع على خفاياكم ونواياكم ، ومجازيكم عليه ، وفى الآية وعد ووعيد .

قال ابن كثير : أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وماذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وأنفاقه فى حال الجهد والقلة والضيق ، وفى الحديث « سبق درهم ألف »[3] ولاشك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر — رضى الله عنه — له الحظ الأوفر من هذه الآية فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله — عز وجل — ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

(1) سورة النساء الآية ٩٥
(2) انظر صحيح البخارى ، باب فضائل أصحاب النبى ، ج ٥ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه حدث به ذكوان عن أبى سعيد الخدرى .
(3) انظر سنن النسائى ، كتاب الزكاة ، باب ، جهد المقل ، ج ٥ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « سبق درهم مائة ألف درهم .. » حديث طويل .

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ أى : من هذا الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسباً أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[1] ، وكما قال سبحانه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[2] ، قال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ـــ الآية ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، إن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى ، وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجى فقد أقرضته ربى ـــ عز وجل ـــ ، وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح »[3] ، وفى لفظ « رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة » .

وعد ووعيد

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٥ .
(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث من رواية ثابت مع اختلاف فى بعض ألفاظ القصة ، ولفظ الحديث « كم من عزق رداح لأبى الدحداح فى الجنة » .
وانظر مسند الإمام أحمد ـــ أيضاً ـــ ج ٥ ص ٩٥ فقد وردت عدة روايات فى هذا الحديث .
وانظر صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب ، ركوب المصلى ، ج ٢ ص ٦٦ فقد ورد الحديث بلفظ .. كم من عذق معلق أو مدلى لأبى الدحداح فى الجنة » .. برقم ٨٩ / ٩٦٥ .
وانظر كنز العمال ج ١١ ص ٦٥٨ ـــ ٦٥٩ فقد ورد الحديث بعده روايات برقم ٣٣١٨٠ ، ٣٣١٨١ ، ٣٣١٨٢ .

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

معانى المفردات

﴿ نقتبس ﴾ أصل الاقتباس طلب القبس : أى الجذوة من النار ، ﴿ انظرونا ﴾ أى : انتظرونا . ﴿ بشراكم ﴾ أى : ما تبشرون به . ﴿ بسور ﴾ السور : الحاجز ، ﴿ من قبله ﴾ أى : من جهته ، ﴿ بلى ﴾ أى : كنتم معنا ، ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ أى : أهلكتموها بالمعاصى والشهوات . ﴿ وتربصتم ﴾ أى : انتظرتم بالمؤمنين مصائب الزمان . ﴿ وارتبتم ﴾ أى : شككتم فى أمر البعث . ﴿ الأمانى ﴾ الأباطيل من طول الآمال والطمع فى تكاس الإسلام ، ﴿ الغرور ﴾ بالفتح الشيطان . ﴿ فدية ﴾ والفدية والفداء : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، ﴿ مأواكم ﴾ أى : منزلكم الذى تأوون إليه ﴿ مولاكم ﴾ أى : أولى بكم ، ﴿ والمصير ﴾ المآل والعاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالإيمان والإنفاق فى سبيله ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثر النصير والمعين ـــ ذكر هنا حال مؤمنين المنفقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، ثم أردفه ذكر حال المنافقين إذ ذاك يتخبطون فى الظلمات ، كما كانوا فى الدنيا يعيشون كالبهائم فى ظلمات الجهل والغى والضلال ، ثم بين أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار . ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى .. ثم أعقبه أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

يقول تعالى — مخبراً عن المؤمنين المتصدقين — : أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم فى عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة .

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله — ﷺ — كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه » . وقال الحسن : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ يعنى : على الصراط . « وهذا النور الذى أودعه فى قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره ، وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله فى قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم . بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته وصفته فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضىء مرة ويطفأ مرة ، إذ كانت هذه حال نوره فى الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً » . (قاله ابن القيم فى الوابل الصيب) .

وقوله تعالى : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

أى : يقال لهم بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ خالدين

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى ، تفسير سورة الحديد ، ج ٢٧ ص ١٢٨ القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم .. ﴾ الخ . فقد ورد الحديثان سعيد عن قتادة ، وعن ابن مسعود .

(٢) سورة الرعد الآيتان ٢٣ — ٢٤

فيها ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[١] . وكما قال جل شأنه : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[٢] .

وبعد أن ذكر حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين ، فقال تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

هذا إخبار من الله سبحانه عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله به ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلى فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا — يشير إلى القبر — بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذى ضربه الله — تعالى — فى كتابه فقال : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[٣] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن . كما لا يستضىء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ ، ﴿ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾[٤] فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور

(١) سورة الرعد الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة الزمر الآية ٧٣

(٣) سورة النور الآية ٤٠

(٤) سورة النساء الآية ١٤٢

فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ، وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون : ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترا منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله ـ تعالى ـ يعطي كل مؤمن نورا وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً »[1] .

ويقول ابن القيم : ولما لم يكن للمنافقين نور ثابت بل كان نوره ظاهراً لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وقوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ . قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾[2] وهكذا روى عن مجاهد رحمه الله وغير واحد ، قال ابن كثير وهو الصحيح . وقوله ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أي : الجنة وما فيها . ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أي : النار ، قاله قتادة وابن زيد وغيرهما . وقوله : ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أي : ينادي المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ، ونصلي معكم الجماعات ، ونقف بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا . ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ قال بعض السلف : أي : فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أي : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

(١) انظر مجمع الزوائد ، كتاب البعث ، باب ما جاء في الميزان والصراط والورود ج ١٠ ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس . رواه الطبراني وفيه إسحق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك .

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

وقال قتادة : ﴿ تربصتم ﴾ بالحق وأهله ﴿ وارتبتم ﴾ أي : بالبعث بعد الموت ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي : قلتم سيغفر لنا ، وقيل : غرتكم الدنيا ، ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي : مازلتم في هذا حتى جاءكم الموت . ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أي : الشيطان ، قال قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا : أي : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

وقوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾[1] ، ولو جاء أحدهم يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه .

وقوله تعالى : ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي : هي مصيركم وإليها منقلبكم وقوله : ﴿ هي مولاكم وبئس المصير ﴾ أي : هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

« اللهم إنا نعوذ بك من الرياء والنفاق وسوء الأخلاق ، اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة ولوجهك الكريم خالصة ، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً » .

رقائق ومواعظ

﴿ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ

(١) سورة المدثر الآية ٤٨

وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ›

معانى المفردات

﴿ ألم يأن ﴾ ألم يجىء وقت ذلك . ﴿ أن تخشع ﴾ الخشوع : الخشية والخوف . ﴿ لذكر الله ﴾ لمواعظه . ﴿ الحق ﴾ هو القرآن . ﴿ كالذين أوتوا الكتاب ﴾ هم اليهود والنصارى . ﴿ الأمد ﴾ الزمان . ﴿ وطال عليهم الأمد ﴾ أى : طال عهدهم بدينهم دين أنبيائهم . ﴿ فقست قلوبهم ﴾ أى : صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة . ﴿ فاسقون ﴾ أى : خارجون عن حدود دينهم . ﴿ الأرض الميتة ﴾ هى التى لا تنبت شيئاً . و﴿ الآيات ﴾ هى البينات والحجج . ﴿ تعقلون ﴾ تتدبرون . ﴿ المصدقين ﴾ أى : المتصدقين . ﴿ قرضا حسنا ﴾ القرض الحسن : هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله . ﴿ يضاعف لهم ﴾ أى : يضاعف لهم ثواب أعمالهم . ﴿ الصديقون والصديق ﴾ : من كثر منه الصدق وصار سجية له . ﴿ والشهداء ﴾ من قتلوا فى سبيل الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وزن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى . وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة — ذكر هنا التفوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ .

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له ، وتسمع له وتطيعه ، كما قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً

مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[1] .

روى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية إلا أربع سنين[2] . وقال قتادة : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروى عن رسول الله — ﷺ — قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع » .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراءهم ظهرياً ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين بوعد ولا وعيد ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فى الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة .

وقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

قال ابن كثير : فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب التفسير ، باب فى قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » ج ٤ ص ٢٣١٩ حديث رقم ٢٤ / ٣٠٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود .

كلمة فى الخشوع

قال الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلى : ما ملخصه :

أصل الخشوع هو لين القلب ورقته ، أو سكونه وخضوعه وانكساره وحرقته ، فإذا خشع القلب ، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء ، لأنها تابعة له ، كما قال — ﷺ — : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[١] (رواه البخارى) فإذا خشع القلب ، خشع السمع والبصر والرأس ، والوجه ، وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام ، ولهذا كان النبى — ﷺ — يقول فى ركوعه فى الصلاة « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى » (رواه مسلم) ، ورأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[٢].

قال المسعودى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى قوله تعالى : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : « هو الخشوع فى القلب ، وأن تلين كنفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت فى صلاتك » . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : « خائفون ساكنون » . وقال الحسن — رحمه الله — « كان الخشوع فى قلوبهم فغضوا له البصر فى الصلاة » .

وقد وصف الله — تعالى — فى كتابه الأرض بالخشوع فقال : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾[٣]، فاهتزازها وربوها — وهو ارتفاعها — مزيل لخشوعها ، فدل على أن الخشوع الذى كانت عليه هو سكونها وانخفاضها .

فكذلك القلب إذا خشع ، فإنه تسكن خواطره ، وإرادته الرديئة التى تنشأ من اتباع الهوى ، وينكسر وينخضع لله ، فيزول بذلك ما كان فيه من التعاظم والترفع والتكبر ، ومتى سكن ذلك فى القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها ، حتى الصوت وقد وصف الله — تعالى — الأصوات بالخشوع فى قوله : ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن** ﴾[٤] فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « فضل من استبرأ لدينه » ج ١ ص ٢١ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل « الحلال بين .. » الخ .

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح » باب الذكر فى الركوع ج ٢ ص ١٩٢ فقد ورد الحديث من رواية لعلى بن أبى طالب ولفظه : « اللهم لك ركعت ، ولك أسلمت ربك آمنت خشع له سمعى وبصرى وعظامى ومخى وعصبى » .

(٣) سورة فصلت من الآية ٣٩

(٤) سورة طه من الآية ١٠٨

الفرق بين خشوع النفاق وخشوع الإيمان

ومتى تكلف الإنسان تعاطى الخشوع فى جوارحه أو أطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه ، كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذى كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم : « استعيذوا بالله من خشوع النفاق ، قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع » .

ونظر عمر — رضى الله عنه — إلى شاب قد نكس رأسه فقال له : « يا هذا ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب » .

فمن أظهر خشوعاً غير ما فى قلبه ، فإنما هو نفاق على نفاق .

الخشوع حاصل من معرفة الله

وأصل الخشوع الحاصل فى القلب ، إنما هو من معرفة الله ، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله ، فمن كان بالله أعرف ، فهو له أخشع .

ويتفاوت الخشوع فى القلوب بحسب **تفاوت** معرفتها لمن خشعت له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع . فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده ، واطلاعه على سره وضميره ، المقتضى للاستحياء من الله — تعالى — ، ومراقبته فى الحركات والسكنات .

ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضى للاستغراق فى محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته .

ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضى للخوف منه .

وهو — سبحانه وتعالى — يتقرب ممن يناجيه فى الصلاة ويعفر وجهه فى التراب بالسجود ، كما يتقرب من عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويجيب دعاءهم ، ويعطيهم سؤلهم . ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والاجابة .

الخشوع هو العلم النافع وهو أول ما يرفع من العلم

فخرج النسائى بسنده عن عوف بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يوماً ، فقال : « هذا اوان يرفع فيه العلم ، فقال رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد : يا رسول الله ، أو يرفع العلم وقد أثبت ووعته القلوب ؟ فقال له رسول الله — ﷺ — : « أن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، وذكر ضلال اليهود والنصارى على ما فى أيديهم من كتاب الله — عز وجل — » ، قال : « فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال : صدق عوف ،

الا أخبرك بأول ذلك يرفع ؟ قلت : بلى ، قال : الخشوع ، حتى لا ترى خاشعاً » (وخرجه الحاكم بنحوه وصححه واقره الذهبى)[1] .

فالعلم النافع : هو ما باشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار ، وإذا لم يباشر القلب ذلك العلم وإنما كان على اللسان ، فهو حجة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره كما قال ابن مسعود — رضى الله عنه — « إن أقواماً يقرأون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب ، فرسخ فيه ، نفع صاحبه » .

وقال الحسن — رحمه الله — « العلم علمان : علم باللسان ، وعلم بالقلب : فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على ابن آدم » .

فأخبر النبى — ﷺ — أن العلم الذى عند أهل الكتاب من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشيء منه ، لما فقدوا المقصود منه ، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم وإنما هو على ألسنتهم تقام به الحجة عليهم .

ولهذا المعنى وصف الله — سبحانه — فى كتابه العلماء بالخشية كما قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] ، وقال : ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[3] ، وقوله تعالى — فى وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبلنا — : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾[4] مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع فى قلبه .

وقال تعالى : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[5] ، ولين القلوب هو زوال قساوتها لحدوث الخشوع فيها والرقة ، وقد قبح الله من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبره ، قال تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب ﴾[6] الآية . قال ابن مسعود رضى الله عنه « ما كان بين اسلامنا وبين أن عوقبنا بهذه الآية إلا أربع سنين »[7] اخرجه مسلم .

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب العلم ، باب ... ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن جبير بن نفير ، ... صحيح وقد حتج الشيخان بجميع رواته ، واستشهد لذلك فيه شداد بن أوس فقد جمع جبير بن نفير الحديث منهما ... من صحابة ... الدرداء .

(٢) سورة فاطر من الآية ٢٨

(٣) سورة الزمر من الآية ٩

(٤) سورة الاسراء من الآية ١٠٩

(٥) سورة الزمر من الآيتان ٢٢ — ٢٣

(٦) سورة الحديد من الآية ١٦

(٧) انظر صحيح مسلم ، كتاب التفسير ، باب فى قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا ... » ج ٤ ص ٢٣١٩ حديث رقم ٢٤ / ٣٠٢٧ فقد ورد من رواية لابن مسعود .

وكان مالك بن دينار — رحمه الله تعالى — يقرأ هذه الآية ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .. ﴾[1] الآية .

ثم يقول : « أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه » وروى عن الحسن — رحمه الله تعالى — قال : « يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدثت بها نفسك فاذكر عند ذلك ما حمّلك الله من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسى لخشعت وتصدعت » أما سمعته يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله — الآية . فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها وتنزجر بها عن معاصى الله — عز وجل — ، وأنت يا ابن آدم أحق أن تخشع لذكر الله وما حملك من كتابه وآتاك من حكمه لأن عليك الحساب ولك الجنة أو النار .

وقد كان النبى — ﷺ — يستعيذ من قلب لا يخشع كما فى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم : أن النبى — ﷺ — كان يقول : « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها »[2] .

الخشوع فى الصلاة

وقد شرع الله — تعالى — لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشيء عن خشوع القلب وذله وانكساره . ومن أعظم ما يظهر فيه ذلك من العبادات الصلاة ، وقد مدح الله الخاشعين فيها لقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[3] ، قال سعيد بن جبير : يعنى متواضعين لا يعرف من عن يمينه ، ولا من عن شماله ، ولا يلتفت من الخشوع لله — عز وجل — وقال منصور عن مجاهد — رحمه الله — فى قوله — تعالى — : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾[4] ، قال « الخشوع فى الصلاة » .

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة :

— وضع اليدين إحداهما على الأخرى لله حال القيام . وقد روى عن الإمام أحمد — رضى الله تعالى — أنه سئل عن المراد بذلك فقال : « هو ذل بين يدى عزيز » قال على بن محمد المصرى الواعظ — رحمه الله — : « ما سمعت فى العلم بأحسن من هذا » .

وملاحظة هذا المعنى فى الصلاة ، يوجب للمصلى أن يتذكر وقوفه بين يدى الله — تعالى — للحساب .

كان ذو النون — رحمه الله — تعالى — يقول فى وصف العباد : « لو رأيت أحدهم وقد قام

(١) سورة الحشر من الآية ٢١

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب « التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل » ج ٤ ص ٢٠٨٨ فقد ورد الحديث رقم ٧٣ / ٢٧٢٢ من رواية لزيد بن أرقم وهو حديث طويل . هذا الحديث جزء منه .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١ — ٢

(٤) سورة الفتح الآية ٢٩

إلى صلاته ، فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده ، خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فانخلع قلبه وذهل عقله ، اخرجه أبو نعيم — رحمه الله — .

ومن ذلك إقباله على الله — عز وجل — وعدم التفاته إلى غيره وهو نوعان :

أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفريغ القلب للرب — عز وجل — .

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — أنه قال — في فضل الوضوء وثوابه — : « ... فإن هو قام وصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذى هو له أهل وفرغ قلبه لله ، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه »[1] .

الثاني : عدم الالتفات بالنظر يمينا وشمالاً وقصر النظر على موضع السجود وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته .

وفي البخاري عن عائشة — رضى الله عنها — سألت النبي — ﷺ — عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »[2] .

وخرج الإمام أحمد — رحمه الله — وأبو داود — رحمه الله — والنسائى — رحمه الله — من حديث أبي ذر — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه »[3] .

وقال عطاء — رحمه الله — : وبلغنا أن الرب — عز وجل — يقول : يا ابن آدم إلى من تلتفت ، أنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

ومن ذلك الركوع : وهو ذل بظاهر الجسد وتمام الخضوع في الركوع : أن يخضع القلب لله ، ويذل له فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله — عز وجل — ، ولهذا كان النبي — ﷺ — يقول في ركوعه : « خشع لك سمعى ، وبصرى ، ومخى وعظمى ، وما استقلت به قدمى » إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه .

ومن ذلك السجود : وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه حيث جعل العبد أشرف أعضائه وأعزها عليه ، وأعلاها حقيقة أوضع ما يمكنه فيضعه في التراب متعفراً ، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه ، وخشوعه لله — عز وجل — ، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله — عز

(١) انظر صحيح مسلم

(٢) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « الالتفات في الصلاة » ج ١ ص ١٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعائشة .

وانظر سنن النسائى ، كتاب السهو ، باب التشديد في الالتفات في الصلاة فقد ورد الحديث عن عائشة مع اختلاف في بعض الألفاظ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٧٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبي ذر ولفظه : « لا يزال الله — عز وجل — مقبلا على العبد في صلاته ما لم يلتفت فإذا صرف وجهه عنه انصرف عنه » .

وانظر سنن النسائى ، كتاب السهو ، باب التشديد في الالتفات في الصلاة فقد ورد الحديث من رواية لأبي ذر بلفظ رواية البخارى .

وجل — إليه ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، كما صح عن النبي — ﷺ — وقال الله — تعالى — : ﴿ واسجد واقترب ﴾[1] .

ومن تمام خشوع العبد لله عز وجل وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذل لربه بالركوع والسجود وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو فكأنه يقول الذل والتواضع وصفى ، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك .

ولهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول : « سبحان ربى العظيم » وفي سجوده « سبحان ربى الأعلى » . وكان النبي — ﷺ — يقول في سجوده : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة »[2] (رواه أبو داود) .

وكان ﷺ يقول — أيضا — : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »[3] (رواه مسلم — كان يقول — أيضا — : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[4] ... أ . هـ .

فضل الصدقة

قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً . وإنما عطف بالفعل على الإسم ، لأن ذلك الإسم في تقدير الفعل ، أى : إن الذين صدقوا وأقرضوا ﴿ يضاعف لهم ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة .

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي — ﷺ — قال : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل »[4] اخرجه الشيخان . ومعنى عدل تمر : ما يساوى تمرة . ومعنى فلوه : بفتح الفاء وضمها وضم اللام . المهر من الخيل إذا بلغ سنة .

(١) سورة العلق من الآية ١٩

(٢) انظر سنن النسائى ، كتاب الافتتاح في الصلاة ، باب الدعاء في السجود ج ٢ ص ٢٢٣ فقد ورد هذا حديث من حديث طويل من رواية لعوف بن مالك .

(٣) انظر سنن النسائى ، كتاب الافتتاح في الصلاة ، باب الدعاء في السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية عن محمد بن مسلمة .

(٤) انظر سنن النسائى ، كتاب الافتتاح في الصلاة ، باب الدعاء في السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية عن محمد بن ابراهيم عن عائشة .

وفي حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « الصوم جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار » . أخرجه الترمذي مطولاً وقال : حسن صحيح[2] .

ومن بين السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[3] .رواه البخاري ومسلم مطولاً .

قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون . والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أي : والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله ، وآمنوا بما جاء وهم به من عند ربهم أولئك هم في حكم الله بمنزلة الصديقين .

قال الإمام مالك بن أنس بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل بينهم » قالوا : « يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ أي : والذين استشهدوا في سبيل الله لهم أجر جزيل ، ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم يتفاوتون في ذلك بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال .

والخلاصة ـ أن العاملين أقسام : فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً** ﴾[5] .

قال ابن القيم : وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب ، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند الله ـ تعالى ـ ويسابق إلى القرب

---

(١) انظر صحيح البخاري من كتاب التوحيد باب « وكانة عرشه على الماء ... » الخ ج ٩ ص ١٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

(٢) انظر سنن الترمذي ـ كتاب الإيمان « باب ما جاء في حرمة الصلاة » ج ٤ ص ١٢٤ حديث ٢٧٤٩ فقد ورد الحديث مطولاً عن معاذ بن جبل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) انظر صحيح البخاري « باب وجوب الزكاة » باب « الصدقة باليمين » ج ٢ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب فضل « إخفاء الصدقة » ج ٢ ص ٧١٥ حديث ٩١ / ١٠٣١ فقد ورد الحديث مطولاً من رواية لأبي هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « تراءي أهل الجنة ... الخ » ج ٤ ص ٢١٧٧ حديث رقم ١١ من رواية لأبي سعيد الخدري بلفظه .

(٥) سورة النساء الآيتان ٦٩ ـ ٧٠ .

منه ، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى : ﴿ **إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم** ﴾ فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ثم قال : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فقيل : هذا عطف على الخبر من ﴿ **الذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ أخبر عنهم أن لهم أجراً وهو قوله : ﴿ **لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور : أنهم صديقون ، وشهداء . فهذه هي المرتبة والمنزلة قيل : تم الكلام عند قوله تعالى ﴿ **الصديقون** ﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال : ﴿ **الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان ، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلأوا منه فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والإحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم . ثم ذكر الشهداء وأنه ـ تعالى ـ يجري عليهم رزقهم ونورهم لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله ـ تعالى ـ أثابهم الله ـ تعالى ـ عليها أن جعلهم أحياء عنده يرزقون فيجري عليهم رزقهم ونورهم فهؤلاء السعداء .

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك ذكر حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أي : والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبداً لا يفارقونها .

حقيقة الدنيا والعمل للباقية

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢١) مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٢٢) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٤) لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

معاني المفردات

﴿ **وتفاخر بينكم** ﴾ أى : بالأنساب والعظام البالية ، ﴿ **وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى : مباهاة بكثرة العدد والعُدد ، ﴿ **غيث** ﴾ الغيث : المطر ، ﴿ **الكفار** ﴾ هنا الزراع ، ﴿ **يهيج** ﴾ أى : يبتدىء فى اليبس وجفاف بعد أن كان أخضر ناضراً ، ﴿ **حطاماً** ﴾ أى : هشيماً متكسراً من يبسه . و ﴿ **الغرور** ﴾ خديعة ، ﴿ **فى كتاب** ﴾ هو اللوح المحفوظ ، ﴿ **نبرأها** ﴾ أى : نخلقها ونوجدها ، ﴿ **تأسوا** ﴾ أى : تحزنوا ، ﴿ **ما فاتكم** ﴾ أى : من نعيم الدنيا ، ﴿ **ما آتاكم** ﴾ أى : ما أعطاكم ، ﴿ **مختال** ﴾ مختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، ﴿ **فخور** ﴾ الفخور : هو ـــ هى بالأشياء العارضة كالمال والجاه ، ﴿ **الميزان** ﴾ العدل . ﴿ **بالقسط** ﴾ **بالحق** ، ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أى : خلقناه . ﴿ **بأس** ﴾ البأس : القوة ، ﴿ **وليعلم الله** ﴾ أى : ليعلمه علم مشاهدة ووجود فى الخارج ، ﴿ **قفينا** ﴾ قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، و ﴿ **الانجيل** ﴾ الكتاب الذى أنزل على عيسى وفيه شريعته ، ﴿ **ابتدعوها** ﴾ أى : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ﴿ **ابتغاء رضوان الله** ﴾ أى : طلباً لرضاه ومحبته . ﴿ **فما رعوها** ﴾ أى : ما حافظوا عليها ، ﴿ **كفلين** ﴾ الكفل : النصيب ، ﴿ **لئلا يعلم** ﴾ أى : لكى يعلم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بشر المؤمنين بالنور المقام يوم القيامة ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات ـــ أردف ذلك وصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول فى جنات عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلا منه ورحمة ، وبعد أن أبان أن متاع الدنيا زائل ، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم ـــ أردف ذلك تهوين المصايب على المؤمنين ، لكى لا يحزنوا على فائت ، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية . ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ويأمرون الناس بالبخل لا يجنى إلا على أنفسهم ، والله غنى عنهم وهو المحمود على نعمه التى لا تدخل تحت حد . ثم ذكر سبحانه أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله ثم ذكر أنه شرف نوحاً وابراهيم ـــ عليهما السلام ـــ بالرسالة ، ثم جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ثم ذكر النبى عيسى ـــ عليه السلام ـــ وشريعته وذكر غلو أهل الكتاب وأن أكثرهم فاسقون ، ثم ختم السورة بالحديث عن رحمته التى كتبها للذين يتقون ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ .

يقول تعالى ـــ موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها ـــ : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها ، هذا كما قال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل**

المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[١] ثم ضرب ــ تعالى ــ مثل الحياة فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : **﴿ كمثل غيث ﴾** وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس وقوله تعالى : **﴿ أعجب الكفار نباته ﴾** أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها وقوله : **﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾** أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً بأن يصير يبساً متحطماً هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء وهكذا الإنسان يكون كذلك فى أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة ، فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير كما قال تعالى : **﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾**[٢] ، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير ، فقال تعالى : **﴿ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾** أى : هى متاع فانٍ غارٌ لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . قال تعالى : **﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾**[٣] وقال جل وعلا : **﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾**[٤] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة فإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[٥] رواه مسلم .

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله : فيرجع أهله وماله ويبقى عمله »[٦] متفق عليه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤

(٢) سورة الروم الآية ٥٤

(٣) سورة لقمان الآية ٣٣

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٤

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » (كتاب الرقاق) باب أكثر أهل الجنة الفقراء .. الخ ج ٤ ص ٢٠٩٨ حديث رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ من رواية لأبى سعيد الخدرى وزاد « فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » وفى حديث ابن بشار « لينظر كيف تعملون » .

(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب « سكرات الموت » ج ٨ ص ١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس ابن مالك .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، « ألا كل شىء ما خلا الله باطل »[١] ، متفق عليه .

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

قوله تعالى : **﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾** .

لما أبان ــ سبحانه ــ أن الآخرة قريبة ، وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم ــ حث على المبادرة إلى فعل الخيرات ــ فقال : **﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾** أى : سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان وعمل الطاعات وسارعوا إلى جنة واسعة فسيحة ، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة . قال السدى : إن الله ــ تعالى ــ شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنويها على أن طولها أضعاف ذلك ، وقوله : **﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾** أى : هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدقين بالله ورسله **﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾** أى : ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع ، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب **﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾** أى : ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾**[٢]

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب الجنة إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك ج ٨ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٣٣ ــ ١٣٦

وكقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ .

أى : ما يحدث فى الأرض من مصيبة من المصائب كقحط ، وزلزلة ، وغيره ﴿ ولا فى أنفسكم ﴾ أى : من الأمراض ، والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الأولاد ، ﴿ إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ أى : إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدها ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أى : إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله — عز وجل — وإن كان عسيراً على العباد ثم بين تعالى لنا الحكمة فى إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر ، فقال تعالى : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شئ لكان . ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أى : جاءكم ، وتفسير آتاكم أى : أعطاكم وكلاهما متلازم أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أى : مختال فى نفسه متكبر فخور أى : على غيره . قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً ، والحزن صبراً . ثم قال تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه (ومن يتول) أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ كما قال موسى — عليه السلام — لقومه ﴿ إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد ﴾[2] ، وكما قال رب العزة : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾[3] ، فإنه سبحانه لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه سبحانه خلقنا لمحض جوده وكرمه وفضله ومنته ، ولو أن البشر جميعاً منذ خلقهم إلى أن تهيأ لهم على ظهر الأرض حركة كفروا بالله ونسوه ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ولا نقص ذرة من سلطانه ، ولا كف شعاعاً من ضيائه ، ولا غض بريقاً من

(1) سورة المطففين الآيات ٢٢ — ٢٦
(2) سورة ابراهيم الآية ٨
(3) سورة فاطر الآية ١٥

كبريائه ، فإنه — سبحانه وتعالى — أغنى بحوله وطوله وأعظم بذاته وصفاته من أن ينال منه وهم واهم أو جهل جاهل ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

قوله تعالى : **﴿ لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾**

يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القطعات . ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهى كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ﴿ والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ أى : وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحري وما أشبه ذلك وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم ، وتحمى المظلوم ، وفيه كذلك منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

وقوله : ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أى : وإنما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكراع لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم . وقوله ﴿ إن الله قوى عزيز ﴾ أى : إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

قال ابن كثير : فى قوله ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله — ﷺ — بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الامام أحمد بسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما —

(1) سورة الجاثية الآيتان ٣٦ — ٣٧

قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزق تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم »[1] .

أهمية الحديد ودخوله فى كل اختراع

قال الاستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله فى كتابه الاسلام فى عصر العلم ما نصه : وقد صرح به القرآن وخصه بالذكر لأهميته البالغة فى حياة الإنسان فى سورة سميت باسمه ، وذلك فى قوله من سورة الحديد ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ الآية ، وفى قوله : ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ معجزة قرآنية علمية ، لأن التحليل الطيفى قد أثبت أن الحديد عنصر من عناصر النجوم والشمس التى انفصلت عنها الأرض إنفصالا أشار إليه القرآن فى سورة الأنبياء بقوله : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما** .. ﴾[2] الآية ، فكأن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ أنزل الحديد من الشمس مع الأرض لينتفع به الإنسان فى اختراعاته كما ينتفع به فى دمه . وهاتان الآيتان الكريمتان كل منهما مثل عجيب من أمثلة الإعجاز العلمى للقرآن .

والحديد وغيره من العناصر يستخرج من خاماته بواسطة النار ، أو ما تتحول حرارتها إليه من طاقة كهربائية مثلاً . وإلى هذا الجانب أشار القرآن إشارة عجيبة فى مغزاها ووضوحها ، وذلك فى قوله من سورة الرعد ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله** .. ﴾[3] الآية .. وفى هذه الآية الكريمة إشارة أحاطت بفن التعدين الذى هو أساس كل اختراع ..

وليست هذه هى الإشارة الواحدة التى تشمل استعمال الإنسان النار فى اختراعاته ، فهناك على الأقل اشارتان أخريان ، إحداهما صريحة ، والأخرى ضمنية . أما الصريحة : ففى قصة السد وابتناء ذى القرنين إياه ﴿ **آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال**

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠
(٣) سورة الرعد الآية ١٧

آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴾[1] الكهف ، وفى هاتين الآيتين إشارة إلى جانب آخر من أهم جوانب التعدين من ناحية ، والاختراعات من ناحية أخرى ، فإن الحديد النقى ليس فى قوة بعض سبائكه ، فأنواع الفولاذ كلها هى من سبيك الحديد مع قليل من الكربون أو غيره كالمنجنيز . وفى الآية اشارة إلى باب السبائك كلها بذكر مثل منها مثل سبك الحديد والنحاس معاً ، إذ القطر هو النحاس .

اما الاشارة الأخرى الضمنية ففى قوله ـــ تعالى ـــ تذكيراً بنعمه على سيدنا داوود : ﴿ **وألنا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر فى السرد** ﴾[2] الآية وإذا كان الله ـــ سبحانه ـــ ألان الحديد لنبيه داوود معجزة بغير نار ، ففى الآية الكريمة تعليم ضمنى لغير داود أن يلين الحديد بالنار ، حتى يستطيع أن ينتفع به فى اختراعاته المضروب لها هنا المثل بعمل الدروع السابقة ، والمضروب للتقدير الضرورى فيها المثل بالتقدير فى السرد الذى أمر الله به نبيه داوود ، وذكره فى القرآن تعليماً وتنبيهاً للإنسان إلى ما ينبغى عليه فى كل اختراع . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون** ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ـــ عليه السلام ـــ لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته وكذلك ابراهيم ـــ عليه السلام ـــ خليل الرحمن ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿ **وجعلنا فى ذريتهم النبوة والكتاب** ﴾[3] ، ثم بين سبحانه أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال : ﴿ **فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون** ﴾ أى : فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضلال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان . كما حكى سبحانه عن ابراهيم : ﴿ **وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل** ﴾ . أى : ثم بعثنا بعدهم رسولاً بعد رسول على توالى العصور والأيام . ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة

(١) سورة الكهف الآيتان ٩٧
(٢) سورة سبأ الآيتان ١٠ ـــ ١١
(٣) سورة الحديد الآية ٢٦
(٤) سورة الصافات الآية ١١٣

شريعته فى عصر التنزيل ولوجود أتباعه فى جزيرة العرب وغيرها فقال ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ أى : وأعطيناه الانجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء مكملاً لما فى التوراة ومخففاً بعض أحكامها التى شرعت تغليظاً على بنى اسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم حواريون ﴿ رأفة ﴾ أى : رقة وهى الخشية ﴿ ورحمة ﴾ بالخلق .

وقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أى : ابتدعها أمة نصارى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ قال ابن كثير : فيه قولان : (أحدهما) أنهم قصدوا بذلك رضوان الله . قاله سعيد بن جبير وقتادة . (والآخر) ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين :

(أحدهما) الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله .

(الثانى) فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم من الله — عز وجل — .

وقوله تعالى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فآتينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً أجورهم التى استحقوها كفاء أعمالهم ، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وكثير منهم فسقوا عن أمر الله واجترحوا الشرور والآثام وظهر فسادهم فى البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكبكبوا فى النار ، وباءوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ أى : يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وداوموا واثبتوا على الإيمان بالله ورسوله ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أى : يعطيكم

ضعفين من رحمته ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ أى : ويجعل لكم نوراً تمشون به فى الدنيا ، والآخرة على الصراط ، ﴿ ويغفر لكم ﴾ أى : ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصى ، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : عظيم المغفرة واسع الرحمة . كما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾(٢) .

قال ابن القيم فى هذه الآية الكريمة : وفيه أن أهل النور هم أهل المشى فى الناس ، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع . فلا مشى لقلوبهم ، ولا لأحوالهم ، ولا لأقوالهم ، ولا لأقدامهم إلى الطاعات . وكذلك لا تمشى على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم .

وفى قوله : « تمشون به » نكتة بديعة ، وهى : « أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم ، كما يمشون بها بين الناس فى الدنيا ، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط ، فلا يستطيع المشى أحوج ما يكون إليه » أ هـ .

وفى الصحيح عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى — ﷺ — خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى لسانى نوراً واجعل فى سمعى نوراً واجعل فى بصرى نوراً ، واجعل من خلفى نوراً ، ومن أمامى نوراً ، اللهم أعطنى نوراً »(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٩
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » ج ١ ص ٥٢٥ حديث رقم ١٨١ / ٧٦٣ من رواية لابن عباس فقد ورد الحديث مطولاً وهذا جزء منه . ولفظه « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوق نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، وعظّم لى نوراً » . وانظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب « الدعاء إذا انتبه من الليل » ج ٨ ص ٨٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مطولاً وفيه .. « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوق نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

روى الأمام احمد فى مسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا لا ، قال فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء »[1] .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أى : لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿ لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوة عن محمد — ﷺ — إلى من يحبون . ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ ، وفى البخارى أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول — وهو قائم على المنبر — : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوارة التوارة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً . ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين . قال أهل التوارة : ربنا ، هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا : لا . فقال فذلك فضلى أوتيه من أشاء »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى : والله واسع الفضل كثير العطاء . كما قال سبحانه : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[3] .

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . (من أدعية الرسول الكريم ﷺ صحيح مسلم ﴾

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « مواقيت الصلاة وفضلها » باب من أدرك ركعة من العصر ج ١ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث من رواية لسالم بن عبد الله عن أبيه مع اختلاف فى بعض نصه وإن اتفقت معانيه .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ٧٣ — ٧٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير